الأطفال المتوحشون

الأسطورة و الحقيقة

تأليف : لوسيان مالسون — ترجمة : لطيف فرح

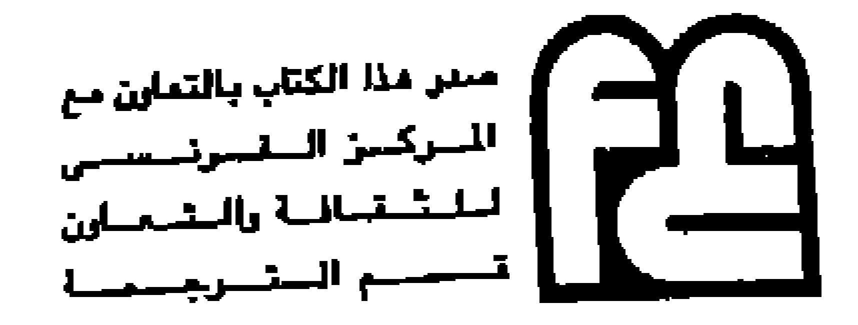


الأطفال المتوحشون
الأسطورة والحقيقة

الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٩٨



القاهرة : ش هشام لبيب - رقم ٤٠
مدينة نصر - المنطقة الثامنة
أسسها
الدكتور طاهر عبد الحكيم ١٩٨٤
تليفون : ٢٨٧٥٠٧٤



الأطفال المتوحشون

الأسطورة والحقيقة

بقلم : لوسيان مالسون **Lucien MALSON** أستاذ علم النفس
الاجتماعي بمركز بومون Beaumont الوطني للتربية والتعليم

ترجمة: لطيف فرج

ملحق:

نص مذكرة وتقرير عن

فيكتور الأفيروني

بقلم : جان إيتار **Jean ITARD** ترجمة: لطيف فرج

ترجمة كتـــاب

Les Enfants Sauvages

Mythes et Réalité

écrit par Lucien Malson

Professeur de psychologie sociale au
Centre national de pédagogie de
Beaumont

Suivi de

Mémoire et Rapport sur Victor de l'Aveyron

écrit par Jean Itard

مقدمة

الأطفال المتوحشون
ومسألة الطبيعة الإنسانية

أصبح من المسلَّم به منذ الآن بأنه ليس للإنسان طبيعة، بل له تاريخ أو بالأحرى هو ذاته تاريخ. واليوم يبدو ما كانت تؤكده الفلسفة الوجودية منذ عهد قريب - وأثار صخباً واستنكارا غير مفهومين- بأنه حقيقة واقعة تعلنها جميع التيارات الفكرية الكبيرة المعاصرة. إذ تعلنها نظرية السلوكية التي ترفض على لسان نافيل Naville فكرة "توارث السمات العقلية والمواهب والقدرات" وتعلنها الماركسية التي تعترف على لسان فالون Wallon (عالم نفسي وسياسي فرنسي ١٨٧٩-١٩٦٢)[١] بأنه "من بين جميع الكائنات الحية نجد أن الإنسان هو الأكثر عجزا عند مولده، وهو شرط نموه وارتقاءه لاحقا." كما يعلنها التحليل النفسي الذي يؤكد وفقا لعبارة لاجاش Lagache (طبيب نفسي فرنسي ١٩٠٣-١٩٧٢)[١] بأن "فكرة الغرائز التي تنمو بذاتها لا تتوافق مع أية حقيقة إنسانية" وأخيرا يعلن هذه الحقيقة أيضا المذهب الثقافي المنتمي إلى الماركسية والتحليل النفسي معا، والذي ينهي الحيرة ويُظهر بوضوح شديد ما يدين به الفرد للبيئة في بناء شخصيته.

ولا ريب أن مفهوم الغريزة في علم نفس الحيوان ذاته قد فقد صرامته التي كان يتحلى بها قديما. ونحن نعرف اليوم أن المحاكاة والتدرب على القيام بمهام لدى الحيوانات العليا، وتأثير إيحاء المجموعة لدى الحيوانات الدنيا التي تعيش في حالة شبيهة بالنوم

[١] من الآن فصاعداً كل ما بين القوسين( ) هو إضافة من المترجم.

الدائم تدلنا على الدور الهام الذي تلعبه البيئة المحيطة في إنضاج غريزة الحيوان. ومع ذلك تستمر الغريزة في الظهور باعتبارها "معطيات سابقة للنوع" يفصح كل كائن بوضوح عن قوتها الموجهة، حتى وإن كان يعيش في حالة عزلة مبكرة. ومع ذلك فإنه في إطار هذا المعنى يعود السلوك الحيواني إلى شيء ما يشبه الطبيعة. لكن نجد أن أي انعزال شديد للطفل يكشف عن انعدام مثل هذه المعطيات المسبقة وغياب هذه البنيات التكيفية المحددة. إن الأطفال المحرومين مبكراً للغاية من كل علاقة اجتماعية - هؤلاء الأطفال الذين نسميهم "متوحشين" يظلون في عزلتهم مجردين إلى حد أنهم يظهرون كأنهم دواب ضئيلة الشأن وحيوانات دنيا. وبدلا من حالة الفطرة التي يفصح فيها الإنسان العاقل والإنسان الصانع البدائيين عن أنفسهما، نلاحظ حالة شاذة يتحول فيها كل ما يتعلق بعلم النفس إلى علم المخلوقات الممسوخة والغريبة.

والحقيقة أن السلوك لدى الإنسان غير مدين لوراثة النوع مثلما هو مدين لدى الحيوان. إن جهاز الاحتياجات والوظائف البيولوجية، الموروث عن النمط الجيني عند المولد يقرن الإنسان بكل كائن حي، دون أن يميزه ولا أن يدل عليه باعتباره عضوا "بالجنس البشري". وفي المقابل فإن غياب هذه الحتميات الخاصة يتناظر تماما مع وجود إمكانات غير محددة. فبدلاً من حياة مغلقة تهيمن عليها طبيعة محدَّدة يحل محلها الوجود المفتوح الذي يخلق وينظم طبيعة مكتسبة. هكذا يمكن أن تظهر بسبب تأثير الظروف الثقافية أنماط اجتماعية متعددة، وليس نمطاً وحيداً معيناً، مما يساعد على تنوع الإنسانية تبعاً للزمان وللمكان. إن ما يستخلصه تحليل التشابهات كأمر مشترك وعام بين البشر هو هيكل للإمكانيات لا بل الاحتمالات الذي لا يصبح كائناً إلا في وجود سياق اجتماعي. ولا يكون الإنسان قبل التقائه بالغير وبالمجموعة أكثر من احتمالات كامنة خفيفة وشفافة مثل البخار. ولكي يتم تكثيف هذه الاحتمالات الكامنة يلزم وجود بيئة، أي عالم

الآخرين. ونحن لا نعرف ما هو الافتراض الذي يجب علينا صياغته عن أصل الإنسان، ولكن يمكننا فقط تصور حدوث انقلابات وتحولات فجائية وضخمة في الخصائص الوراثية في مجتمع بشري بدائي، وهو المجتمع الذي كان لابد من قيامه قبل أن يتمكن إنسان منفرد من الوجود.

ومهما كان شأن هذه التغيرات التي تحثنا نظريات التطور على تصورها، ويدعونا علم النفس الاجتماعي إلى افتراضها، فإننا نسجِّل على الأقل اليوم بأنه يوجد في العالم كائن ليس كباقي مجموع الكائنات الأخرى. وليس هذا الكائن " نسقاً من التركيب والتجميع"، بل يجب عليه إدراك وتعلُّم كل شيء، كما أن قوام الباطني النشوء لديه (الذي يمكن أن نعزوه إلى قواه الخاصة واستعداداته الفطرية) لا يزيد على قوام السحابة العارضة. ولاريب بأن أقول فكرة الطبيعة الإنسانية يعود إلى دوافع اجتماعية - اقتصادية وإلى بواعث سياسية - أخلاقية، لكن من المؤكد أيضا أن له أسبابه العلمية. وهذه الأسباب والدوافع هي التي نعتزم فحصها في هذا الكتاب.

إن مشكلة الطبيعة الإنسانية هي إجمالاً مشكلة الوراثة النفسية، لأنه إذا كانت الوراثة البيولوجية واضحة كوضوح النهار، إلا أنه لا يوجد ما هو موضع خلاف أكثر من القول بأنه يتم نقل "خاصيات" محددة عن طريق البذرة. ويمكن ظهور هذه الخاصيات في نسق المعرفة والوجدانيات - وبالتالي الفعل - وهو النسق الذي تتعرف الإنسانية فيه على ذاتها. إن "الطبيعي" في الإنسان هو ما يتعلق بالوراثة، و"الثقافي" هو ما يتعلق بالتراث (تراث فطري خلال فترة الحمل ذاتها، وتراث قبل الولادة ولاحق لها وطوال مرحلة التربية). وليس من السهل تعيين الحدود بين الطبيعي والثقافي في المجال العضوي المحض. إذ يتوقف طول القامة ووزن الطفل مثلا على إحتمالات وراثية، بل وأيضا على ظروف المعيشة التي يتيحها مستوى الحضارة وحالها. فإذا ما حدث قصور في الغذاء والضوء أو

الحرارة - بل وأيضاً في الحنان- ستصاب صورة النمو المثالية بالتشوش والخلل. وفي المجال النفسي يصبح من المستحيلات مواجهة صعوبات حدوث انشقاق عنيف بين الطبيعي والثقافي. إذ توجد للحياة البيولوجية ظروفها المادية الخارجية التي تتيح لها الوجود والبقاء، ولحياة الإنسان النفسية ظروفها الإجتماعية التي تسمح لها بالانبثاق والدوام. ونجد أن السلوك لدى الحيوان يرتبط ارتباطا وثيقا باللاإراديات الجسمانية (يتناقص هذا الارتباط بوضوح وتدريجياً كلما انزلقت ملاحظتنا من الأنواع الدنيا إلى الأنواع العليا): إن وراثة الغرائز ليست في النهاية إلا اسم آخر للوراثة الفسيولوجية. في حين أنه إذا كنا نعني بمفهوم الوراثة النفسية لدى الإنسان توريث الأفكار والمشاعر والرغبات داخلياً، فإن هذا المفهوم على العكس يفقد كل معنى يمكن إدراكه.

هذا هو ما قادتنا علوم الإنسان إلي التفكير فيه. ففي نظام الوجود العقلي، نجد الجبرية الوراثية الفردية من ناحية، والنوعية من ناحية أخرى، بعد خضوعهما للفحص الدقيق من جانب المناهج الموضوعية فقدتا طابعهما كحقائق مسلماً بها، ولحقتا بمفاهيم أخرى خاصة بمرحلة قبل النقد في متحف الخرافات والأساطير. ويبدو للوهلة الأولى أن مناقشة الوراثة النفسية الفردية تصطدم بالعقائد القديمة أقل من تصادم مناقشة الوراثة النوعية بكثير. على أية حال فبالرغم من رفض الفكرة الأولى إلا أن فكرة أنه يوجد في الجنين استعدادات نفسية خاصة بالنوع، أو بالإنسان بصفة عامة تظل قائمة. ويعتبر طرح هذا المفهوم الثاني للمناقشة بأنه معارضة أكثر عنفاً للأحكام المسبقة الغابرة، وطريقة أكثر حسماً لتذويب فكرة الطبيعة الإنسانية. ومن المفهوم لماذا كانت هذه الحركة الفكرية المعادية للمذهب الطبيعي هي الحركة التي واجهت أعنف مقاومة من جانب الرأي السائد. هذا وقد اتخذ نقد الوراثة النفسية الفردية مساره في اتجاهين مختلفين لكنهما مرتبطان هما: علم اجتماع الذرِّية، ودراسة

التوأمية. وانتظم نقد الوراثة النوعية أيضا وفقاً لطريقين مغايرين هما: الأنثروبولوجيا الثقافية، وتحليل حالات العزلة الشديدة.

وسوف يتجه اهتمامنا نحو هذا القطاع الأخير وهو القطاع الأقل شهرة كما أن الكتب الصادرة عنه تكاد تكون إنجليزية وألمانية فحسب، وذلك بعد القيام أولاً بالتذكير بالانجازات الأساسية للقطاعات الأخرى التي تشجعنا على قبول الحقائق التي تتضح تدريجياً في القطاع الذي نهتم به. هكذا نجد أن كل ما نعرفه اليوم عن الوراثة العقلية يصلح عن طريق تقارب النتائج كدليل إضافي على أن الطبيعة الإنسانية لدى الأطفال (المتوحشين) ظلت دائما خافية عن الأنظار لأنها لم تستطع الظهور إلا بعد وجود الحياة الاجتماعية .

الفصل الأول

وراثة الفرد ووراثة النوع

١- وراثة الفرد

لا توجد "وراثة نفسية" قائمة بذاتها باعتبارها نسقاً محدداً، وبصفتها مجموعة انعكاسات لاستعدادات تشريحية وفسيولوجية، كما لا توجد "عدوى اجتماعية"، بمعنى ميراث يترسخ تلقائياً في الفرد. و بين هذين المفهومين المتعلقين بحتمية آلية علاقة تواطؤ، ويعتبرهما سارتر (جان بول سارتر الفيلسوف الفرنسي المعروف ١٩٠٥-١٩٨٠) بحق "معبود ين تفسيرين كبيرين". وإننا في الحالتين ننسى الوعي أو بالأحرى الوجود كمركز فعال للتوليف يمنح قوة ومعنى للدوافع الجسمية ولإغراءات مجتمع البشر. إن هذا الوجود الفردي باعتباره انبثاقاً، وتفجُّراً، وانطلاقاً متجدداً لا يمكن اختزاله إلى ظروف ظهوره الداخلية والخارجية التي هي مع ذلك ليست أسبابه على الإطلاق. وعلى مستوى الوعي الذي هو مبعث التجديد والانبثاق، فإننا لا نعلل ما يحدث من خلال "الموجود مسبقاً". فالإنسان يتلقى أو يرفض التأثيرات التي يساهم في استمرار وجودها، كما أنه قد يقوم بتنشيطها. فهو يقوم بالخلق وبصياغة ذاته، كما أنه سبب وهدف تاريخه وتاريخ الجميع. إننا نحاول أن نجعله يغوص في الحتميات لكن رأسه دائما تبرز. يوجد لدى الانسان ما هو أكثر من "ممنوح"، وتتضح ابداعيته هذه في مواجهة الهدير المضطرب الصادر من البدن، كما تجاه الرسائل الصادرة عن البيئة الاجتماعية. وباختصار فإن تعبير "وراثة نفسية" ذاته يعين فكرة مجردة تم إعمالها فهو آلية معوِّقة ومجرد تميمة أو تعويذة. إن

الموجود هو "وراثة بيولوجية" فقط باعتبارها مجموعة من الطاقات والحدود القصوى بالنسبة إلى غايات يتم طرحها لاحقا، وباعتبارها أيضا مجموعة من الوسائل ذات تفاعلات وجودية متنوعة - كما أن الصورة التي يصنعها الإنسان في ثقافته عن ذاته تمنح التغيرات البدنية اتجاها لا تمتلكه من تلقاء ذاتها.

إن صورة الذات هذه التي يكوِّنها الإنسان، وأساليب تحقيق الذات التي يمتلكها بتأثير من البيئة المحيطة، تتعارض مع حالات الجسم وحيويته التي تمنحها هذه الصورة وتلك الأساليب معنى واتجاها. هكذا لا يتولد "السلوك النفسي" من "الوراثة البيولوجية" مباشرة. إذ تتدخل بينهما بصفة دائمة كوابح ومؤثرات صادرة عن الوعي. هذا هو ما تثبته علوم الإنسان بوضوح شديد في حين يظل علم الوراثة مبهماً.

وفي الواقع يمكننا الإعتقاد بأن علم الوراثة يقدم لنا معلومات ثمينة للغاية، لكن هذا خطأ. ذلك أولا لأنه يأبى إجراء التجارب على الإنسان، ثم لأنه لا يستطيع التحرك وسط "العدد الكبير" مثل "ذباب الندى" (حشرات تستخدم في تحارب الوراثة) سريع الزوال والتكاثر، وأخيراً لأن علم الوراثة لا يثق قط في النسب الشرعي. يضاف إلى ذلك انه إذا ما فكرنا في تشابك الأفعال النفسية، وتعذر اختزالها تحليليا إلى سمات منفصلة أوجدتها جينات (مورِّثات) معينة" وإذا ما فكرنا أيضا في حقيقة أنه يجب تصور أن الجينات التي يفترض بأنها تتدخل في التطورات تعد بالمئات، وفي مدى تعدد الاحتمالات التي تكونها باعتبارها متغيرات مستقلة" وإذا مارغبنا أيضا في اعتبار نظرية مندِل بأنها لا تزال حقيقة واقعة في هذا المجال لكنها لا تقضي على الصعوبات العملية في التفرقة بين الموروث والمكتسب - وبخاصة بين الموروث والفطري -" وكذلك إذا ما اتفقنا بخاصة على أن العلاقات بين النمط الجيني (أو الوراثي) والنمط الظاهري تتحدد بواسطة قواعد "تغيار إحيائي" (تغير فجائي

في الوراثة) متقلب الأطوار، وأيضاً بواسطة وراثة فردية أو مزدوجة، مباشرة أو متشابكة، مشتركة أو مرتبطة بجنس، وراثة بعد انقطاع (أي عن الأجداد السالفين لا القريبين) أو متراكمة، وبواسطة قواعد متسلطة أو متنحية، أو إنفاذية، فإننا لهذا كله سنقتنع بسهولة بالغموض السائد في حالة العلم الراهنة والكائنة في تقارير المختصين في علم الوراثة. في الواقع أن نظريات المورّثات (الجينات) الخاصة بالتأثير الوراثي في النمط النفسي نادراً ما تنتج عن طريق إجراء ملاحظات وتجارب مباشرة على عالم الصبغيات (الكروموزومات). إنها إنشاءات رياضية استدلالية موجهة لتعليل ظواهر إحصائية تم تسجيلها بواسطة بحوث عالم الاجتماع. ولا يمكننا إدانة المنهج، لكن على الأقل يمكننا التساؤل حول قيمة ومعنى المعطيات المتوافرة. هكذا يقودنا علم الوراثة نحو علم اجتماع الذرّيّة ونقد وثائقه.

ما الذي تعلمناه من وجهة النظر هذه؟ إن الدراسات قد تكدست. وكان موضوعها بخاصة إما النبوغ أو على العكس التخلف العقلي. وفيما يتعلق بالنبوغ فقد لاحظنا وجود عائلات شهيرة مثل آل برنويي Bernouilli النابغين في الرياضيات، وآل داروين في العلوم الطبيعية، وآل جسيو Jussieu في علم النبات، وكذلك بطبيعة الحال آل بالسترينا Palestrina، وكوبران Couperin، وسكارلاتي Scarlatti، وموزار، وهايدن، وباخ الموسيقيين. والمثال الذي يقدمونه دائما في هذا الخصوص هو الدراسة التي أسفرت عن وجود خمسين فنانا يظهرون في قائمة تضم ١٣٦ عضواً من أسرة باخ عبر ثمانية أجيال. ولم يتوانوا قديما في اعتبار تعاقب سير الحياة الناجحة هذه نتيجة لموهبة قابلة للتوريث. ونحن نرفض اليوم هذا التفسير المتعجّل. فالأسرة ليست فقط مجموعة أشخاص يتشاركون في امتلاك إمكانيات بيولوجية، بل هي بيئة تعليمية، ويجب على كل حال أن نرى في تعاقب المواهب قوة مأثور عائلي أكيد ومستمر بفضل العادة وبسبب محاكاة المثال الأبوي. فقد كان أطفال عائلة باخ يولدون

والموسيقى هي قدرهم، مثلما كان أطفال الاسكافيين يجدون أنفسهم مكرسين لإصلاح نعال الأحذية، وأبناء الماليين يجدون ملاذهم لدى أحد البنوك. ومع ذلك فإننا لا نعثر إلا على نابغة واحد في كل أسرة، وبلا جدال أن أحداً ما كان يهتم بالمواهب العادية الأخرى لولا سمو ورفعة النبوغ لدى أحدهم. فقد حدث لدى أسرة كورنيل أن توماس (كاتب وشاعر فرنسي ١٦٢٥-١٧٠٩) هو الذي نال الشهرة وليس شقيقه بيير (مؤلف فرنسي أيضا)، ولماذا نسوا عند ذكر مجموعات مشاهير الرجال فيما مضى، أن يذكروا بالتوازي مواهب أشقائهم الذين غمرتهم ظلمات التاريخ؟ وإذا كنا نوافق أن الشهرة المزدوجة هي حُجّة في صالح تكرار ظهور الجدارة، فيجب علينا اعتبار شهرة فرد بين مجموعة من الإخوة والأخوات بأنها حُجّة عكسية.

ويجب من ناحية أخرى التمييز بين قطاعات النجاح. فمن السهل على ابناء أسرة روتشيلد (أسرة ألمانية تمتلك عدة بنوك) الحصول على عملاء أكثر من حصول ابن موررياك (كاتب فرنسي) على عدد من القراء مساوٍ لقراء أبيه. إن استقرار الأسماء في مجال النجاحات الاقتصادية أكثر من استقراره في مجال النجاحات الثقافية، يبين أن الميزة البيئية المترتبة على المركز الاجتماعي - المتوفر أيضاً لدى أبناء الفنانين أو المفكرين - يزداد أهمية حينما ينتسب نجاح الأب إلى العالم المادي أكثر مما إلى العالم العقلي. وحين كان جالتون Galton (العالم النفسي والفسيولوجي الإنجليزي) يقول غير مازحا بأن "الفرصة الموروثة لتحقيق الشهرة لدى طفل من أب مشهور تزيد ٢٤ مرة"، لم يكن يعرف أنه بذلك يصدر قرار اتهام قاطع ضد النظام الاجتماعي- أو بالأحرى ضد الفوضى الأخلاقية- الذي لا يمنح سوى فرصة واحدة من بين كل ٢٤ فرصة للطفل قليل الذكاء لكي يفقد حظه في الحياة إن لم يبذل فيها جهداً حقيقياً.

وما الرأي بالنسبة للدراسات الخاصة بعدم التكيف والضعف العقلي، وليس القوة النفسية والنجاح؟ لقد عكف جودار Goddard على

حالة مارتن كاليكاك الذي كان له في القرن الثامن عشر ابنا غير شرعي من فتاة تعمل في فندق صغير وبالتالي كان صاحب ذُرّيتين. إحداهما شرعية تتمتع بحالة نفسية سوية، والثانية غير شرعية مليئة بحالات القصور العقلي. ويتساءل أنستاسي Anastasi وفولي Foley ماذا كان سيحدث للأبناء غير الشرعيين لو أنهم تعلموا في ظل مناخ مشابه لمناخ الأسرة الشرعية. إذ أنه بالرغم من سعادة آل مارتن كاليكاك الشرعيين إلا أن "أقاربهم المهملين" لاقوا المصير الذي اختطته العادات بأنهم أصبحوا مهملين ومهمشين ولا يلاقون سوى الإحتقار. وتتولد تأملات مشابهة للغاية عند قراءة دوجدال Dugdale الذي يبين حالة ماكس جوكس الذي كان يعيش بمدينة نيويورك في القرن الثامن عشر، وكان متشرداً وسكيراً. وقد عرفنا أنه كان يوجد في عام ١٩١٥ من بين ذريته البالغين ٢٠٩٤ نسمة، ١٤٠ مجرما من بينهم ٧ سفاحين و ٣٠٠ عاهرة و ٣١ متسولاً و ٦٠٠ متخلف عقلياً. ويطيب للخيال أن يرسم مشهد مأدبة عشاء في حفل زواج لدى آل جوكس، والدرس اليومي الذي يمكن لطفل صحيح البنية أن يتعلمه في مثل هذه الحالة ووسط هذه البيئة الموبوءة بحق.

وتتكاثر البراهين بوفرة لصالح رجاحة تأثير البيئة. لقد أثبت كونراد Conrad وونز Jones أن التشابه النفسي بين الأمهات وبناتهن أكثر قوة مما هو بين الآباء وأبنائهم. أليس هذا لأن الفتيات ينظرن للأم كمثال ويجدنها باستمرار معهن بالمنزل؟ ويؤكد فريمان Freeman وهولتزنجر Holtzinger وميتشل Mitchell أن التشابه بين الإخوة المنفصلين خلال وقت معين يكون أكثر ضآلة لا سيما حين يتم انفصالهما في وقت مبكر أكثر. ويذكرون أيضا أنه في الأسر التي يوجد فيها أطفال بالتبني، نجد أن معاملات الارتباط النفسي بين الأطفال الحقيقيين والمزيفين من ناحية، وبين الأطفال المزيفين المنتمين لمنابت مغايرة ويعيشون في هذه الأسر من ناحية أخرى متعادلة تماما. وتمت ملاحظة أن الملاجيء توزع الأطفال على أسر

اصطناعية قادرة على تحقيق مثال الأسر الطبيعية وأن التوزيع يبدو في الأغلب انتقائيا . ويمكن الاستنتاج بأن الفرد يجد في أسرة جديدة إما معلمين من ذات "النوع البيولوجي" للذين أنجبوه، وإما بيئة متجانسة مع البيئة التي خرج منها، الأمر الذي يقضي من بعض الأوجه على كل مغزى للتجربة، لكن منذ أن تظهر الاختلافات الثقافية بين الإخوة الحقيقيين الذين تربوا بطريقة مغايرة، تتضح الاختلافات النفسية من جديد، ويهبط معامل التشابه من ٣٩ إلى٢٨.

وإذا كان كاتل Cattle اعتقد بأن الارتفاع الشديد لمعدل الارتباط المتبادل بين نتائج الإخوة في اختبار الذكاء يدل على استعدادات وراثية، فذلك لأنه افترض بسذاجة أن هذه التجارب قد استبعدت كل ما يمكن أن ينشأ عن الثقافة والتعليم، وبأنها لم تتوجّه إلا للفكر "المجرد". والحال أنه يمكن تفسير جميع الارتباطات التبادلية الهامة بسهولة للغاية بلغة البيئة، وإذا ما كان "التأخر العقلي التبادلي" يقل وفقاً لدرجة القرابة فيجب اعتبار ذلك بأنه ليس إلا دليلاً آخر على درجة التماثل التعليمي. وبالعكس حينما ينم الوالدان عن تأخر عقلي، ثم ينم معظم الأبناء عنه أيضا، فقد حدث هذا لأن الأبناء قد وجدوا في محيطهم المباشر فرصتين من بين كل فرصتين لرصد "النموذج" المتخلف. وهنا أيضا ستحصل الفرضية الثقافية على دليلها في حقيقة أن تبادل التخلف العقلي يزيد ثلاث مرات - مثلما أوضحه بينروز Penrose- حين ننظر إلى مزدوج الأم- الإبن بدلا من مزدوج الأب- الإبن. إن وظيفة الأم التعليمية في مجتمعاتنا التي تجعلها قريبة من الطفل، تجسد الأولية الأولى لتأثير البيئة المحيطة وترمز إليها. قِس على ذلك أيضا في مجال "العصابية"، و"التسلط"، و"الاستقلالية" فقد أوضح كروك Crook بدوره أن الارتباطات المتبادلة تختلف لصالح تأثير الأم لا تأثير الأب "البعيد". وعلى هذا ففي مجال الحقائق الوجدانية، مثلما في مجال الحقائق الإدراكية يخفت الاهتمام الذي نوليه "للوراثة" أمام الاهتمام الذي يجتذبه "التراث".

وتوجد تجارب أخرى تعمل لصالح نفس الاتجاه. إذ أنه وفقا لجونز Jones ، وريتشاردسون Richardson ونيف Neff ولاختبارات الذكاء، نجد أن معامل الارتباط المتبادل بين الزوجين مرتفع كارتفاعه بين الأخ والأخت، بالرغم من تمايز الوراثة بين الزوج والزوجة ومن انتماء الإخوة والأخوات إلى ذُرِّيَّة موحّدة. ففي إطار بيئة متماثلة لم تتمكن الأنماط الجينية المتشابهة من صنع حالة تشابه مثل تلك التي صنعتها الحياة المشتركة. وفي رأي بايلي Bayley وفان ألستينVan Alstyne ، أن مستوى ثقافة الوالدين المدرسية أو الجامعية يتيح وضع تقدير أفضل لقيمة الطفل الذهنية عندما يصبح في العاشرة من عمره وذلك أكثر من اختبارات الصغار التي تطبق عليه في صغره حين "يكون أكثر قربا من ذاته". ويرى سكيلز Skeels أن أطفال الأمهات ضعيفات العقول الذين يوضعون بالتبني لدى عائلات طبيعية يصلون إلى نسبة ذكاء على الأقل مساوية لنسبة ذكاء السكان في مجموعهم. وتؤكد هذه النتيجة ما توصل إليه فريمان وهولتزنجر وميتشل الذين أكدوا أيضا بأن دراساتهم بشأن بعض حالات أطفال لوالدين متخلفين لكنهم يعيشون خارج أسرهم، قد كشفت عن عدم وجود قصور عقلي مميّز لديهم. وأخيرا تقول روث بنديكتRuth Benedict وجين و لفش Gene Welfish أن الزنوج الذين يصفهم العنصريون بأن مستوى ذكائهم أقل، حققوا انجازات حين حصلوا على تعليم في بعض ولايات شمال الولايات المتحدة تفوق انجازات البيض الذين تعلموا في بعض ولايات الجنوب. ويعتقد كراميخائيل Cramichaël في كتيبه الشهير أنه من المبرر افتراض أثار "الهجرة الانتقائية" في هذا الشأن: فإن أفضل الزنوج وأكثرهم موهبة ونشاطا لا بد وأنهم قد وجدوا لديهم القوة للذهاب للإقامة في الأراضي حيث التفرقة العنصرية أقل حدة. وكان من الممكن الوقوف عند هذا الحد، لولا أن التجربة - التي لم يشر إليها هذا الكتيب بشيء- قد دحضت هذا القول وهشمت هذه الفرضية اليائسة. وإننا ندرك خطأ هذا القول

حين نقرأ كتاب أوتو كلاينبرج Otto Klineberg "ذكاء الزنوج والهجرة الانتقائية" الذي يقول: يُظهر الاستقصاء المدرسي والاجتماعي بشأن أولئك الذين كانوا في الجنوب ثم هربوا من البيئة الخانقة أنهم ليسوا في غالبيتهم الأكثر ذكاء أو الأكثر تسلحاً - بل على العكس- فإن فكرة رحيل الأكثر قدرة لا ترتكز على أي أساس.

ولنلاحظ بالمناسبة أن العنصرية ذاتها قد ارتكزت على نظرية أن توارث السلوك مرتبط ارتباطا نهائيا بوراثة فسيولوجية. فقد كشفت العنصرية عن ذاتها باعتبارها بديلة أكثر غموضا لنظرية "الوراثة النفسية" طالما أنها افترضت التكاثر الإحصائي لخاصيات ذات نمط معين تنتقل عن طريق الذُرِّية. وليست العنصرية اليوم أكثر من انفعال قوي، ونتاج للقلق، ورأي عُصابي لدى أولئك الذين لايستطيعون فتح عيونهم على عالم الحجة والبرهان - كما أننا نعرف مثلاً كيف أن طب الأمراض النفسية يكشف عن العلاقات الوثيقة التي تقرن في أغلب الأحيان الموقف العنصري بموقف الشذوذ الجنسي. ويعود مجمل الارتباك والبلبلة الذي كان حادثا في المناقشات الغابرة إلى أننا كنا نؤكد بأننا حين نتحدث في موضوعات الوراثة والتراث وعند وصف الأسرة -أو المجموعة العِرقية- أي مجموع المعارف الكروموزمية، بل والبيئة الثقافية، فإننا لم نكن نتحدث إلا عن البيولوجيا. وهذا هو السبب في أن علم النفس الاجتماعي قد سعى في نهاية الأمر إلى تنصيب نظام لدراسة التوأمية كمحكمة عليا.

ومثلما يقوم علم الوراثة بالإحالة - كما سبق ورأينا- إلى علم اجتماع الذُرّية الذي يتخذ منه مرتكزاً، فإن علم اجتماع الذُرّية يحيل بدوره إلى علم التوائم. لماذا؟ لهذا السبب البسيط وهو أن التوائم المتماثلة (أحادي اللاقحة) من ناحية، والتوائم الأخوية (ثُنائي اللاقحة) من الناحية الأخرى، يمثلان إذا ما افترضنا امكانية المقارنة بينهما ميدانا "للتجارب الحاسمة". في الواقع أن التوائم أحاد البيضة

-أو ذوي لاقحة مثلية- هم نتاج انشطار ثنائي لبويضة واحدة كما أنهم ذوي طبيعة كروموزمية مشتركة. أما التوائم ثُناء البيضة - ذوي لاقحة مغايرة- فإنهم نتاج إخصاب منفصل لبذرتين وعلى مستوى الوراثة ليسوا متشابهين فيمابينهم مثل عدم تشابه الأشقاء أي الإخوة الغير توائم. وبعد أن انتهينا من توضيح المعاني، يصبح اتجاه مشروعنا واضحا للغاية: ليتنا نتوصل إلى إظهار أن التشابهات النفسية بين التوائم المتماثلة هي في المتوسط أكثر من بين التوائم الإخوة، بالرغم من خضوع كليهما بالتساوي لتأثير بيئتهما، إذ أننا سنتمكن في حالة عزلهما تماما وبطريقة في غاية الكمال من إظهار تأثير النمط الجيني. ففي هذه التجربة يمكننا تخيل أنه إذا ما أمكننا من ناحية المبدأ عزل البيئة والوراثة، سنستطيع استنتاج فعل كل منهما بمجرد استبعاد تأثيره.

وقد أجرى علماء النفس بحوثاً عديدة في هذا الشأن وبخاصة فيما يتعلق بالذكاء. وظهرت قبل كل شيء حقيقة مذهلة، هي أن التشابهات بين التوائم المتماثلة تقل فجأة حين ننتقل من المستوى "البدني" إلى المستوى "النفسي". أن يكون التوائم قد تربوا منفصلين أم لا فهذا لايُحدث إلا تغييراً طفيفاً في مُعامل الإرتباط المتبادل المتعلق بضخامة الرأس مثلا. وقِس على نفس المنوال ما يحدث بشأن نسبة الذكاء. وعلى الفور يتم من جديد طرح السؤال عن العلاقة بين النفسي والبدني التي وصفتها حتمية مفرطة في التبسيط بأنها علاقة النتيجة بالسبب. إن النظرية العنصرية التي جعلت الذكاء في القرن الماضي يتوقف على شكل الجمجمة قد انهارت في مواجهة تقدم الأنثروبولوجيا (البدائيون المنتمون إلى قبائل "الكافرْ" بجنوب إفريقيا مستطيلو الرأس مثل الألمان)، وفي مواجهة تقدم علم النفس ذاته (أفضل طلبة في الجامعات الأمريكية لايتناسبون بصورة ذات مغزى مع مستطيلي الرأس). ويمكن القول على نفس المنوال أنه إذا كان قد تكشف وجود علاقة بين حدة الذهن ووزن المخ على مستوى

الأجناس، إلا أن هذه العلاقة غير قائمة داخل الجنس الذي نبحثه. من المؤكد أنه من المتعذر عدم التسليم بوجود تشريطات أكثر رفاهة مثل تلك التي نستند إليها حين نتحدث عن "الضعف العصبي"، أو حين نشير إلى مسئولية الغدد ذات الإفراز الداخلي. لكن هنا أيضا، يجب الإقرار بأنه إذا ما كانت الحياة العقلية تتوقف على الظروف العضوية بلا منازع ، فإن الحياة العضوية في المقابل تتوقف أيضا على الوجود الكلي. لقد كنا نظن خلال أمد طويل أن مستوى الأيض القاعدي الأكثر ضعفا لدي الصينيين منه لدينا، هو السبب في هدوئهم وفي "حكمتهم"، لكن ظهر أن هذا المستوى يزداد لديهم حينما يعيشون في سان فرانسيسكو، كما يقِل لدينا حينما تطول إقامتنا في الشرق الأقصى. إن ما نتعلمه بوضوح شديد من الطب النفسي للعصاب هو هذه العلاقة المعقدة بين الطبيعة الجسمانية والوجود، فضلاً عن الحالات التي فيها "ينسج الإنسان الخرافات بشأن جسمه" ويتجسد جميع الأمراض. وهذا هو ما يداوم الطب النفسجسمي (سيكوسوماتيك) على إثباته حينما يبرز المنشأ النفسي لبعض أنواع الأكزيما أو قروح المعدة. وحيث أنه لا يوجد ما هو "فيزيولوجي محض" - مثلما لا يوجد ما هو "نفسي محض"- فإننا ندرك أنه لا يتم تفسير العلاقة بين حقيقة نفسية وحقيقة فزيولوجية باعتبارها علاقة سببية شبيهة بالخط المستقيم، بل باعتبارها تأكيد للاعتماد المتبادل بينهما. وندرك أيضا لماذا لا نجد لدى التوائم أحاد اللاقحة الذين عاشوا في بيئة متغايرة تلك التماثلات بين الموروث عضويا والشأن السلوكي التي افترضتها الآراء قديما أثناء المرحلة قبل النقدية.

على أي حال هل تظل التشابهات بين التوائم المتماثلين أكبر مما هي بين التوائم الإخوة في جميع الحالات؟ يبدو هذا صحيحا للوهلة الأولى بخاصة في ميدان الذكاء، بالرغم من أن النتائج تتفاوت تبعا لنوعية الاختبارات - اختبار عددي أو اختبار لفظي- ووفقا

للمراقبين. ولننظر إلى الموضوع من على قرب أكثر. لقد حصل نيومان وفريمان وهولتزنجر بمقارنتهم لنسب الذكاء على اختلافات متشابهة بين التوائم الإخوة (٩،٩)، وبين التوائم المتماثلين الذين تربوا بعيدين عن بعضهما البعض (٩،٨). هذا بالإضافة إلى أن عاملا فرديا يتدخل بوضوح حسبما يؤكده نيومان حين يذكر أنه في ترتيب نسبة الذكاء توجد مسافة تمتد من ٩٧ إلى ١٣٠. وفي ميدان الطباع تكشفت البحوث بأنها أكثر دقة. لقد أبتغينا أولا دراسة التوائم المجرمين - ومع ذلك يظل مفهوم الجريمة مشوشا -. لقد استند لانج في مؤلفه "Verbrechen als schicksal" الصادر عام ١٩٢٩ إلى ٣٠ حالة. وفي عام ١٩٥٩ شملت الاستقصاءات التي أجراها روبرت فيل ٢٢٢ حالة من بينها ١١١ زوجا من التوائم مزدوجي البويضة، و ١١١زوجا من التوائم أحاد البويضة. والحال أنه لدى التوائم المتماثلين كان يوجد مجرمان بين كل ٨٠ زوجا من بين ال ١١١ ، مقابل مجرمين بين كل ٣٨ زوجا من ال١١١ لدى التوائم الإخوة . وكان ترتيب التناسب يتناقص حينما ننتقل من التوائم المتماثلين (٧٢%) إلى التوائم الإخوة (٣٤%) وإلى الأشقاء (٨%). ويمكننا أن نكشف في هذه الحالات عن تأثير البيئة: من وجهة نظر علم الوراثة لا تتشابه التوائم متغايرة اللاقحات فيما بينها أكثر مما يتشابه الأشقاء. وعلى هذا كيف يحدث أن الصفة الإجرامية تتكرر لدى زوج من التوائم أكثر من تكرارها لدى زوج من الأشقاء؟ السبب بوضوح هو أن التربية التي يتلقاها كائنان متماثلان جسمانيا تجعلهما يتجانسان، في حين أن التربية التي يخضع لها كائنان متعارضان جسمانيا تتجه نحو التمييز بينهما. ومن ناحية أخرى فإن الاختلافات - يوجد العديد منها دائما - على المستوى الذهني كما على المستوى الوجداني تقضي على الفرضيات القديمة بشأن الحتمية الوراثية. وفي كل مرة يحدث فيها اختلاف يمكن للنتيجة أن تتخذ شكل معضلة لا بد فيها من الاختيار بين أحد بديلين: فإما أن التكوين الوراثي للشقيقين

أحادي البويضة هو في صالحهما بالتساوي، وعلى هذا يعود التأخر النفسي أو القصور الوجداني لأحدهما على ظروف خارجية المنشأ، وإما أن تكوين الإثنين ليس في صالحهما بالتساوي وقد وجد أحد الإخوة معاونة لدى ظرف يمكن وصفه أيضا بأنه خارجي المنشأ. ومهما كان الاختيار، فلا يوجد جواب مرض داخل محيط الوراثة وحدها.

وإذا ما فحصنا حالة التاوأمية المتماثلة، من وجهة نظر نفسية-اجتماعية فإن كل شيء سيتضح. إن التوائم المتماثلة تتعرف على ذواتها من تشابه وجوهها - لون العيون، بنية الأذن، لون الشعر وتوزيعه، شكل الرأس -. ولا يُعتبر وجود مشيمة واحدة ومشيمة خَمْلية واحدة عند المولد دليلاً حاسما. هكذا فإن كل إحصاء يتعلق بأحاد الخلية يخفي حقائق تشابه جسماني، كما يخفي في ذات الوقت التماثل الناتج عن ردود الفعل تجاه البيئة التعليمية. وينزع الأشخاص المحيطون إلى التعامل بنفس الأسلوب مع الحقائق البادية للعيان بدون تمييز موضوعي. ولا يدهشنا أن الدراسات التي من هذا النوع تقرّ في استنتاجاتها بما أسند إليها في المقدمات المنطقية، وذلك عندما تقتصر على فحص الظواهر المرتبطة بالعمل التعليمي مثل الإجرام أو الانحراف. ويجب أن نقول المزيد: فبالرغم من قيام الغير بالتوحيد بين التوأمين إلا أنهما يُظهران اختلافات بينهما إذا ما دققنا النظر باهتمام. وقد لاحظنا ذلك من قبل بالنسبة لقصة التوأمين "السياميين" انج وشانج Eng et Chang الخيالية والتي نالت شهرة واسعة في القرن التاسع عشر. وقد قال زازو Zazzo بطريقة رائعة كيف أنه يجب علينا " قلب أوضاع افتراضاتنا". وأوضح أنه على مستوى أعماق الشخصية يفلت التوائم المتماثلون من سحر الازدواج، ومن نشوة المرآة - الكاذبة، ويتفرد كل منهما ويتميز في دوره، كمايستبطن تجربته الخاصة، وتصبح له شخصية مبتكرة بالرغم من تماثل الموروث والثقافي بينهما. هكذا يجب على العطيَّة البيولوجية الوراثية

أن تحصل على اتجاه من التأثيرات الإجتماعيــة، تلـك التـأثيرات التــي تتقبّل بدورها تدخُّل عنصر لا يمكن التخلي عنه وهو: الوعي. وتسير الأمور كما لو كانت البيئة قد حررت الطاقات جينية النمط أو كبحتها، وكما لو كانت هذه البيئة ذاتها لم تعمل إلا وفقا لرؤية الكائن الإنساني لها وعلى ضوء اختيـاره الأساسـي. وليست كل من الوراثة والبيئـة حقائق منفصلة الواحدة عن الأخرى ولا يضاف تأثير كـل منـهما إلـى تـأثير الأخرى، كمـا أنـهما ليسـتا متغيرات مستقلة، لكنـهما قطبــان لجدليـة تصنـع الشخـص. إن فكـرة "الطبيعـة" النفسـية الفرديـــة فــي الإنسـان تواجـه الاعتراضـات مـن كـل جـانب، وتنـهار مثـل الــبرج الحصين الذي يرمز إلى فكر عصر آخر.

٢- وراثة النوع

هل يوجد وراثيـا لـدى كـل شخـص إنسـاني اسـتعدادات وميــول خاصـة بجنسـه؟ وهـل يظـل لـدي الطفـل الإنســانى هــذا "الجوهــر النوعي" الذي لا يجعلـه خلفـا لقِرد أو لنملـة؟ فـي الواقـع أن مفــهوم "الطبيعة الإنسانية الشاملة" يجب أن يخضع للفحص النقدي، مثله في ذلك مثل مفهوم "الطبيعة الإنسانية الفردية". لا يوجد في هذا المجـال ما هو موضع شك أكـثر مـن البديـهيات الآتيـة. وحيـن يضعنـا القـرن العشـرون - الـذي تطـور فيـه علـم السـلالات البشريـة والتـاريخ- فــي مواجهة الحضارات البدائية أو التــي كـانت مجهولـة فيمـا سبق، فإنـه يحطـم المعتقـدات السـاذجة ويحولـها إلـى شظايـا. إن جميـع دراســات الأنثروبولوجيـا الثقافيـة الأمريكيـة مثــلا، قـد زعزعـزت اليقينيــات المتولدة عن الجهل، وذلك بالكشف عن التنـوع الإنسـاني اللامتنـاهي. ومن الممكن الاطلاع على هذا التنوع في النسق التزامني أو السكوني دراسة الظواهر فى أماكن مختلفة أثنــاء عصـر معيـن أو خـلال زمـن واحد كما في النسق التعاقبي أو الديناميكي في آن واحد (يتعلق النســق

الديناميكي إما بتطور المجتمعات وإما بتطـور الطفل والمراهـق إلـى شعب).

وفي النسق التزامني تكثر العلامات التي تدحـض فرضيـة التمـاثل النوعـي الدقيـق، وتظـهر جميعـها كيـف أن التعليـم يُشكّـل الشخصيــة الأساسية - الذكاء والطبُع العرقيين-. ويتلقــى الإنســان مـن البيئـة أولا تحديد الصالح والطالح والمريح والمزعج. هكذا يُقبل الرجل الصيني على البيض الفاسد والرجـل الاوقيـاني (سـاكن إحـدى جـزر أوقيانيـا) على السـمك المتحلـل. وهكـذا أيضـا يبحـث الأقـزام الإفريقيـون عـن المذراة الخشبية الجارحة عند النوم، كمـا يضـع اليابـاني جـذع شجـرة خشن تحـت رأسـه. ويحصـل الإنسـان مـن بيئتـة الثقافيـة أيضـا علـى طريقته في النظر إلى العالم وفي تصوره. ففي اليابان حيث يعتبرون من اللياقة وحسن الأدب اعتبـار الرجـال بأنـهم أكـبر سـنا ممـا يبـدون عليه، نجـد الأجـانب يفرطـون فـي ارتكـاب الأخطـاء فـي هـذا الشـأن بحسن نية. وقد تأكد أنه يتم تشكُّل الإدراك الحسي للألوان وللحركـات وللأصـوات وتوجيهه وفقا لطرق المعيشة (يبدي سـكان جزيـرة بـالي مثلا حساسية شديدة تجاه درجات السلم الموسيقي وتنوعاتــه). ويمكـن أن نقول نفس الشيء بالنسبة للوظائف الإدراكية. ويقوم الإنسان أيضا باستعارة المواقـف الوجدانيـة النمطيـة مـن بيئتـه المحيطـة. فالسكان الماوري الذين يعيشون بجزر بولنيزيا (بالقرب من نيوزيلندا) يبكـون عندما يشاؤون، وتنهمر دموعهم حينما يعود المسافر، ولا يبكـون قـط عند الفراق. ولا يشعر الاسكيمو الذيـن يعيشـون فـي القطـب الشمـالي بـالغيرة علـى زوجاتـهم ويعتقـدون أن إكـرام الضيـف يسـتلزم تقديـم الزوجة إليه، كما نجد نفس هذه العادات لدى الساموا من سـكان جـزر بولينزيا. وفي المقابل يعتبرون أنه من الطبيعي أن يقوم الإنسان بقتـل عدوه الشخصي وأن أوج اللامعقـول هـو دخـول الجميـع فـي معـارك ضد الجميع بخاصة ضد الغربـاء. ولا يعتـبرون المـوت شيئـا أليمـا، ويتقبل كبار السن الموت باعتباره نعمة، كما يبتهج المحيطون بهم من

أجلهم. وفي جزر آلور يعتبرون الكذب من أجل المداعبة أمرا طبيعيا : كثيراً ما يلهو الكبار ببذل الوعود الكاذبة للصغار. ونجد نفس روح المداعبة في جزيرة نورمانبي حيث تداعب الأم طفلها بسحب ثديها من فمه أثناء الرضاعة. ويتباين العطف على المسنين وفقا للأماكن وللظروف الاقتصادية-الاجتماعية: بعض الهنود في كاليفورنيا يخنقونهم وآخرون يتركونهم على الطرق العامة. ويقوم أهالي جزر فيجي بدفنهم أحياء. ويتوقف احترام الآباء على المواقع الجغرافية أيضا. فالأب يحتفظ بحق الحياة أو الموت في بعض الأماكن مثل توجو والكاميرون وداهومي ولدى الأقزام الزنوج في الفليبين. وفي المقابل كانت السلطة الأبوية غير موجودة في شبه جزيرة كامتشاتكا بسيبريا قبل النظام الشيوعي، ولدى أهل البلاد الأصليين في البرازيل. إن أطفال قبائل التاراهومارا يضربون ويشتمون أسلافهم. ويتم الزواج لدى الاسكيمو عن طريق الشراء. ويمكن للرجل المنتمي لقبائل الأورابيما باستراليا أن يحصل على زوجات ثانويات يكن في ذات الوقت زوجات رئيسيات لرجال آخرين. ويسود في سيلان زواج المرأة من عدة أشقاء: فالشقيق الأكبر يتزوج ويقيم الأشقاء الأصغر علاقات مع زوجة شقيقهم. إن منع ارتكاب المحارم هو حقيقة واقعة في جميع المجتمعات لكن تحديد هذه المحرمات ليس متماثلا في كل مكان. إن حب الأم لطفلها ورعايتها له غير موجود في جزر مضيق تورس وفي جزر أندمان حيث يهبون الابن والابنة بطيب خاطر إلى ضيوف الأسرة كهدايا أو إلى الجيران كدليل على الصداقة. إن السمات التي نسميها "ذكورة" قد تكون في مكان آخر من سمات الأنوثة مثلما يحدث لدى قبائل التشامبولي مثلا حيث تهيمن المرأة على الأسرة وتتولى القيادة. إن الاعتقاد "بروحية المادة" التي يرى بيا جيه (عالم النفس السويسري ١٨٩٦- ١٩٨٠) أنه يبدو مرتبطا بالعقلية الطفولية يتضح لدى بعض البدائيين بصورة أقل بروزا مما في المجتمعات الغربية، حيث تلاحظ الأنثروبولوجية الأمريكية

مارجريت ميد (١٩٠١-١٩٧٨) أن هذا الاعتقاد قد يوجد أحيانا لدى الراشدين في الغرب.

وقد قامت الشعوب بتطوير "أسلوب للحياة" يعتبر النموذج الأصلي المحتذى الذي يتمسك به كل فرد من أبنائها. وقد عرفت مارجريت ميد كيف توضح أكثر من أي مؤلف آخر التأثير الذي يمارسه "النموذج الاجتماعي" والبيئة المحيطة بالفرد. ويتصف سكان جزيرة بالي (جزيرة إندونيسية) بسلوك شبه بالانفصامية (الشخصية المنغلقة والمنطوية)، ويظهرون لامبالاة شديدة تجاه تقلبات الحياة سواء كانت سعيدة أم تعيسة.ويكمن منشأ شبه الانفصام هذا في مأثور تاريخي لتربية غير متسقة تتصف بالتأرجح، كيفما اتفق، بين المعاملة الطيبة والمعاملة السيئة. فإنهم يداعبون الطفل ويدللونه ثم فجأة يهملونه ويتركونه يبكي. ويتسبب الكبار بصفة دائمة في إصابة الطفل بخيبة الأمل حين يستهترون به. فإنه ينفصل عن هذه البيئة المخيبة للأمل شيئا فشيئا، وينظر إلى الزمان باعتباره سلسلة من التناقضات المتعاقبة، وبأنه "استمرارية لانهائية لا تقودنا حقيقة إلى أي مكان". وإننا نعثر على مستوى الخيارات الواقعية لأحد الشعوب على دلائل التلقائية الإنسانية. فالبشر يبتكرون حلولا عديدة لمشاكل انتقالاتهم، ومسكنهم، وغذائهم، وملبسهم، كما يبتكرون حلولا أخرى كثيرة في مجال العلاقات مع الذات ومع الآخر. وإلى أولئك الذين قد يعتقدون أن هذه الخيارات الواقعية تضعنا أمام العِرق كعنصر تفسيري، أي أمام وراثة بيولوجية معينة فإن علم الأنثروبولجيا يجيبهم على لسان روث بنيديكت Ruth Benedict بأن هذا أمر لا يجب أن يخطر لهم على بال. فأولا إن الحضارات قابلة للفناء، إذ قد تتألق بعض الشعوب مؤقتا وتعيش مجدا زائلا ثم تعود إلى الظلمات الأولية: هذا هو ما حدث للثقافات الإفريقية المزهوة مثل ثقافة مصر القديمة، وثقافة إثيوبيا في بداية العهد المسيحي، أو ثقافة بينين في القرن الخامس عشر. ثم إنه كما في حالات التوائم الذين

تربوا منفصلين، تمتلك علوم الإنسان إمكانية "التجربة الحاسمة" عن طريق فحص السكان المهاجرين أو المُهجَّرين. وليكن الفحص الذي أجري على جماعة الزوني وجماعة كواكيوط الهنديتين والمنتميتين إلى نفس العِرق: لقد تم تجميع كل من الجماعتين في مكان منفصل محجوز لها، واتجهت كل منهما إلى سلوك مناقض تماما لسلوك الأخرى. فالمجتمع الزوني مجتمع هادىء، مسالم ورصين، يعتنق قواعد دينية متعددة، ويُعنى بالمجاملة وبالدماثة وبالتواضع. في حين أن المجتمع الكواكيوطي مجتمع هائج ومضطرب ومزاحم، يستهين بالشكليات وبالطقوس، ويهتم بإقامة شعائر شاطحة، وبتغذية العدوانية والفظاظة والعجرفة. وتقول بنيديكت أن المجتمع الأول يتخذ "الحضارة الا بولينية" (المتسمة بالنظام والرصانة) كمعيار له، في حين يتخذ المجتمع الثاني "الحضارة الديونيسية" (المتسمة بالشهوانية والعربدة) معيارا. وعلى هذا يكون العِرق المشترك بين الجماعتين قد أتاح التضاد، بمعنى أنه لم يلعب إلا دورا تافها في السلوك، هذا في حالة إذا ما كان له أي دور. وإذا كنا لا نستطيع انكار تأثير الوراثة العرقية بصراحة قاسية، فإننا على نفس المنوال لانستطيع المجادلة مسبقا بتأثير البروج على المصائر أو موقع زحل على درجة حرارة غليان الماء. لقد تم فيما مضى انفاق كنوز من القدرات المبدعة لإثبات تأثير العطيَّة البيولوجية على الحقائق العِرقية. ما الذي تبقى من كل ذلك؟ لا شيء إطلاقا. على العكس فقد أكدوا وجود "طبيعة" تجمع بين جميع البشر فوق سطح الأرض، بالرغم من الاختلافات فيما بينهم. وما الذي تبقى أيضا من هذا المفهوم الأخير الجسور؟ ربما لم يتبق الكثير.

ويمكن بسهولة أن يصاحب هذا البرهان وفقا للمكان برهان آخر وفقا للزمان. أن يكون في عرف الماركيز دي صاد (كاتب فرنسي ١٧٤٠-١٨١٤) أنه في قديم الزمان كانت مدينة اسبارطة اليونانية تشجع السرقة والقتل كتدريب على الشجاعة في الحرب" وكان التتار

يمجدون الدعارة، والجمهوريون اليونانيون لا يعتبرون الزنا ولا الانتحار بأنهما جريمة; وكان سكان مدينة طيبة المصرية وجزيرة كريت والفرس والغاليين (في فرنسا وبلجيكا وسويسرا) يُبجِّلون اللِواط والسِحاق، فقد تحول ذلك كله إلى تبرير لمذهب المتعة المجنونة. وكان خطأ الماركيز دي صاد مضاعفا. أولا لأنه كان يُجري انتقاءا تعسفيا، ويصوِّر "إنسانا خالدا" يقول عنه بأنه تم تشويهه بواسطة المعتقدات الدينية وحدها. وثانيا لأن مسألة الأخلاق والآداب ترتكز تحديدا على اختيار ما يتجه نحو تقليص المعاناة وتوسيع نطاق الحرية - للذات ومن ثم للآخرين. ولكن يظل من الصحيح أن التاريخ قد يحطم تماما الصورة التي قد نحاول صنعها عن الإنسان.

ويتيح البعد الزمني إجراء وصف آخر لمبدأ النسبية، وهو وصف أكثر حداثة، كما أن المذهب الثقافي يستثمره في علم الطفل وفي علم المراهقة. إن علم النفس - بخاصة في أوروبا- يؤكد على المراحل التي يمر بها الكائن صغير السن لكي يصبح رجلا مكتملا. والحال أنه يتم إدراك هذه المراحل تبعا للثقافات، كما أن مدلولها يتنوع. ففي المجتمعات التي فيها يفطمون الطفل متأخرا أو بالتدريج الشديد يمكن للعقدة التي تصاحبه في أماكن أخرى أن تُصبح خفيفة للغاية بل وغير محسوسة، كما يحدث في جزر تروبريان حيث لا تظهر المرحلة الأستية قط ، وحيث لم يكونوا قبل مجيء الرجل الأبيض يعرفون بوجود ارتباط بين الشهوة والأستية. لقد كان فرويد يعتبر عقدة أخرى هي عقدة أوديب بأنها عامة كونيا . وقد ذكر كاردنر (المحلل النفسي الأمريكي ١٨٩١-١٩٨١) أن هذه العقدة لا تظهر في مجتمعات جزر آلور حيث لا يبدى الآباء والأمهات اهتماما بنسلهم ويهملون العناية بهم تاركين لهم حرية كبيرة، كما يحرمونهم من إقامة علاقات حميمة معهم، تلك العلاقات التي تتسبب في حدوث الصراعات النفسية. ولا تستطيع مارجريت ميد كذلك العثور على هذه العقدة لدى

الموندوجومار حيث تكره الأمهات أطفالهن ويفزعن من تغذيتهم، ويظهرن عداءهن إلى حد أنهن يحملن أطفالهن دون الاهتمام بسندهم مما يجعل الأطفال يتعلقون برقاب أمهاتهم ويتدلون من فوق ظهورهن. هذا الموقف الأمومي يتناقض جذريا مع مواقف الأمهات المُحبات المنتميات إلى جماعة الأرابش أو نساء البيلا جا بالأرجنتين اللاتي يجعلن أطفالهن ينامون على الثدي أو الأمهات المنتميات لجماعة بيجنترا بأواسط استراليا اللاتي يروي روهايم (الأنثروبولوجي الأمريكي ١٨٩١-١٩٥٣) أنهن يغفين فوق أطفالهن كأنهن دجاج تحضن بيضها. وقد جرت مجادلة بين جونز -وهو فرويدي أرثوذكسي- ومالينو فسكي حول نفس الموضوع وبشأن سكان جزر تروبياند. وأبرز مالينو فسكي أن عقدة أوديب لا تظهر في تروبياند وفقا للتصور التقليدي. ففي هذه الجزر لا يعتقد الزوج بأنه مسئول عن مولد الطفل، فضلا عن أنه يقوم بدور منزو داخل الأسرة حيث يتولى الخال السلطة ولا تعتبر طاعة الأسلاف بأنها واجبة، وحيث تظهر المداعبات الجنسية العلنية لدى الفتيات منذ سن الرابعة، ولدى الأولاد منذ سن السادسة، وأخيرا حيث لايجد الطفل في أبيه منافسا خطيرا في مواجهة الأم. وقد أكد جونز أن العُقدة في جزر تروبياند -معاداة الخال وحب الأخت- كانت تسترا على العقدة الحقيقية التي أمكن للتحليل النفسي للأهالي أن يكشف عنها. وقد رد مالينو فسكي بحق بأن عدم ظهور دلائل تبرهن على وجود كبت أكثر عمقا قد وضع التحليل النفسي بعيدا عما يمكن ملاحظته وإقامة الدليل عليه، أي بعيدا عن العلم. ويقول لاجاش (طبيب ومحلل نفسي فرنسي ١٩٠٣-١٩٧٥) أن التحليل النفسي اليوم "أصبح أكثر إدراكا لتعقد التفاعل بين النضوج والوسط المحيط"، وأنه يعتبر الأطوار "ليست سوى حوادث عارضة ثقافية المنشأ". ومع أن لاكان (محلل نفسي فرنسي ١٩٠١-١٩٨١) يؤكد بأن المجتمعات الخالية من عقدة

أوديب تتضاءل إلا أنه يعترف في الوقت ذاته بأنـه لا جدال بـأن هـذه العقدة غير عامة عالميا.

ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن فترة الكمون (قبيل البلـوغ) التـي بدءا من سن ست سنين حتـى الحاديـة عشـر أو الثانيـة عشـر ترافـق الطفل من حل مشكلة عقـدة أوديـب إلـى "أزمـة البلـوغ". ولا تعـرف جزر تروبرياند فترة الكمون وهي فترة تظهر بوضوح أكثر فـي العـالم الغربـي بخاصـة فـي الأوسـاط البورجوازيـة أكـثر ممـا فـي أوسـاط البروليتاريا. وتبدو أزمة "البلوغ" ذاتها معدومة في حياة سـكان هـذه الجزر، مثلما في حياة جماعات الساموانز والتنالا في جزيرة مدغشقر حيث يصبح الطفل مالكا منذ بلوغه الخامسة مـن عمره ويصـل إلـى منزلة الراشد عبر تدَرّج غير محسوس. ويعود الضيق والكـرب لـدى الفرد أثناء فترة المراهقة إلى أن مكانه وأدواره غير محـددة، ولكونـه يعاني من صعوبة العيش وفقا لمقتضيات متناقضـة. فضـلا عـن أنـه يمكن للفرد أن يستقبل فترة البلـوغ بطـرق متباينـة للغايـة وذلـك وفقـا لتفسـير الوسـط المحيط لـه. وقـد قـال مـيرلو- بونتـي Merleau-Ponty (فيلسوف فرنسي ١٩٠٨-١٩٦١) تعليقا على هيلين دويتـش Helen Deutch بأنه يمكن تصور البلوغ في علم النفس كـالثورة السياسـية فـي التـاريخ. إن ظروفـا ماديـة واتجاهـات روحيـة متشابكـة تمنـح هـذه الظاهرة معناها. لا تكفي التربيـة الجنسية وحدهـا للقضـاء علـى هـذه المأساة، فضلا عن أنه: قد حاولنا عبثا معرفة هذا الحدث، ومـع ذلـك فهو لا يزال قائمـا. علـى أي حـال يمكـن للبيئـة أن تجعـل هـذا البلـوغ مرعبا أو رائعا. وتتسـب هـذه الفـترة مـن الحيـاة فـي حـدوث ضـيق وكرب لدى العديـد مـن الشعـوب لأنـهم يجعلونـها رمـزا ويربطونـها بطقـوس تدريبيـة. إذ يقـوم الـهنود فـي أواسـط أمريكـا الشماليـة بحـث الصبي اليافع على قطـع شرائـح مـن اللحـم مـن سـاقيه ومـن ذراعيـه وعلـى قطـع أصابعـه أو علـى حمـل أثقـال معلقـة بخطـاطيف فـوق صدره. وتقوم جماعات الناندي فـي إفريقيـا بدفـع الصبـي إلـى تحَمُّل

عملية الختان دون أن يصرخ أو يتحرك من مكانه. وفي كولومبيا البريطانية (مقاطعة كندية) نجد الفتاة البالغة لدى الهنود الكاريارز موضع نفور واشمئزاز ويبعدونها عن القبيلة وتظل محبوسة مدة ثلاث أو أربع سنوات. ويمكننا إن نتصور بلا مشقة بأن العكس يحدث لدى الأباش (هنود في جنوب غربي الولايات المتحدة) إذ أنهم يعايشون هذا الحدث في هدوء وطمأنينة، ويعتبرون قطرات الدم الأولى بشائر طيبة بمحصول وفير وبالخصوبة، وحيث يجيء الكهنة راكعين أمام الصبيات الصغيرات متضرعين اليهن. وقبل أن يقوم الإنسان بالطواف في جميع أنحاء الأرض حاملاً معه حبه للاستطلاع العلمي، كان من المجازفة طرح تصور للثوابت الإنسانية. ولا يعتبر اليوم أنه من الغرور القيام بطرح مثل هذا التصور. لقد رأينا من قبل أنه لا توجد "طبيعة" إنسانية بذات المعنى الذي نقصده حين نقول بوجود "طبائع" كيميائية تشتمل على خواص محددة ونهائية. لكن يظل أن الإنسان الذي يعيش في مجتمع يقوم بتحقيق إمكانيات واقعية تميزه بلا منازع عن الحيوان الراقي. ويمكننا افتراضا اعتبار هذه الإمكانيات "متعددة الأماكن" و"متعددة الأزمان" بأنها تعود إلى وراثة النوع. يبلغ عدد هذه الامكانيات ثلاث في مجال الذكاء وذلك وفقا لكيهلر K hler عالم نفس ألماني ١٨٨٧-١٩٦٧)، وثلاث أخرى في مجال الوجدان إذا ما اقتنعنا بما يقوله ليفي ستراوس Lévi-Strauss (عالم سلالات بشرية فرنسي ١٩٠٨.

أولا إننا حين نقارن ذكاء الإنسان بذكاء الشمبانزي نجده يتصف بسمات الحرية في الزمان والمكان، وتصور الشيء المجرد، والقدرة التوليفية. يتمتع الإنسان بالحرية في المكان -لأن القرد الذي يتفادى إحدى العقبات بسهولة لكي يصل إلى الفريسة، يجد صعوبة إذا ما كان محبوسا في استخدام وسيلة لدفع هذه الفريسة ذاتها أولا بقصد إحضارها لتصبح بعد ذلك في متناوله. ذلك لأن الهدف في هذه الحالة

الثانيـة لـم يعـد يمكـن إدراكـه باعتبـاره دعـوة موجهــه إلــى البــاعث المحرِّك، لكن يجب تصوره باعتباره جسماً يستطيع عبور مسار غير مباشر، وبالتالي قابل لإدراكه باعتباره حقيقة تقوم مقام جسم تتنــاظر معه هندسيا تماما. وحيثما يستطيع الطفل التغلب على إحدى العقبـات بسهولة، ينجح الحيوان الأكثر موهبـة فـي القيام بحركـات متنـافرة. ونقول حرية الإنسان في الزمان، لأن القـرد الشبيـه بالإنسـان لا يقـوم بتجاربه التي تتطلب القوة إلا وهو محبوسا في حاضره، بمعنى حيـن يكـون مفتونـا بمـا هـو فـي المجـال البصـري. وحيـن يقـوم الحيــوان بالتصرف والعمل، وبخاصة باستخدام العصا، فإنه يبدو خاضعا لما يسميه ميرلو- بونتي "ضرورة الاتصال البصري"، ويظـل اسـتخدام الأدوات النافعـة وفقـا لمـا يقولـه فـالون "مصادفــة، وجـزءا مــن مجموعـة مؤقتـة يجـب وجودهـا فـي المجـال الإدراكــي". ويضيـف فالون: "إن التفرد الشديد والتميز القوي عـن الآخريـن ليـس مـن بيـن وسـائل الشمبـانزي". وتسـتخدم الحيوانـات العليـا وسـائط كـامتدادات فورية لأعضاء جسمها، ولكن موقع أطرافها الأولى من الهدف يعتـبر أمرا هاما. وحين يتم تكسير فروع الشجر لإستخدامها كعَصي، فذلـك لأن الطُعْم ليس بعيدا. ولا يتوقف القرد أثناء اهتياجه عـن النظـر إلـي الفريسة، يذهب ويجيء مترددا، ويتوقف عدة مرات مما يضفي علـى هذه العملية مظهرا متقلبا. ولا تمثل الوسيلة التي يستخدمها الحيـوان "أداة" حقيقية، أي رأسمال تقني، ولم نر على الإطـلاق قـردا يرحـل حاملا عصـا علـى كتفـه بحثـا عـن فريسـة مـن أي نـوع كـانت. أمـا الإنسان فإنه على العكس يتخلص مـن سـجن "اللحظـة الحاليـة" ممـا ينطوي على الوعي بالممكن والاستقرار في المحتمل، وبسبب انفتــاح الإنسـان علـى فكـرة الزمـن غيـر المحـدود أمكنـه معرفـة مفـهوم الله، وصنـع أدوات تسـتخدم فـي صنـع غيرهـا، وامتـلاك اللغــة. وليسـت مصادفة ولا نتيجة للعجز عن الكلام أن القرد - حتى ذلك الـذي تربـى لدى أسرة كيلوج أو أسرة هــايز- لـم يتمكـن مـن بلـوغ مرونـة الطفـل

الأصم-الأبكم في تبادل الرسائل أو قوة تعبير الطفل صاحب موهبة الرسم. ويدعونا كيهلر إيضا عبر تجاربه إلى التنبه بأنه يمكن للإنسان تصور الشيء المجرد، في حين أن الحيوان يرى الواقع المشحون بالحس. إن الشمبانزي يجد صعوبة في إدراك صندوق- مقعد يجلس عليه حيوان آخر مثيل له باعتباره صندوقا يحتمل استخدامه كسُلّم يمكن أن يصعد عليه للوصول إلى هدفه. ويجب أن نسلّم بأن العالم يظهر للحيوان باعتباره مجموعة من النوعيات المحددة. في حين تبدو الأشياء للإنسان بملامحها الطبيعية المميزة، وبذلك يمكنه أن يسند إليها عددا من الوظائف كيفما يشاء. وبالنسبة للحيوان تظهر الأشياء بلا التباس وبلا احتمالات متعددة، ويبدو العالم له دائما كبيئة وليس باعتباره "كونا" على الإطلاق. وأخيرا يتمتع الإنسان بقدرة توليفية في حين يعجز الحيوان عن توليف القوى وذلك وفقا للدرس الأخير الذي يلقيه كيهلر علينا. وهذا هو السبب في أن القرد لا يبني تلقائيا جسورا باستخدام الصناديق ولوح من الخشب. إن تخيل الجسر هو تخيل أن الرأسي في ذات أهمية الأفقي، والقرد الشبيه بالإنسان لا يفك الحبال الملفوفة حول عارضة خشبية، ولا يسحب حلقة معلّقة في مسمار. إن النجاح هنا يفترض أيضا الوعي بوجود ارتباط بين حركات متعاقبة ومتعارضة، بمعنى إدراك العلاقة الداخلية بين حركات ذات اتجاهات متباينة أي أنها منطقيا متلاقية لكنها عمليا متباعدة. وإذا كان من الصحيح أنه يجب فهم الذكاء باعتباره خاصية حل المشاكل التي لم تتكهن بها معطيات النوع المسبقة ولا جنوح العادات، فإنه من المؤكد أنه لا يمكننا "الحديث عن الذكاء لدى الحيوان بنفس المعنى الذي نقصده لدى الإنسان"، وفقا لما يؤكده ميرلو- بونتي بحزم.

وحتى إذا ما قبلنا بأنه لدى القرود الراقية إمكانية "أن تتعلم كيف تتعلم" كما يقولون، وبأن القردة فيكي - التي تربت لدى أسرة هايز- قد نجحت في أن ترتقي خلال ست سنوات لكي تصل إلى امتلاك لغة

زائفة مشتملة على ثلاث كلمات مثل لغة المعتوه شديد العتاهة، إلا أن حدود الحيوانات معينة بوضوح شديد، كما أن ما نلاحظه بشأن القدرات "الثقافية" يمكننا التمسك به أيضا فيما له علاقة بالاتجاهات "الوجدانية". هذه الاتجاهات هي التي يقول ليفي ستراوس عنها بأنها موجودة لدى الإنسان وبأنها تميِّزه عن الحيوان وهي: الحاجة إلى قانون، والرغبة في التبادلية، والميل إلى خدمة الآخرين. وينادي الإنسان أولا "بالقانون لكي يتخلص من المعاناة غير المحتملة للتعسف". إنه يحافظ على القانون ويحترمه بذاته. ولا تجعلنا المجتمعات البدائية نقترب من الفوضى لكنها بالأحرى تبعدنا عنها عن طريق الاهتمام بالعادات والتقاليد والحرص على الطقوس. وثانيا يتمنى الإنسان إقامة اتصالات يسودها التكافؤ على الأقل في العوائد إن لم يكن في الحصص لأننا كما تقول سوزان إيزاك - نقلا عن ليفي ستراوس - حين نعرف أن الهيمنة مستحيلة فإننا نرغب على الأقل في المساواة باعتبارها "أصغر مضاعف مشترك لجميع الرغبات والتناقضات". وثالثا وأخيرا يمارس الإنسان العطاء الذي عن طريقه يتحول الغير إلى شريك وتصبح المادة أكثر قيمة. إن العطاء هو تعبير عن الشعور بالقوة وبالهشاشة معا : القوة المنتصرة على الأنانية المرتجفة، بل والضعف أيضا الذي يعتزم تقييد الغير عن طريق تقديم هدية إليه. وفي النهاية قد لا يكون هناك سوى الحاجة الشديدة إلى السلام. ويقوم الإنسان بإشباع هذه الحاجة بابتكار قوانين ليست بقوانين الغابة، ويسعى إلى إقامة نظام آخر بعيدا عن التقاتل. وبالرغم من تطور تاريخي يتسم بمظهر الأدغال، إلا أنه لا جدال بأن علم السلالات البشرية يهتدي إلى المجهود الذي يواصل الإنسان بذله في اتجاه واحد بالرغم من الفوضى الظاهرية، وفي ظل تناقضات درامية، ودون أن يفهم ذاته بوضوح.

هكذا يحصل الطفل في البداية كميراث للنوع الميل نحو أن يكون ذكيا وكذلك النزعة إلى "التعرف" على نظيره. ويظل أن القدرة

الإنسانية السداسية التي يمكننا استخلاصها من قراءة كيهلر وليفي ستراوس - ومن قراءة علماء النفس والاجتماع في عصرنا بصفة عامة- تقتصر على وصف الإنسان في المجتمع. إن هذه النزعة نحو التفكير في الأنا الآخر وقبوله تستلزم في الواقع البيئة الثقافية. وهي لا ترتسم لدى الطفل - كما سنرى فيما بعد- في ظروف بيئة محيطة أخرى. ونعود الآن إلى افتراضاتنا الأوليّة: يوجد ثابت إنساني اجتماعي، ولا توجد طبيعة إنسانية سابقة للإجتماعي كما هو الشأن بالنسبة للطبائع الحيوانية. إن الحيوانات تحافظ على غرائز محددة بوضوح شديد حتى لو تم عزلها منذ مولدها، ومهما كانت الأضرار الخطيرة التي تلحق بها في هذه الحالة. فضلا عن أن غرائز أخرى تستيقظ لدى الحيوان، إذا ما حدث أن أعادته الظروف إلى المعيشة المتوحشة بعدما تم استئناسه. ويقول ليفي ستراوس "أن شيئا من هذا لا يمكن أن يحدث للإنسان لأنه لا يوجد في حالته سلوك طبيعي للنوع." إن الإنسان بدون مجتمع البشر لا يمكن أن يكون إلا مِسخا شاذ الخلقة، لأنه لا توجد لديه حالة "سابقة- للثقافة" يمكن عودتها للظهور بسبب نكوصه. إن الأطفال "المتوحشين" أي أولئك الذين حرموا منذ وقت مبكر بالصدفة أو عن عمد من المحيط التربوي الإنساني، وأولئك الذين تم هجرهم لكنهم قاوموا وصمدوا في عزلتهم باستخدام وسائلهم الخاصة هم في الواقع مجرد حوادث تشويه ومسخ. ويقول ليفي ستراوس أيضا أننا سنخدع أنفسنا لو نظرنا إلى هؤلاء باعتبارهم "شواهد طبق الأصل على حالة سابقة"، بمعنى أن نرى فيهم حالة الطبيعة قبل حصولهم على أية ثقافة. إن الأطفال "المتوحشين"، أولئك الذين يسميهم روييه Ruyer مازحا "الأطفال- الطرزان"- يقدمون لنا البرهان الجوهري على أن تعبير "الطبيعة الإنسانية" خال تماما من أي معنى، كما على عدم وجود أي تشابه نفسي بينهم وبين البطل الأسطوري المعروف "طرزان".

لا ريب - وسوف نفحص هذا النقد- أنه كان لابد من الإعراب عن الشكوك بالنسبة إلى صدق الأوصاف وصحة الأمثلة. وإننا نبتغي أولا طرح سؤال يتعلق بالجوهر وهو: في الوقت الذي نجد فيه كل شيء يدعونا إلى إدراك الدور الأساسي الذي تلعبه البيئة الإنسانية- بلا حدود معينة- في تشكيل الإنسان، هل يجب أن نستمر في الدهشة حينما لا نجد أمامنا في حالة فقدان البيئة سوى أشباح؟ منذ أمد طويل ونحن نقرأ " قصصا " عن أطفال "متوحشين". وفي البداية أفزعت هذه القصص أولئك الذين كانوا يعتقدون بوجود "طبيعة" في الإنسان. إنهم أطفال لا يستطيعون الوقوف على قدميهم في خيلاء، ولا يستطيعون بسهولة تعلُّم الكلام لأن وقت تعلُّمه قد انقضى، ويبدون عندما يتم فحصهم بالبصيرة أنهم شواذ بيولوجيا ، ومصابون بالبلاهة منذ الولادة. ولأن الريبة تتولد عند قراءة التقارير والبراهين فقد كان مثل هذا التخلف يبدو بأنه لا يمكن أن يحدث إلا بسبب الضعف البنيوي. ونحن نتساءل ببساطة: من الذي يتجاسر الآن على الزعم بأن طفلا معزولا قبل الآوان، وظل لفترة طويلة محروما من الاتصال مع الراشدين يمكن أن يستمتع بصحه عقلية تامة، وبهيئه متشامخة، وبقدرات أدبية أو رياضية تتعدى زمانه؟ وإننا نتوسل إلى المعارضين بأن يقولوا لنا على الفور ما الذي لا يصدقونه في صورة الأوصاف النفسية للأطفال "المتوحشين"، وكيف يتمثل نبوغهم الأدبي مسبقا نتائج عزلة تجريبية. لقد قام إيتار (جان ماري إيتار Itard طبيب فرنسي ١٧٧٤-١٨٣٨) منذ مطلع القرن التاسع عشر بطرح هذا السؤال - باعتباره تحديا - ثم أجاب عنه بلا تمهل: "إذا ما طرحنا هذه المعضلة المجردة لإيجاد حل لها: مطلوب تحديد درجة ذكاء وطبيعة أفكار شاب مراهق حُرم منذ طفولته من أي تعليم وعاش منفصلا تماما عن الأفراد المنتمين لجنسه... إن الصورة العقلية لهذا المراهق ستكون هي صورة متوحش "الأ فيرون" (منطقة بجنوب فرنسا)" . إن حالة متوحش الأ فيرون هذا الذي أجرى

عليه إيتار دراسات في غاية الدقة اشتملت على بحثين، ظلت الحالة الأكثر شهرة والأكثر إقناعا من بين جميع الحالات المماثلة. وقال إيتار صاحب البصيرة النافذة محذرا : "ليس لدي شك أنه إذا ما عزلنا طفلين منذ طفولتهما، وفعلنا الشيء ذاته لاثنين من ذوات الأربع، سيبدي الأخيران تفوقا كبيرا على الأولين في وسائل اشباع حاجاتهما وفي حرصهما على البقاء." لقد كان إيتار يتحدث بلغة علم النفس الحديث وذلك منذ قبل أسرة كيلوج Kellog بمائة وثلاثين عاما.

الفصل الثاني

المؤلفات الأسطورية والحكايات التاريخية

١ ـ المؤلفات الخاصة بالانعزال

يدرك القاريء مثلما ندرك بأنه إذا كان قد أمكن إحاطة أعمال هوميرس وسقراط وشكسبير بالشك والريبة، فلا بد وأن تثور أيضا الاعتراضات لمنازعة حقيقة وجود الأطفال المنعزلين. من الصحيح أنه إذا كنا نقرأ قصص سير مثل هؤلاء الأطفال في كتابات هيرودوت أبي التاريخ، إلا أننا نقرأها أيضا في الأساطير القديمة حيث يعيش ثيرو بين الأبقار الصغيرة، ويشرب زيوس الطفل من لبن الماعز المسماة أمالتيا، ويجد ريموس وشقيقه التوأم رومولوس ذئبة كمربية لهما، وحيث تقتضي الحبكة الروائية أيضا أن يتمكن طفل صغير ـ عند سقوط روما في زمن غزو القوط ـ من البقاء على الحياة وسط الأنقاض بفضل تعلقه بضروع حيوان نبيل. ولن نجد أية صعوبة أيضا في العثورفي الأساطير الجرمانية على الكائن الإنساني الذي يعيش متوحشا ووحيدا، لكنه متوحد مع حياة الغابة عصية الاختراق. لاجدال بأن الأساطير الفارسية حول الدببة صاحبة المدارك أو اليابانية حول القرود الحاضنة تعبر عن أوهام خيالية عريقة. ولاجدال أيضا بأن الهولنديين قد حكوا عن مغامرة إحدى الجنيات التي لفظها البحر على شاطيء ميناء إدام في القرن الخامس عشر وأنها قد أحبت غزل الخيوط، إذ أن الهولنديين أنفسهم يحبون أعمال التطريز. وبالرغم من كل شيء يجب تأمل الجزء الصحيح الذي يغلفه الفكر

الأسـطوري علـى منـوال كـل مـن مـاكس مولـلـر Max Müleler (المستشرق الألماني المتخصص في علـم الأسـاطير ١٨٢٣-١٩٠٠) وفريـزر Frazer (سير جورج فريزر عـالم الأسـاطير الأسكتلندي ١٨٥٤-١٩٤١). إذ أن هذا الفكر بدءا من تصوره للطوفـان إلـى حكاياته التي يرويـها عمن يعيشون في عزلـة تامـة لا يعـبر عـن تحولات الطبيعة وحدها، بل وأيضا عن مآسـي الإنسان، كما يقوم بتحويل بعض الأحداث الواقعية إلى مجال الخيال. ويجب بنوع خاص عدم رفض جميع الشهادات بلا تفرقة لأننا اكتشفنا بعض المخـادعين. إن الصحافة تعلن بين وقت وآخر عن اكتشافها لنوجلي Nowgli جديد في حاجة إلى كيبلنج Kipling (روائي وشـاعر إنجليزي ١٨٦٥-١٩٣٦) ليروي قصته. إن الصور المشتبه فيها وفيرة، لكنـها لا تقل في هذا المجـال عن وفرتـها في مجـال الرسم. إن انكارنا - بسبب الأمثلة الخادعة- لصحة جميع الصور التي ذكرت بشأن العزلة الشديدة، تتماثل مع نفينا بأن فيرمير (رسام هولنـدي ١٦٣٢-١٦٧٥) فنان حقيقي بعد اكتشافنا بأن ميرجين رسام مزيف يقوم بتقليد فيرمى.

لنتوقف قليلا عن المجادلة - ونعود إلى فحص الوقـائع - ولنذهب أولا للنظر فيما يكون ملف الموضوع، سواء كـان أسطوريا أو تاريخيا، تخيليا أو جديراً بالثقة. ويمكننا التغاضي عن نصوص العهود القديمة والقرون الوسطي والتمسك بتلك الأكثر قربا منا التي تدون هذه الظاهرات الغير اجتماعية، والتـي اتجهت نحوها بفضول وبحب استطلاع أنظار القرن الثامن عشر بصفة خاصة. فقد استهل كل من برنار كونر Bernard Connor باعتباره مؤرخا ، وبوفن Buffon باعتباره عالم طبيعيات، وكونديالك Condillac كفيلسـوف الحديث عن هؤلاء الأطفال الذيـن حرمـوا بالمصادفـة مـن التربيـة المستمرة والطبيعية. وفي عام ١٧٥٤ دون جان جاك روسو في كتابه "خطاب حول منشأ عدم المساواة" خمس من هذه المغامرات النادرة فقال:

"يبدأ الأطفال بالسير على أربع، وهم يحتاجون إلى أن نكون قدوة لهم وإلى أن نعطيهم دروسا كي يتعلموا الوقوف... قامت الذئاب باطعام طفل هيس (منطقة في ألمانيا)... وتعود على المشي مثل الحيوانات لدرجة أنه كان يلزم ربطه بقطعتي خشب حتى يمكنه الوقوف... متزنا فوق رجليه الاثنتين... وكانت هذه الحالة شبيهة بحالة الطفل الذي عثروا عليه في غابات ليتوانيا يعيش مع الدببة. ويقول كوندياك أن هذا الطفل لم يُظهر أية علامة تدل على العقل. كان يسير على قدميه وعلى يديه وليست له لغة، ويُصدر أصواتا لاتشبه أصوات الإنسان بأي حال. وكان طفل هانوفر المتوحش الذي أحضروه منذ عدة سنوات إلى البلاط الإنجليزي يجد مشقة كبيرة في إخضاع نفسه للسير على قدمين" وقد عثروا... على متوحشين آخرين في جبال البرانس يجريان على أربع". وبعد مضي خمس سنوات يردد لينيه Linné (كارل فون لينيه عالم الطبيعيات السويدي ١٧٠٧-١٧٧٨) بعض الأمثلة التي ذكرها روسو ويضيف إليها أمثلة أخرى. وقام كل من فون شريبر Von Schreber وميكائيل فاجنر Michaël Wagner في الثلث الأخير من القرن برفع عدد حالات الانعزال إلى أربعة عشر حالة شهدتها أوروبا قبل عام ١٨٠٠.

وكان الطفل-الذئب الذي وجد عام ١٣٤٤ في منطقة الهيس بألمانيا يقفز ويركض هو أحد الأولين بلا منازع. ويقولون بأن الذئاب حفرت له حفرة مفروشة بأوراق الشجر لتحيط به ليلا وتحميه من البرد. وبعد مرور خمس سنوات من نومه في الغابات حدثت له صحوة عقلية. وفي عام ١٣٤٤ أيضا عاد الطفل-الذئب الذي وجدوه في غابة هارت بمنطقة اكزيل ببفاريا (ألمانيا) إلى مجتمع البشر ثانية حيث حقق تقدما نفسيا كبيرا. وكان أول طفل- د ب يكتشفه الصيادون في ليتوانيا يدافع عن نفسه بنشب مخالبه وبالعض، وكان مغرما بشدة بالكرنب والعشب واللحم، وقام في عام ١٦٦١ بتمزيق الملابس التي حاولوا إلباسها له يوم أسره. ويذكر المون دى بونار Valmont de

:

Bonnareفي قاموسه عن التاريخ الطبيعي أن هذا الطفل-الد ب لم يبد أي علامات تشير إلى تكيّف حقيقي. وكان العشب والعلف هما الطعام المفضّل لدى الطفل- الخروف الذي لا يشعر ببرد الليل والذي أ سر في ايرلندا عام ١٧٦٢، وقد وصفه نيكولا تول- Nicolas Tulp الذي استعار منه رمبرانت (الرسام الهولندي الشهير) سمات وجه البروفسور في اللوحة المسماة "درس في التشريح"- بعد أن رآه في أمستردام فقال بلغة الأطباء: "كانت جبهته مُفلطحة، ومؤخر رأسه مستطيلا، وحنجرته عريضة، ولسانه غليظا، ومعدته غائرة"، وكان رشيق الحركة، ويقظا. وعند نهاية القرن السابع عشر أمكن أيضا وصف نسخة طبق الأصل من هذه الحالة الأيرلندية وهي الطفل- العجل الذي عثر عليه في بامبرج ببفاريا. كان هذا الطفل يتعارك بالنهش مع أكبر الكلاب وقد قيل عنه أن حالته العقلية ارتقت بوضوح شديد عما كانت عليه عند أسره. وقد تمكن طفل- ذئب آخر عثر عليه في ليتوانيا عام ١٩٦٤ من تحقيق تقدم أكبر إذ تعلم الوقوف بل والكلام أيضا في حين أن طفلا ثالثا كان يشتهي الخبز أكثر من اشتهائه الكلام. وفي أغسطس عام ١٧١٧ تم أسر فتاة في الغابات الواقعة بنواحي مدينة زوول في إقليم أو فريسيل بهولندا وكانت ترتدي مئزرا من القش، شرهة في أكل العشب وورق الشجر، ومع ذلك أظهرت اهتماما بالاتصال بالغير. كانت تفهم الإشارات لكنها لم تستطع الكلام مطلقا ، تعلمت غزل الصوف وظلت تمارس هذا العمل حتى وفاتها. لقد ظل طفلا جبال البرانس اللذان كانا يقفزان مثل الظباء وأصبحا الأحدوثة المحلية خلال عام ١٧١٩مثلين غامضين، لكن تسبب ظهور المتوحش بيتر في هاملن بهانوفر الألمانية عام ١٧٢٤، وفتاة سوجني في منطقة شامبانيا بفرنسا عام ١٧٣١ في ظهور كتابات وفيرة. كان كروجر قد ترك ابنه الطفل بيتر في الغابة، لكن عاد الإبن إلى منزله حيث استقبلته ضربات زوجة الأب بلا رحمة وطردته نهائيا . وقبل أسره بقليل شاهده ربابنة الزوارق

يسير إلى أعالي النهر حاملا فوق جسده بقايا قميص ممـزق ويتغذى بالعشب والقشر. وحين أمكن إمساكه حاولوا إطعامه بالخبز: كان يرفضه ويفضل عليه عيدان الشجر الخضراء التي يقشرها ثم يتلذذ بطعم قشرها. كان هذا المتشرد العجيب كارها للحجز يشرد بسهولة وقد ونجح في الهروب عدة مرات، وتم إحضاره إلى البلاط الإنجليزي لدى الملك جورج الأول. وعاش بيتر ٦٨ عاما في مجتمع البشر وكان يبدي حساسية خاصة للنغم الموسيقي، وتحمل شيئا فشيئا ارتداء الملابس، واستطاع التقليد بعض الشيء لكنه لم يتعلم الكلام قط. ويبدو أن ارتقاء بييتر يعتبر لا شيء بالمقارنة بارتقاء طفلة سوجني. ففي إحدى ليالي شهر سبتمبر شاهد خدم قصر سوجني هذه الطفلة تقيم في أعالي شجرة تفاح. وتمكنت بقفزة واحدة من الهروب، ثم أمكن إعداد كبسة وتطويقها داخل غابة مجاورة إلى أن نزلت من شجرتها لكي تشرب من جردل كما يشرب الحصان. كانت تمسكه راوة، وترتدي خرقا من جلد الحيوانات، ويمتلىء جسدها بالخدوش والخرمشة، سوداء اللون من شدة القذارة. وفيما بعد أصبح اسمها مدموازيل لوبلان Leblanc ، وعاشت مع رفيقة لكنها قتلتها عن طريق الخطأ. كانت ماهرة في السباحة وفي الجري وتأكل الفراخ والضفادع والسمك وتتلذذ بشرب دم الأرانب إن وجد. هذه الفتاة التي كانت في البداية لا تستطيع حفر الأرض إلا بأظافرها فقط، تعلمت كيف تتكلم لدى راهبات "شالون دي مارن" حيث أودعها المطران وحيث زارتها ملكة بولندا. وأخذت مدموازيل لوبلان بعدها إلى منزل الكاثوليك الجدد في باريس حيث تلقت زيارة شخصية هامة هي دوق دورليانز. وأخيرا خطرت لها فكرة أن تصبح راهبة في أحد الأديرة بشايو. ولم يمنعها من تحقيق رغبتها سوى سوء صحتها. أما ان الذي عثر عليه في لييج (بهولندا)، فمن المفترض أنه قد حرم من أية مخالطة مع البشر خلال ستة عشر عاما وكانت ميوله الغذائية تتجه نحو العشب الأخضر والسلاطات، وقد شهد -

مثل بيتر- تطورا أكثر تواضعا . لا جدال بأن الزمن المنقضي وسوابق العزلة ودرجة حدتها تلعب دورا هاما في هذا المجال، إذ إنه بالرغم من أن تومكو نصف المتوحش الذي تم اكتشافه على حدود منطقة جالاسي بمقاطعة زييس بالمجر كان متميزا بالتوحش للغاية في البدء، إذ كان يتعذر كبح جماحه عن أكل جذور النباتات واللحم النيء وأسلاب الحيوانات، إلا أنه تعلم كيف يعبر عن نفسه باللغة السلوفاكية فضلا عن فهمه للألمانية. إن هذا الإنسان الذي وصفته تقارير أحد كتبة ذلك العهد بأنه غير مكترث بالجنس وبأن انفعالاته صاخبة وحركاته متشنجة، قد نما عقلانيا بالرغم من صحته الضعيفة التي كانت تنبيء بوفاته قبل الأوان. وكانت له منافسة في مجال ما كتب عن حالات الانعزال هي فتاة- د بة، أخرجت من مخبأها في عام ١٧٦٧ ذاته بفراوماوك بمقاطعة دي هونت المجرية، ثم أخذت إلى مستشفى كار فن.

وعند غروب القرن في عام ١٧٩٩ دخل طفل آخر التاريخ وكان دخوله في البداية في حياء وخجل. وقد كتب الدكتور جان إيتار بحثا عنه في عام ١٨٠١ أثار جدلا استمر طوال القرن التاسع عشر. كان طفلا من الغابات عرف باسم "متوحش الأ فيرون". وقد سبق القول كيف اعتبر الدكتور إيتار حالة هذا المتوحش بأنها تعلمنا الكثير. وسنرى أيضا كيف أن هذا الطبيب الشهير قد وصف متوحش الأفيرون بدقة شديدة وبصبر كبير. وبعد مضي بعض الوقت تم سرد قصة مثالين آخرين لكنه - والحق يقال- لم يكن سردا جيدا . وحدث فجأة في عام ١٨٨٢ أن أصبح جاسبار هاوزر من نورمبرج بألمانيا إحدى الشخصيات الرئيسية التي تذكرها أخبار العصر صغيرة كانت أم كبيرة. وسوف نفرد له أيضا مكانا خاصا بعد قليل. وتنتهي "الفترة الأوروبية" بشأن حالات الانعزال بالفتاة-الخنزيرة التي تربت في زريبة خنازير، ووجدت بمدينة سالزبورج (بالنمسا)، وكانت تحتفظ بساقيها منحنيتين نتيجة لبقائها في وضع الجلوس لآماد

طويلة. وبعدها تنتقل الأنظار إلى جنوب آسيا حيث ينبهر الغزاة الإنجليز بعالم مثير للإعجاب. من المؤكد أن ظروف الحياة البائسة في الهند والعلاقات الوثيقة بين عالم البشر وعالم الحيوان قد حكمت على الأطفال بالتعرض بسهولة أكبر لحالات التوحش.

وبمصاحبتنا لتقرير سليمان Sleeman (جنرال بريطاني عمل في الهند في منتصف القرن ١٩) الذي تناول العديد من الأطفال الهنود سيصبح الانعزال - من الآن فصاعدا وفي غالبية الوقت- واقعا تحت تأثير الذئبة القديمة. فقد تناول هذا التقرير طفل هوسان بور الذي وقع بين يدي راجا هندي (أمير هندي) عام ١٨٤٣. كما شمل طفلي سلطامبور اللذين استقبلهما الكابتن نيكولاتس (١٨٩٣)، والكولونيل جراي (١٨٤٨) - وقد مات "المتوحش" الأول عام ١٨٥٦، وهرب الثاني واختفى في الأدغال. أما طفل شبرا الذي اختطفته إحدى الذئبات عام ١٨٤٣ وتم التعرف عليه بسبب وجود أثر جرح قديم في ركبته، وقد هرب من الكابتن نيكولاتس بعد مضي ست سنوات (١٨٥٠). وشمل أيضا طفل باكينيور الذي اكتشفه شخص يدعى ذو الفقار خان واستطاع أن يعرب عن رغباته بالإشارات. والحالة الأخيرة التي رواها الكابتن اجرتون تظل هي الأكثر تشوشا من بين جميع هذه الحالات. إن غالبية هذه الحالات التي تسير جميعها على أربع، رفضت محاولات إلباسها الملابس كما أظهرت اهتمامها بأكل اللحوم النيئة وحدها. كان بعضهم يلعقون السوائل وآخرون يشاطرون الكلاب في أكل أجياف الحيوانات. وقد قبل أحدهم أكل الخبز وتعلم حراسة الماشية، وتعلم آخر كيف يشعل الغليون إذ كان يعشق التدخين. وقد أبرزوا في أوروبا أيضا حالة طفلي أو فردايك، وكان الأول طفلا - خنزيرا سمي كليمنز وأظهر ميلا خاصا للخضروات وكان يلزم إبعاده عن أطباق السلطات المثيرة له. وكان الطفل الثاني طفلا - ذئبا شديد المهارة في تسلق الأشجار وفي تقليد أصوات الطيور وفي اغتنام البيض وصغار الحيوانات في أوكارها -

ومع ذلك فهي عادات لم يستطع أحد أن يجعله يكف عنها. ويعيدنا الطفل-الذئب دينا سانيشار إلى الهند مرة أخرى حيث وضع في ملجأ سكندرا . ففي عام ١٨٧٢ كشف هذا الطفل عند القبض عليه بالقرب من مينبوري عن مهارته الواضحة في شحذ أسنانه باستخدام العظام ورفض أن يلامس جسده أي شيء لإخفاء عورته. ولم يتعلم خلال ثمانية وعشرين عاما سوى الوقوف منتصبا على رجليه وارتداء القليل من الملابس والمحافظة على نظافة طبق طعامه وإناء شربه، وأن يقوم بالتدخين بلاتوقف كزميله الذي تحدثنا عنه من قبل. وفي عام ١٩٨٤ كان يوجد طفل آخر في ملجأ سكندرا للأيتام، وهو محب أيضا لأكل اللحوم النيئة ولم يحقق تقدما أكثر من زميله. وقد كشف الأب إيرهارد عن وجود هذين الطفلين في فالانتين بول مثلما كشف عن وجود طفل جديد في لوكنو (بالهند) وكان الطفل السابق له قد ورد ذكره في القائمة التي وضعها سليمان. وكان طفل- ذئب كرونشتاد (جزيرة بالقرب من مدينة لينينجراد) شبه المحب - للحوم النيئة وشبه المحب - للأعشاب يشارك أولئك الأطفال "المتوحشين" الذين تعاني أجسادهم من مشقة كبيرة حين تتم تغطيتها، وكان هذا الطفل من ناحيته ينتشي عندما يسمع أصوات البيانو ولم يتعلم كيف يملأ إبريق ماء إلا قليلا وخلال نفس الفترة تم في الهند وصف أربعة أشخاص آخرين من أشباه الذئاب: الشخص الأول فتاة جالبايجوري التي اكتشفها أحد المبشرين عام ١٨٩٢، والثاني طفل باتزينيور- بالقرب من مدينة دالسينجاراي- وقد عثر عليه عام ١٨٩٣، وكان يلتهم الضفادع بشراهة وقد قابله السمندارشنج، والثالث طفل آخر من سلطانبور اكتشف عام ١٨٩٥، ويقال بأنه أصبح رجل شرطة، أما الطفل الرابع والأخير فهو طفل ولاية شاجاهمبور الذي ظل في جهالته بالرغم من اختلاطه بالبشر طوال أربعة عشر عاما . وقد تم الإعلان عن هذا الطفل الأخير على إثر الإعلان عن فتاة مدينة جوست دال وقبل الإعلان عن الطفل-الرباح

(حيوان من فصيلة الكلبيات وهو ضخم، قصير الذيل، وقبيح الشكل) في جنوب إفريقيا، وقيل أن الشرطة الخيالة قد أخرجته من مكمنه. وفي عام ١٩٢٠ أعلن عن أسر الفتاتين-الذئبتين آمالا وكمالا بمدينة ميدنا بور الهندية وقد تبناهما القس شنج الذي دون عنهما مذكرات يومية في ١٥٠ صفحة مما أكسبهما شهرة واسعة. وسوف نتحدث تفصيليا فيما بعد عن هاتين الفتاتين - وبخاصة كمالا- كما سنتحدث أيضا عن جاسبور هاوزر طفل نورمبرج وعن فيكتور طفل الأ فيرون.

وفي الهند تم اكتشاف خلال نفس العام (١٩٢٠) أول طفل- فهد، وفي عام ١٩٢٧ تم اكتشاف طفل- ذئب في منطقة مايوانا ثم طفل- ذئب آخر بمدينة جانسي، وأخيرا طفل- فهد بمنطقة كاشار. وقام ضابط بريطاني بقلعة جواليور بانقاذ طفل جانسي، وتولى الدكتور أنيتا كبير الأطباء العسكريين مهمة تعليمه إذ تمكن على الأقل من أن يجعله يقبل الوقوف على قدميه. ويروي زنج - نقلا عن سكان مدينة كاشاري- أن طفل كاشار قد اختطفته فهدة من الحقل على مرأى من أمه أثناء حصدها للأرز، وكان بعض سكان المنطقة قد قتلوا أطفال هذه الفهدة قبلها ببضعة أيام، ولم تتوقف بعدها عن الطواف حول قرية ديهونجي. وبعد مضي ثلاث سنوات وجد الطفل شبه فاقد لبصره، وقد تيبس جلده حول الركبتين واليدين، وأصبح شرها لأكل اللحوم النيئة، يطارد الدواجن، يعض ويتعارك بمجرد الاقتراب منه أو لمسه. وقد تعرفت عليه أسرته واستعادته، وأمكنه فيما بعد الوقوف على قدميه. ويقول ديميزون André Demaison أن طفلا متوحشا عاش بين داكار وغينيا قبل الحرب العالمية الأولى وأن فتاة "قادمة من الغابة" ظهرت في ليبريا خلال الثلاثينيات. وفي عام ١٩٣٩عثر (في أمريكا)على طفل-ذئب أطلق عليه طفل هاتون، وذلك قبل عام من انكباب ديفيز على مشكلة أنا في بنسلفانيا، واعتكاف ماكسفيلد على فتاة أخرى من أوهايو تعرضت للحبس لأمد طويل. وفي عام ١٩٤٦

ظهر طفل- غزال في الصحراء السورية . وفي أعوام ١٩٥٤و ١٩٦١و١٩٦٣ كانت أخبار الأطفال الوحوش أخبارا هندية بالعثور على رامو التي أثارت مغامرته المجادلات، وإيرانية بظهور طفل طهران، وصحراوية باكتشاف طفل موريتانيا.

هذا هو مجموع الحالات التي يمكن للكتابات المتخصصة أن تقدمها للقاريء في الوقت الراهن. ويبدو لنا الآن أنه فيما وراء تنوع الأحداث المروية، لا بد من التقصي عن الثوابت أو في القليل عن الإحصائيات الغالبة. ما هي صورة "الإنسان الوحشي" أو الإنسان المتوحش" الواردة في الأسطورة أو في التاريخ؟ توجد في باديء الأمر سمتان تفرضان أنفسهما وقد أبرزهما الطبيب السويدي لينيه. فالإنسان المتوحش هو بصفة عامة من ذوات الأربع وأبكم. وقال لينيه Linné أيضا أن الروايات قد بالغت في تصوير غزارة شعر الإنسان المتوحش، إذ أن أربع حالات فقط من الحالات التي وصفها كانت تتصف بالشعر الغزير لدرجة مفرطة. وقد تكون هذه المبالغة من مخلفات الكتابات السابقة. فقد شهد جان جاك روسو مذكرة لأرسطو تضمنت وصفا للإنسان في بدايته الذي قد لايكون سوى أكذوبة اختلقتها المسارح الشعبية المتجولة. فقد كان المشعوذون والبهلوانات يقدمون الإنسان مكتث الشعر باعتباره إنسانا انقلب إلى حيوان. ومن المفيد في هذا الشأن قراءة كتاب "المشعرين" الذي وضعه لو دوبل وهوساي .Le Double et Houssay وفي المقابل يجب اعتبار انتقال الإنسان المتوحش على أربع وعدم معرفته للكلام بأنهما سمتان نموذجيتان. ولو أنه من الصحيح أنه توجد استثناءات: مثل فتاة سوجني (بمقاطعة شامباني فرنسا)، وجاسبار طفل مدينة نورمبرج (ألمانيا)، وطفل ليتوانيا الثاني والمتوحشين اللذين عثر عليهما في المجر، وكذلك فيكتور الأ فيروني وكمالا فتاة مدينة ميدان بور (الهندية)، فقد تمكنوا جميعا من التعبير عن أنفسهم بطريقة مرضية إلا أنه يظل بأن جميع الأطفال لم يستطيعوا الكلام حقيقة

بالرغم من المجهودات التعليمية الكبيرة التي بذلت من أجلهم. وفي المقابل تمكن العديد منهم من السير على قدمين تدريجيا.

ويوجد مشترك عام في أصل الوجود البيولوجي لجميع الأنواع هو "الحاجة"- تلك الحاجة التي يضعها جان بول سارتر في بداية التجربة الإنسانية والتي بدونها - وفقا لما يقوله في كتابه "نقد الباعث الجدلي"- لا يوجد أي محرك تاريخي. وفي حالة الوفرة تبقى هذه الحاجة مقنعة، ثم تظهر بعنف وقت الندرة الشديدة إذ يصبح الإنسان حينذاك مجرد فم وجوف. ولا نندهش حين نرى أن حالة "الإنسان المتوحش" قد اقتصرت على التطابق مع جسده، وأنه يظهر - بعد انتهاء فترة العداء المتسم بالريبة- اهتماما شديدا بالأشخاص الذين يحرصون على إعاشته. ولا تبدو الشهوة الجنسية أيضا بأنها لصيقة الارتباط بالبيولوجي لدى الإنسان. فضلا عن أن جميع المؤلفين يلاحظون ببعض الدهشة عدم اكتراث "الإنسان المتوحش" بالجنس. فقد أظهر تومكو نفوره تجاه الإغراءات الجنسية، أما جاسبار المسكين فقد كان شديد البرود، وعاش بيتر حتى شيخوخته دون إظهار أية رغبة جنسية. وأظهر كل من فيكتور، وكمالا المراهقة بعض النبضات الغامضة، وكذلك طفل كرونشتاد بعد اندماجه في الحياة الاجتماعية لمدة ثلاث سنوات. وغني عن البيان القول بأن الشعور بالحياء كان ينشط لدى بعضهم كلما توطدت إعادة تكيفهم. كان هذا هو شأن جاسبار هاوزر الذي في البداية كان بلا حرج يتركهم يخلعون ملابسه لكي يغتسل، لكنه أصبح خجولا للغاية فيما بعد، وكذلك شأن إيزابيلا البرازيلية التي عاشت عارية لسنوات طويلة، ثم كان من الصعب للغاية فيما بعد إقناعها بخلع ملابسها لكي يقوم رسام بمدينة ميونيخ برسمها عارية.

وكانت حسية وإحساسية "الإنسان المتوحش" موضع ملاحظات عديدة أيضا . فقد ذكروا في أحيان كثيرة أن أولئك الذين تعودوا على الظلام كانوا يجدون صعوبة بالغة في الرؤية أثناء الضوء الباهر،

مثل جاسبار الذي يقول فيورباخ Feurbach عنه بأنه حينما كان يرى منظرا "أثناء بهاء موسم الصيف وتألقه" كان يجده " فظيعا " ويشيح ببصره بعيدا عنه: واعترف جاسبار فيما بعد بأنه كان يصاب بالرعب عند ظهور الأشياء الساطعة أو الملونة. والعكس صحيح إذ كان يسير في هدوء واطمئنان أثناء الليالي الحالكة، كما كان يسخر من عسعسة مرافقيه. وفي المقابل كان جاسبار مثل فيكتور لا يستطيع تمييز البروزات من السطوح المستوية، ولاالرسم على الورق من الحفر على الخشب، وباختصار لا يمكنه التفريق بين صور ورسومات الأجسام من الأجسام ذاتها. ومن بين الأطفال المتوحشين الذين كانوا يجدون أيضا سهولة أكثر في الرؤية أثناء الليل، بعض أطفال سليمان، وطفل سكندرا الثاني، وآمالا وكمالا. ويجب أن نضيف إلى حدة الإبصار هذه شدة الحساسية السمعية، ودقة التمييز الشمي التي كان يستمتع بهما جان الذي عثر عليه في منطقة لييج الذي كان يتعرف على حراسه من على بعد، كما كان يستمتع بهما أيضا شبه مجمل المتوحشين الآخرين الذين نشأوا في الغابات الذين كانوا يتشممون كل شيء كما تفعل الكلبيات (الكلب والذئب وابن آوي والثعلب) والسنوريات (الهررة والأسود والنمور...الخ). ومن أمثلة ذلك طفل الأ فيرون، وأحد أطفال سليمان، وطفل شا جاهامبور، وصبيات ميدنابور.

ويجب التسليم بأن البشر لايكونون بشرا وهم بعيدين عن البيئة الاجتماعية، إذ أن أسارير الأطفال المعزولين لا تنفرج عن الضحك أو الابتسام مطلقا ، وهما الميزتان اللتان ينفرد بهما البشر. كانت الانفعالات التي تختلج لدى تمكو و فيكتور ودينا سانيشار وطفل كرونشتاد، أو الطفلين المقيمين لدى القس شينج Shing هي الانفعالات الأكثر خشونة والتي لا تقتصر على الإنسان وحده، مثل نفاذ الصبر والغضب. وكان الميل نحو مصادقة النظراء يتجه لديهم في البداية نحو مخالطة الحيوانات، سواء كان ذلك بالنسبة لكليمينز صديق

الششنيات (الحيوانات ذات الحافر وسميكة الجلد)، أو جاسبار الذي لم يكن يكترث بأي شيء آخر حين يداعب حصانا، أو بعض المتوحشين الذين تحدث عنهم سليمان والذين كانوا يسعون لمصادقة الكلاب بخاصة. ويقول زينج Zingg بحق تماما أن قدرات الإنسان الكامنة المحرومة من منبهات البيئة المحيطة لا تتحقق وتكتمل مثلها في ذلك مثل النبات المحروم من التربة ومن الضوء. ويضيف بحق أيضا أنه لا يمكن توضيح آثار المجتمع على الإنسان بطريقة أفضل من تحليل حالات التوحش. وتقدم هذه "التجارب الطبيعية" برهانا جديدا وواضحا على صدق ما يقوله جاسبرز Jaspers (عالم نفسي وفيلسوف ألماني ١٨٨٣-١٩٣٩) في مؤلفه "أمراض نفسية عامة" بأن: "معارفنا وعاداتنا المكتسبة ومحاكاتنا وتربيتنا هي التي تجعلنا بشرا من الناحية النفسية". إن سمات "الرجل المتوحش" وسلوكه تبين إلى أي حد يكون من العبث محاولة فصل "البرنامج الوراثي" ومراحل النضوج عن ظروف تحويلهما إلى أمر واقع بواسطة "التعلم". ومن جديد تبدو وراثة النوع والوراثة الفردية بأنهما كالضباب وذلك قبل أن يتدرب الإنسان اجتماعيا.

٢- نقد الوقائع ومعانيها

حان الوقت لكي نتساءل من جديد عن مدى الثقة التي يمكن منحها إلى الأمثلة التي أردنا جمعها أولا قبل اهتمامنا بالنقد. سيكون من التعسف الموافقة على كل شيء أو رفضه أيضا ، ولكن يجب علينا للرد على هذا النقد أن نفحص عددا من الاعتراضات الذي اعتقد المرتابون سيئو النية بأن إثارتها سوف تضع عالم الاجتماع في مأزق. لقد قاموا أولا باستبعاد حدوث جميع الوقائع المروية بلا استثناء. وقال بوسكيه Bousquet (كاتب فرنسي ١٨٩٧-١٩٥٠) إجمالا : إما أن الطفل لم يبلغ ثلاث أو أربع سنوات من عمره وبذلك

لا يستطيع البقاء وحيدا، وإما أنه أكبر سنا ولهذا لا بد وأن يحتفظ ببعض آثار التربية. في الواقع أن هذه الملاحظة ليست شديدة القسوة. فالأطفال الصغار المفقودين - مثل آمالا- الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب قد حصلوا على معاونة من الحيوان، كما أن الأفراد الذين ضلوا طريقهم حين كانوا غلمانا أو يافعين قاسى بعضهم من توقف عن النمو، كما عانى آخرون من نكوص وارتداد وذلك مثل هذا البحار الذي ترك في جزيرة مهجورة ثم عثر عليه فيما بعد فاقدا للغته، وهو البحار الذي استلهم دانييل دوفو Daniel Defoë (الروائي والشاعر الإنجليزي ١٦٦٠-١٧٣١) قصته لكتابة روايته الشهيرة المتفائلة "روبنسون كروزو". ولنتأمل بكل إخلاص هذه الظاهرة الثانية المفترضة على الأقل والخاصة بالنكوص. في الواقع أنه إذا ما كان بعض "الأطفال المتوحشين" الذين تبنتهم الحيوانات منذ نعومة أظفارهم قد تمكنوا من أن يظلوا على قيد الحياة، إلا أنه على الأرجح أن يكون الآخرون قد عاشوا مع أسرهم فترة طويلة كافية حتى يمكن لعناصر التربية الأولى أن تجعلهم يستطيعون العيش في عزلة. ويمكننا ببساطة التساؤل فيما إذا كانت هذه التربية التي هي في غالبية الأحوال بلا حب وبلا مراعاة، ألم تكن في الواقع تربية بخسة والفصل الأول من مأساة الإهمال والتخلي؟. وعلى هذا يكون من غير المعقول القول - مثل بوسكيه قديما ودينيس حديثا - بأنه من الضروري أن تتكون لدى الطفل البالغ أربع سنوات آثار للتهذيب. وكذلك لا نستطيع استبعاد حالات العزلة الطارئة وتفادي مهمة فهم لماذا يفقد الطفل حينذاك ما قد اكتسبه ويرتد إلى مرحلة أدنى من السلوك. وفي هذا الشأن قام مؤلفون كثيرون بلفت الأنظار إلى قوانين اكتساب العادات - سواء العادات الحركية أو العقلية- التي تفرض التكرار حتى يتم استقرار الإطار المعرفي وتوطده بطريقة نهائية. إن كل معرفة أو عادة مكتسبة تختفي وتتلاشى، ما لم يتم تدعيمها بالخبرة المتجددة. وتعتقد ماريان سميث Marian Smith أنه يمكن

للإصابة الانفعالية التي تصيب كل طفل يضل طريقه فجأة أن توضح التلف والدمار النفسي. ولا يعتقد جيزيل Geselle ((عالم النفس الأمريكي ١٨٨٠-١٩٦٠) أن تفسير ماريان هذا للوقائع يكون دائما مرضيا لأنه لا يجد في أوصاف حالات التوحش الأكثر شهرة أية سمة من السمات المميزة لمجموع أعراض الأمراض النفسية الكبيرة: لم يجد تفكيكات الفصام العقلي (الشيزوفرنيا)، ولاالاندفاعات المضطربة لمرض الهوس، ولا- بطبيعة الحال- تخيلات وهواجس البارانويا (الهذاء). وحتى إذا ما كانت ماريان سميث على حق فهذا يعني أيضا أنه إذا ما فقد الطفل - والراشد ذاته أيضا - الحياة الاجتماعية فإنه لا يصبح "إنسانا" ويسقط في هوة التوحش التي لا تقودها أية غريزة. وأيا كان التفسير الذي نتناوله من بين التفسيرين - عدم النضج العقلي أو الصدمة الانفعالية- فإننا نخرج سالمين من المعركة التي يشنها علينا أولئك الذين يعارضون الدلائل الواضحة، ويريدون بألا يكون هناك سوى افتراض واحد محتمل هو الافتراض الثالث الخاص بالتخلف الفطري.

وقد اعترضوا أيضا على أن يكون هؤلاء الأطفال قد تمكنوا من العيش بعيدا عن المجتمع الإنساني زمنا طويلا، ولم يموتوا من الجوع أو البرد. ويفترض دينيس أنهم لابد وأنهم لم يتركوا لشأنهم سوى لفترة قصيرة للغاية. إن هذا التحفظ الجديد ليس له وزن أكثر من سابقه. فإننا نميل إلى التشكك فيما هو قديم وما هو بعيد في حين أن الإعلام المعاصر يعرض علينا في كل يوم حقائق تفوق الخيال بكثير من غير أن تثير دهشتنا. كيف لا نمنح ثقتنا لبعض المعجزات الطبيعية الخاصة بالحياة "المتوحشة"، في حين أننا نقبل تلك الأكثر غرابة وشذوذا التي تعرضها علينا الحياة اليومية بسخاء؟ فإننا نعرض على أولئك المتشبهين بالقديس توما (أحد تلاميذ المسيح المعتبر مثالا على الشك وعدم اليقين) هذا النبأ الذي نشرته الصحافة الباريسية يوم أول ديسمبر عام ١٩٦٢: فقد نشرت بأن طفلا يدعى

"ميميل" سقط من الدور العاشر من عمارة في منطقة نهر السين أي من ارتفاع ٢٥ مترا ولم يصب إلا بكسر بسيط في ذراعه. وقد نهض فور سقوطه وقال في هدوء: (ميميل عمل "بوم".) وإذا ما كنا نعتبر حظ فيكتور الأفيروني وفيرا، فما القول بالنسبة إلى حظ ميميل السين؟ من الصحيح أن سقوط ميميل لايعرض الطبيعة الانسانية للتشكك. في الواقع أنه ليس غريبا أن تشهد الإنسانية ثلاثين أو أربعين حالة عزلة شديدة في عالم يمكن أن نتوقع فيه حدوث أي شيء، وحيث تتابعت وتعاقبت آلاف الملايين من الكائنات الإنسانية عاشت بعضها في ظل ظروف مرعبة حقا . إن الغريب فعلا هو العكس أي أنه لو كان العالم لم يشهد أية حالة من حالات التوحش. إن الحياة "المتوحشة" هي إحدى طرق المعيشة المحتملة، والمرجحة، بل وفي النهاية هي واقع حقيقي بسبب الظروف الأرضية وقانون الأعداد الكبيرة. إن الفرضية غير المعقولة ليست هي مطلقا قبول بعض هذه الحالات، لكنها رفض جميع الحالات. ومن ناحية أخرى إذا افترضنا بأن عزلة "الإنسان المتوحش" كانت قصيرة الأمد للغاية، فكيف نعلل تيبس الجلد وثخانته في أكواع وركب صبايا ميدنابور؟ كيف نعلل ميل جميع الأطفال-الذئاب الشديد للحوم النيئة، ووجود جروح غائرة قديمة وندبات في أجسادهم، وميل طفل إيتار للأعشاب وحدها؟ وأخيرا إن الافتراض بحدوث توحش لأمد قصير للغاية يتعارض مثلا مع شهادات المواطنين الذين رأوا طفل الأفيرون عاريا وهاربا داخل الغابات قبل أسره بأمد طويل.

ويوجد اعتراض آخر يقول بأن اجتماع طفل وحيوان معا في حياة مشتركة هو أمر موضع شك. إننا نود أولا التذكير بتجارب التعايش السلمي بين القطط الصغيرة والفئران التي حققها علم النفس الحديث حين جمع بين الأعداء بالفطرة ووضعهم جنبا إلى جنب. وإننا نذكر ذلك حتى يمكن اختفاء الشكوك المفرطة لدى أولئك الذين لايرون في الدب وفي الذئب -أي فصيلة الكلبيات المتوحشة- رفاق لنا

في الجبروت، ومع ذلك فهم يوافقون على أنه يمكن للخروف وللعجل وللخنزير تحمل وجود إنسان صغير بينهم من غير أن يستشيطوا غضبا . ولكن كيف يمكن لخبراء الآراء والأحكام المعطلة تفسير العلامات الحيوانية العميقة التي بدت على الطفل الأيرلندي، وطفل ليتوانيا الثالث، وطفلي سكندرا، وبعض أطفال سليمان الذين كانوا يتشممون أي طعام يقدم إليهم؟ وكيف يرتاب بهلوانات الحيرة في قيام طفل سليمان الثاني أو صبيتي مينا بور بلعق السوائل بألسنتهم بدلا من شربها؟ كيف يمكن لمحترفي عدم الحسم أن يخرجوا من مأزقهم المتمثل في قيامهم بدور المتشككين، وذلك في مواجهة ميول هؤلاء الأطفال الغذائية الكاشفة، ورفضهم بعنف ارتداء الملابس؟

من الصحيح أنه من المألوف أن يتسم الشك بالمبالغة حين يتطلب الأمر الإسراع لنجدة قضايا خاسرة. وإننا نجد في هذا الشأن مثالا توضيحيا جذابا هو الكتاب الذي وضعه بيرجن إيفانز.Bergen Evans إن هذا المؤلف صاحب الحس الدعابي لكنه سطحي، يعيب على زنج أنه لا يعرف الجغرافيا وأنه قام بتغيير موقع مدينة ميدنا بور، ويلوم شنج لأنه لم يحصل في عام ١٩٤٢ على شهادات الأشخاص الذين كانوا يرافقونه أثناء تجواله التبشيري في عام ١٩٢٠. ولكن لماذا يمنح بيرجن إيفانز- الناقد للصحفيين بعنف بأسلوب صحفي خالص- يمنح ثقته إلى أقوال مرافقي القسيس من الأهالي أكثر من منحها إلى شهادات القسيس ذاته الذي نعلم أن غيرته الدينية جعلته يتردد في نشر تقرير؟ ولماذا يرى بيرجن إيفانز بأن العثور على مرافقين في رحلة إلى الهند بعد مضي عشرين عاما على هذه الرحلة هو أمر أكثر سهولة من العثور في الولايات المتحدة أو في فرنسا على زملاء كانوا معنا في الجيش ثم نسينا أسماءهم وفقدنا كل أثر لهم؟ إن كتاب "تاريخ الحماقات العام" الذي ألفه إيفانز هو في الحقيقة كتاب واف تماما حيث تتجمع معتقدات قديمة العهد مع انحيازات المؤلف ذاته.

وبطبيعة الحال أنه من حقنا ومن واجبنا بأن ننتقد صحة الأوصاف المدونة والمنقولة خاصـة حين لا تصدر عن شخصيات من أمثال إيتار أو فيورباخ أو شينج. إن العديد من حالات العزلة مشكوك فيها، فبعضها مريب أو مبهم، والأخرى لم تصمد أمام الفحص. ونذكر في هذا الشأن مثال الطفل-القردوح (قرد ضخم) في إفريقيا الجنوبية الذي يلتهم القمح النيء والصبار، وكان عسكري بريطاني برتبة رقيب يدعى هولسن زعم بأنه قد أسره في مارس ١٩٠٤ بالقرب من مدينة باثورست حيث كان يعيش مع حيوانات من فصيلة الرئيسيات. وقد أظهر التحقيق أن لوكاس (اسم الطفل) كان يوجد وقتذاك في مدينة برغرزدروب Burghersdrop بولاية الكاب) البعيدة عن مدينة باثور ست وأنه أ خذ إلى مستشفى جراهامزتاون للأمراض العقلية. ولم يتمكن أحد من العاملين في هذا المستشفى الذين عرفوا لوكاس في عام ١٩٠٤ أن يتذكر بأنه قد جرى أي حديث وقتذاك عن إقامة لوكاس لدى القرود. وفي المقابل فإن شخصا يدعى موسكوت حاول في سبتمبر عام ١٩٣١ تأكيد الخديعة بأن اتصل بشركة سينمائية بهوليوود تحت اسم جورج - هارفي سميث، ثم خطرت على باله فكرة الذهاب بنفسه إلى لندن ليقوم بعرض الطفل لوكاس. ولم تكن في حياة هذا الطفل أية مغامرة شاذة إذ ثبت بأنه ضعيف عقليا بسبب حدوث كسر في جمجمته. وفي يوليو عام ١٩٤٠ نشر زنج مقالا في "أمريكان جورنال أوف سيكولوجي" اشتمل على سبع صفحات من أقوال شهود وخرج بنتيجة بأنها مؤامرة محبوكة. وقد أظهر زنج بأننا لسنا دائما حذرين ولا متيقظين في مواجهة قصص "الإنسان المتوحش" . ويظل أن حالات مثل حالة جاسبارنورمبرج أو فيكتور الأ فيروني، أو كمالا ميدنا بور ليست موضع نزاع ولا نستطيع التشكيك فيها ولا في غيرها من الحقائق التاريخية. وتقول آن استازي Anne Anastasi بحق تماما أن هذه الحالات "تساهم في توضيح بعض وقائع تطور ثبتت صحتها بواسطة طرق يمكن مراجعتها بسهولة".

وفي هـذا المجـال كمـا فـي غـيره، يتـأكد اليقين بواقعيـة الأحـداث بواسطة مضاهات روايات الشهود، ويباشر الباحث عمله فيه إجمـالا على منوال قاضي التحقيق. والحال أن جان إيتار رئيس أطبـاء ملجـأ الصم-البكم بشارع سان جاك، وفون فيورباخ رئيس محكمة اسـتئناف مدينة اسباخ و.جالسنج العالم ورجل القانون والدين الـذي كـان يتولـى إدارة ملجـأ الأيتـام بمدينـة ميدنـا بـور الهنديـة، يقدمـون لنـا أوصـاف محددة للغاية ومتناسقة فيما بينها لدرجـة تجعلـها ليسـت موضـع شـك. ولا يبدو أيضا على رجل القضاء ولا على الرئيس الديني بأنهما كانا من قراء مؤلفات وفون لينيه (عالم النبات السويدي والأستاذ بجامعة أوسـالا وطبيب ملـك السـويد). ومـع ذلـك فإنـهم جميعـا يـروون الأوصاف المميزة "للإنسان المتوحش" الـواردة فـي كتـاب Systema naturae من تأليف لينيه): فهم يتحدثون عن المشقة التي يعانيها الطفل المتوحش لكي يقف على قدميه - فيما عدا فيكتور الذي قالوا عنه بأنه كان يميل دائما إلى أن يخب (ينقل أيامنه وأياسره جميعا في العـدو) أو يثـب كالحصـان. ويوجـد شـاهد آخـر هـو المواطـن نوجـايرول Nougairolles مديـر ملجـأ سـانت-آفريـق الـذي يصـف لنـا كيـف كـان فيكتور يهرب جريا على أربع وتجري مطاردته إلـى اليوم الـذي تـم فيه وقوعه في الأسر في أحد الحقول. وإنهم يصفون لنـا أيضـا البكـم الأولى لدى هؤلاء الأطفال الذي دام لدى فيكتور، ونقص لدى كمالا، واختفـى لـدى جاسبار. ويشيرون جميعـا أيضـا إلـى أن الغريـزة الجنسـية لـدى الأطفـال المتوحشـين ضـعيفـة -الأمـر الـذي لا يمكـن اختلاقـه- وإلـى أن حواسـهم تتسـم بمميـزات ترتبـط بمغامرتـهم أثنـاء العزلة. ويشترك بوناتير Bonnaterre مع فون فيورباخ في الدهشة لأن فيكتـور وجاسـبار لا يتعرفـان علـى صورتـهما فـي المـرآة. ولا يوجـد معنـى للشـك أو للارتيـاب فـي مواجهـة مثـل هـذه المجموعـة مـن التشابـهات الـواردة فـي شـهادات رجـال يتمتعـون بدقـة وباسـتقامة كبيرتين، والذين لم توجد بينهم أية رابطة زمانية أو مكانية.

ومن جهة أخرى فإن فلاسفة "الطبيعة الإنسانية" لم يطب لهم الاعتراض إطلاقا على حادث العزلة ذاته، لكن الأصح هو أن اعتراضهم انصب على دلالات هذه العزلة. فقد افترض ليفي- ستراوس Lévi-Strauss (عالم سلالات بشرية فرنسي مولود عام ١٩٠٨) ذاته أن "غالبية هؤلاء الأطفال كانوا غير أسوياء منذ ولادتهم، وأنه يجب البحث في الغباء الذي يبدو بأنه قد ظهر في المجمل تقريبا بأنه السبب الأولي للتخلي عن هؤلاء الأطفال ولم يكن - كما يبتغون في بعض الأحيان- نتيجة له". وإننا نلاحظ كثرة الاشتراطات التي يضعها ستراوس حين يقول مثلا "غالبية" و "في المجمل تقريبا " الأمر الذي يصون الحالات الموثوق بها التي ذكرناها للتو من النقد. ومع ذلك فإننا نود إبراز أن ليفي- ستراوس لا يعالج موضوع الأطفال المتوحشين في فرضيته الرائعة إلا عرضا، ومن الواضح أنه لم يكن لديه الوقت لكي يستعلم: فإن جميع مراجعه تقريبا خاطئة، سواء فيما يتعلق بتواريخها أو بعناوينها. وفيما يتعلق بصبيتي ميدنا بور فإنه يكتب بأن "إحداهن لم تتمكن من الكلام إطلاقا حتى حينما أصبحت في سن الرشد." إن هذا المثال على وجه التحديد غير موفق لأن هذه الفتاة المعنية -استثناءا - قد تكلمت بإسهاب عند نهاية حياتها، وإن كان من الصحيح أيضا أنها كانت تستخدم مجموعة بدائية من الكلمات، فضلا عن عدم بلوغها سن الرشد مطلقا . لقد توفيت في غمرة مراهقتها إذ كان عمرها سبعة عشر عاما. ويرى أرنولد جيزيل Arnold Gesell (عالم النفس الأمريكي ١٨٨٠-١٩٦٠) أنها لو كانت استمرت في تقدمها وفي حياتها حتى بلوغها الخامسة والثلاثين من عمرها، لكان عمرها العقلي قد بلغ العاشرة أو الثانية عشرة، وهو عمر عقلي لا يقل كثيرا عن عمر المزارعين في بلاده أو في بلادنا.

وقد أجاب ميرلو- بونتي Merleau-Ponty (فيلسوف فرنسي ١٩٠٨-١٩٦١) في كتابه "العلاقات مع الآخر لدى الطفل" على ليفي-

ستراوس ضمنيا . إذ قال بأنه لا يمكن في الواقع الاستنتاج من عدم كلام الطفل بأنه قصور عقلي بنيوي. وكتب بونتي: "توجد فترة يكون فيها الطفل سريع التأثر باللغة، وقادرا على تعلم الكلام. وقد أمكن إثبات أنه إذا لم يوجد الطفل خلال هذه الفترة في بيئة يتكلمون فيها اللغة، فإنه لن يتحدث قط مثلما يتحدث أولئك الذين اكتسبوا اللغة خلال الفترة المعنية. وهذه هي حالة الأطفال الذين يسمونهم متوحشين، والذين تربوا لدى الحيوانات أو بعيدا عن أشخاص يتكلمون. إن هؤلاء الأطفال لم يتعلموا الكلام قط، أو لم يتعلموه بنفس درجة الاتقان التي نجدها لدى الأشخاص العاديين... ويوجد بين اكتساب اللغة واندماج الطفل في البيئة الأسرية ارتباط عميق... إن الأطفال الذين ينفصلون عن أمهاتهم فجأة وبصفة دائمة يظهرون دائما ظواهر نكوص لغوي. الواقع أن كلمة "ماما" ليست هي وحدها أول كلمة ينطقها الطفل بل إنه يتحدث بما يمكن تسميته بلغة الأمومة. ويتم اكتساب اللغة بنفس أسلوب العلاقة مع الأم: وهي علاقة تقمص نفسي- إن تعلم الكلام هو تعلم القيام بمجموعة من الأدوار. إنه الاضطلاع بمجموعة من التصرفات والحركات اللغوية- يجب على الطفل أن يتعلم المبادلة-(مع استخدام تعبيرات ياجيه Piaget)...كما أن التمثل الذهني لتجربتنا في العالم ينتج دائما عن التمثل المتأثر بعلاقاتنا مع الآخرين." ولنفكر فيما تزودنا به الصحافة مرارا باعتبارها أمثلة توضيحية لكل هذا. ولنستشهد -كيفما اتفق- بمثال الطفل إيف شينو Yves Cheneau الذي عثر عليه عمه ورجال الشرطة عام ١٩٦٣ بمدينة سان إيف الفرنسية حيث حبسته زوجة أب شرسة داخل مخبأ تحت الأرض عاش فيه سجينا لمدة ١٨ شهرا . ويروي الرجل الذي أنقذه: " كان عند خروجه من المخبأ في حاجة إلى وقت طويل قبل أن يتعود على الضوء من جديد. وقد أريناه قطا وبقرة وطلبنا منه أن يقول أسماءهما لكنه لم يعرفهما." وقد قابل ديدييه لورو- Didier Leroux مندوب صحيفة

باريسية كبيرة-الطفل في مستشفى نانت وكتب عنه يقول: "كانت عيناه الكبيرتان تمس الأشياء والأشخاص بعدم اكتراث وضجر. إنه لا يتكلم. لم يعد يعرف الكلام."

أما بالنسبة للفرضية المبنية على ما سبق عرضه بشأن الرأي الخاطيء القائل بأن بكم الطفل يعود أساسا لأسباب تتعلق بعدم اكتراث الأسرة أو غضبها تجاه طفل أبله، فإنه يكفي ببساطة شديدة التفكير فيها قليلا لكي يتم رفضها.

لماذا يظنون أن التعليل البديهي لمجمل أو غالبية حالات التخلي عن الأطفال يكمن في كون أصحابها ضعاف العقول عند مولدهم؟ هل ت ظهر إحصائيات الإسعاف العام أن غالبية الأطفال الذين تتخلص أسرهم منهم مصابون بالغباء أو بالبله؟ الواقع أنه يتم التخلي عن أطفال من كل نوع ومهما كانت درجة خفة عقولهم، وكل شيء يشهد لصالح فكرة أن نسبة الأسوياء إلى غير الأسوياء التي تظهرها إحصائيات مؤسسات الإيواء أو الإقامة هي نفسها التي لا بد أن نجدها في قائمة حالات التوحش الموجودة لدى علماء الاجتماع. فضلا عن أننا نعرف أن الطفلة آمالا مثلا كانت منذ بلوغها عام ونصف من عمرها قد تأثرت بعمق بإقامتها في الغابة: وبناء عليه لا بد وأنها كانت في الغابة قبلها بعدة شهور. كيف يمكن التلفظ بفرضية أن أما عرافة تمكنت من التنبؤ بأن طفلة حديثة المولد تعاني من تخلف عقلي لا تحمل سماته؟ إن جماعات الأطفال المشردين تجوب الطرق في أوقات الإضطرابات - كان هذا هو الشأن في عصر غزوات نابليون، وفي روسيا بعد ثورة عام ١٩١٧، وفي أوروبا الوسطى خلال حرب عام ١٩٤٠، وفي إيطاليا بعد عام ١٩٤٥- إن آلاف مهود الأطفال الصينيين تطفو كل عام فوق نهر يانج-تسي والتي ينتظرها الموت الأكيد، في حين أنه في الهند تؤدي مصادفة وجود حيوان متعاطف ومنقذ إلى انقاذ طفل من بين آخرين عديدين من الفناء. وفي هذا كله

لا يمكن حقيقة إدخال الحاصل الذكائي للصبي المتشرد أو للرضيع اللقيط في الحسبان.

وفي ظروف معينة تتردد الأم في التخلص من الطفل كليا . رأينا ذلك في حالة الطفل إيف شينو (الذي عثر عليه في مخبأ بباريس عام ١٩٦٣). ومع ذلك فإن حالات الأطفال غير الشرعيين الذين تم حبسهم تقدم لنا صورة عن "التوحش من منازلهم". ونسمح لأنفسنا بذكر مثال آخر خاص بفتاة غير شرعية اسمها أن ا ولدت يوم ٦ مارس عام ١٩٣٢، وتم اكتشافها في فبراير عام ١٩٣٨ محبوسة في الدور الثاني بمزرعة منعزلة تقع شمال-شرقي الولايات المتحدة. كانت في البداية قد تربت لدى حاضنة في بيت حضانة جماعية، ويقول جميع من اعتنوا بها وقتها أنها كانت طفلة طبيعية بل وحتى جميلة إلى حد كبير. وقد وجدت الأم نفسها عاجزة عن دفع نفقات إقامة طفلتها فأخرجتها قبل أن تبلغ عاما من عمرها وحبستها في غرفة حيث عانت من الإهمال ونقص الغذاء والحرمان من الشمس. وأدت أربع سنوات من الاحتجاز وعدم الحركة - يبدو أنها ظلت ممددة فوق فراش حقير- إلى ظهور آثار لديها شبيهة بالآثار التي وجدت لدى الإنسان المتوحش. كانت لا تستطيع الوقوف على رجليها - بسبب الضعف العام- كما كانت غير قادرة على إصدار صوت. لم تكترث باللعب التي قدمت لها لأنها كانت في حالة شرود مرضي، وبدت عليها أعراض حدوث تشوهات في حواسها -اعتقدوا أنها مصابة بالصمم وبالعمى- وكانت لا تضحك ولا تبكي قط. ومنذ الفترة الأولى التي بدأت فيها إعادة تعليم الطفلة أظهرت اهتماما وايثارا لألوان بذاتها ولأنواع من الطعام معينة وبدأت تلعب مع مربيتها. ولم يكشف الفحص الفيزيولوجي عن وجود أي قصور في الانعكاس اللاارادي في أخمص القدم وفي رضفة الركبتين أو في حدقة العين. وسرعان ما ظهر الضحك الخالص الجلجال. وبعد مضي عام كانت تستطيع نزول السلالم - مع الجلوس على كل درجة

بالتتابع- واستخدام يديها لتناول الطعام، والشرب من الكوب، والأكل بالملعقة، والسير بضع خطوات. وبعد مضي ستة عشر شهرا تعودت على الاغتسال وأظهرت قدرة مناسبة على فهم التعليمات الشفوية. ولم يستطع أحد أن يفعل شيئا بالنسبة للوقت الماضي الضائع، لكن أخذ عقل الفتاة يتيقظ ببطء. وتوجد طفلة أخرى تدعى إديث ريلي Edith Riley لكنها كانت أقل تأثرا بالعزلة وأقل استئصالا من جذورها، فقد حبست في مخزن للأشياء القديمة خلال سنوات عديدة، وفي سن الثانية عشر صنفت بأنها من الأغبياء، وبعد ٢٤ شهرا ارتفعت إلى مستوى الذكاء المتوسط. لم يكن التخلف العقلي في الحالتين السابق ذكرهما هو الباعث على رفض الطفل وحبسه. إن كلا من فريمان F.S.Freeman وكيللوج Kellog وكينجزي دي يز Kingsey Davis على حق تماما حين لا يرون في العجز النفسي لدى الأطفال "المتوحشين" سوى نتيجة لعدم تأقلمهم مع الحياة الاجتماعية. ولا يوجد ما يسمح بالافتراض بأن نسبة القصور العقلي البنيوي بين هؤلاء الأطفال تختلف عن نسبتها في أية عينة أخرى معبرة عن المجتمع.

ومع ذلك ظهر رأي آخر مغاير تماما للرأي القائل بأن التأخر العقلي الشديد هو السبب الحاسم في التخلي عن هؤلاء الأطفال في أغلبية الأحوال. إذ يرى أرنولد جيزيل أن قدرة هؤلاء الأطفال على البقاء أحياء في ظل ظروف محفوفة بالمخاطر هو دليل على أنهم أطفال طبيعيون. ويقول بأنه يجب التسليم بأن غبيا أو معتوها لن يستطيع العيش بعيدا عن البيئة البشرية دون أن يلقى الموت بعد بضعة أيام. إن بصيرة الأطفال "المتوحشين" التي ظلت تختلج في عقولهم والتي لم تقتصر على التعلم، قد سمحت لهم باستخلاص بضعة دروس ضئيلة من تجربتهم، وبالبقاء أحياء في ظل معيشة بدائية. كان وجود جهاز مخي سليم تماما هو على الأقل الشرط الأدنى حتى يتمكن فيكتور من أن يثب ويقفز في غابة "رويرج" التي

عاش فيها خلال عدة سنوات وبدون مساعدة. ويضيف جيزيل على هذا الرأي الحصيف ملحوظة لا تقل حصافة. فقد أظهرت كمالا - مثل فيكتور - رغبة التعلم ، وإرادة التفوق، وبذل الجهد للوصول إلى حالة الرشد، والعديد من العلامات التي لا نجدها لدى الأبله بنيويا المحكوم عليه بألا يستطيع الاتصال مع الآخرين، وعلى عمره العقلي بألا يتجاوز السنتين. وعلى هذا لم تكن كمالا حين بلغت الثامنة من عمرها سوى بلهاء لأسباب خارجية المنشأ.

* ولا غنى عن مقارنة ما نعرفه عن الأطفال المتوحشين بما تعلمناه عن الأطفال الذين يعالجون باعتبارهم ضعاف عقول. ويمكن الافتراض في هذه الحالة كما في تلك بأن فقدان التربية أو عوز الأسرة هما المتسببان في الاختناق النفسي أو التخلف الذهني. ولا جدال بأنه سواء كان الضعف العقلي داخليا أو خارجيا فإن دلائل التخلف تختلط عند الوهلة الأولى. ومع ذلك تبدو الأبحاث الحديثة بأنها تؤكد ما ذكره جيزيل بأن الملاحظة الدقيقة تكشف عن وجود بصيص من الأمل بتنشيط الضعف العقلي خارجي المنشأ -أي غير الناتج عن ضعف عضوي- بالتعليم. هكذا يمكننا نظريا التفرقة من خلال اختبارات التدريب بين الضعف العقلي المرتبط بالجسم والضعف المرتبط بعقدة تربوية. ولا تقل العقدة الأخيرة خطورة عن الضعف المرتبط بالجسم ولا تقل آثارها دواما عنه، لكنها مع ذلك تستجيب أكثر للعلاج النفسي. ولنفترض قيامنا بإجراء مقارنة بين مجموعة من ضعاف العقول لدى الأسعاف العام حيث يمكن تصور وجود عدد كبير من حالات الإحباط العاطفي وكذلك بين مجموعة من المعتوهين في مدرسة الحي. ففي البداية نجد الفشل في اختبار بنروز Penrose ورفان Raven المسمى "المصفوفات المتقدمة") متعادل تماما بين المجموعتين. ولا نحصل على نفس النتيجة إذا ما أجرينا نفس الاختبار من جديد بعد إعطاء المجموعتين أربعة

دروس في شرحه. ففي هذه التجربة المحددة سيتمكن ضعاف العقول بسبب عائق اجتماعي من الحصول على نتائج قريبة من نتائج الأطفال الطبيعيين . وعلى العكس لن يحرز ضعاف العقول لأسباب جسمانية سوى على تقدم ضئيل للغاية بين كل تجربة وأخرى. ويبرهن هرتنج الذي أجرى هذه التجربة على أن الضعف العقلي يخفي أحيانا مجرد عجز ذي طابع اجتماعي، و في هذه الحالة تعتبر القدرة على إحراز تقدم ذات شأن في التشخيص. نعود مرة أخرى إلى جيزيل الذي يقول: كان الميل نحو التعلم وإمكانية إحراز تقدم في حالتي فيكتور وكمالا على الأقل - بغض النظر عن حالة جاسبار- علامة على أن تأخرهما العقلي لم يكن بسبب قصورهما ذهنيا . ففي الثانية عشر من عمرهما الحقيقي بلغا الثانية من عمرهما العقلي: وعلى هذا كان يجب من هذه الوجهة تصنيفهما من بين البلهاء. وفي هذه الحالة يلزم الاعتراف بأنهما لم تكن بلاهة باطنية - فطرية أو وراثية- إذ أنهما توجها شيئا فشيئا نحو حالة الغباء التي يستطيع المرء فيها إظهار القدرة على البدء في إقامة حياة اجتماعية، وفي التبادل اللفظي مع المحيطين به - كانت هذه حالة فيكتور- بل وفي القراءة والكتابة بطريقة لا بأس بها.[1]

ومن الممكن التساؤل لماذا سرعان ما اصطدمت غالبية الأطفال المتوحشين بحدود عقلة لاتستطيع تجاوزها - ذلك باستثناء تومكو وجاسبار اللذين لم يعيشا في عزلة تامة قط، وفتاة سوجني التي صاحبتها مرافقة خلال أمد طويل. هذا لأنه لكي تكون للتأثيرات الاجتماعية نتائج مثمرة يجب حدوثها - كما نعرف- في وقتها المناسب" إذ توجد سن معينة وفترة زمنية خاصة لتعلم اللغة، وسن

---

[1] اختبار مصمم لقياس الذكاء العام يتكون من ٦٠ تصميما مجردا وقد استبعد جزء من كل منهما. ويختار المفحوص القطعة المفقودة التى تقحم على التصميم من بين ستة أو ثمانية بدائل تقدم له. (نقلا عن "ذخيرة علوم النفس" للدكتور كمال الدسوقى- المترجم).

معينة يينة لتعلم المشي وسن للقراءة وأخرى لتعلم الجبر. وإذا ما انقضت هذه الفترة الزمنية المناسبة يصبح كل شيء صعبا . ومن ناحية أخرى يقول جيزيل أيضا أنه فيما يتعلق بالأطفال - الذئاب كان يجب قبل تعليمهم، القيام بمحو آثار السلوك السابق غرزه لديهم، وجعلهم ينسون التعاليم التي اكتسبوها من قبل. وعلى أي حال يبين التقدم القليل الذى أمكنهم أحرازه أنه ما كان يجب الإسراع فور أسرهم بتشخيص حالتهم - على غرار ما فعل ببينيل Pinel (طبيب أمراض عقلية فرنسي ١٧٤٥-١٨٢٦)- وتقييم قدراتهم المستقبلية على أساس قدراتهم الحالية. ومهما كانت ضآلة هذا التقدم في بعض الأحوال إلا أنه يسمح تحديدا برفض فرضية سبق التخلي عنهم بسبب قصورهم العقلي. وتصبح هذه الفرضية مقبولة وصحيحة في الحالات التي كانت جميع مجهودات التعليم غير مجدية فيها. بل ويرى زنج في عدم تحقيق دينا سانيشار لأي تقدم الدليل على أن حالات فيكتور وكمالا أو جاسبارهي حالات حرمان من اتصال اجتماعي يسميها ترودجولد Trudgold " قصور عقلي حرماني" ، ويسميها راوبر Rauber خبل بمقتضى الانفصال". ويجب علينا الآن تأمل هذه القدرة على تلقي التعليم، وهذا النمو على طريق المعرفة، وهذا التفتح في المشاعر لدى الأطفال "المتوحشين". وتوجد لدينا ثلاث حالات على الأقل يتعذر الاعتراض عليها، ونعتزم الآن القيام بتوضيحها بدقة" ذلك لأنها أولا أمثلة نموذجية، بل ولأنها من خلال تنوعها تبرز أيضا أنواع "التوحش" الثلاثة وهي: الطفل المنغلق على ذاته، والطفل الذي أصبح حيوانا، ثم الطفل المنعزل.

قائمة بحالات الأطفال «المتوحشين»

اسم الحالة	تاريخ اكتشاف الحالة	عمر الطفل وقت العثور عليه	أول معلومات هامة
الطفل-الذئب بمنطقة هيس-المانيا	١٣٤٤	٧سنوات	كاميراريوس١٦٠٢ روسو١٧٥٤ لينية١٨٥٨
الطفل- الذئب فيتيرافي	١٣٤٤	١٢سنة	فون شريبر ١٧٧٥
الطفل- الدب الأول في ليتوانيا	١٦٦١	١٢سنة	لينيه ١٧٥٨
الطفل الخروف بأيرلندا	١٦٧٢	١٦سنة	تولب ١٦٧٢ – لينيه ١٧٥٨
الطفل العجل في مامبرج – المانيا	١٦٨٠	؟	كاميراريس ١٦٠٢ – لينيه ١٧٨٨
الطفل الدب الثاني في ليتوانيا	١٦٩٤	١٠سنوات	كوندياك ١٧٤٦ – روسو ١٧٥٤
الطفل الدب الثالث في ليتوانيا	؟	١٢سنة	كونور ١٦٩٨
فتاة كرانيلبرج – هولندا	١٧١٧	١٩سنة	لينيه ١٧٨٨
غلاما البيرنيه	١٧١٩	؟	روسو ١٧٥٤ – لينيه ١٧٥٨
بيتر المتوحش من هانوفر	١٧٢٤	١٣سنة	روسو ١٧٥٤ – لينيه ١٧٥٨
فتاة سوجني بمقاطعة شمبانيا فرنسا	١٧٣١	١٠	لوي راسين ١٧٤٧ – لاكوندامين ١٧٥٥ – لينيه١٧٨٨
جان من ليبج – بلجيكا	؟	٢١سنة	ديجبي ١٦٤٤ – لينيه ١٧٨٨ – فاجنر ١٧٩٤
تومكو من زيبس – المجر	١٧٦٧	؟	فاجنر ١٧٩٤
الفتاة الدبة من كاريفن – المجر	١٧٦٧	١٨سنة	بوناتير ١٨٠٠
فيكتور متوحش الافيرون – فرنسا	١٧٩٩	١١سنة	إيتار ١٨٠١
جاسبار هاوزر من نوريمبرج – المانيا	١٨٢٨	١٧سنة	فون فيوخباخ ١٨٣٢
الفتاة الخنزيرة من سالزبورج	؟	٢٢سنة	هورن ١٨٣١
طفل هوسانبور	١٨٤٣	؟	سليمان ١٨٥٨
الطفل الأول في سلطانبور	١٨٤٣	؟	سليمان ١٨٥٨
الطفل الثاني في سلطانبور	١٨٤٨	؟	سليمان ١٨٥٨
طفل شيرا	١٨٤٩	؟	سليمان ١٨٥٨
الطفل الأول في لوكنوف	؟	؟	سليمان ١٨٥٨
طفل بانكيبور	؟	؟	سليمان ١٨٥٨
طفل الكابتن ايجرتون	؟	؟	سليمان ١٨٥٨
كليمنز الطفل الخنزير من اوفردايك	؟	؟	تايلور ١٨٦٣

اسم الحالة	تاريخ اكتشاف الحالة	عمر الطفل وقت العثور عليه	أول معلومات هامة
الطفل الذئب من اوفردايك	؟	؟	تايلور ١٨٦٣
دينا سانيشار من سكندرا	١٨٧٢	٦سنوات	بول ١٨٨٠
الطفل الثانى من سكندرا	١٨٧٤	١٠سنوات	بول ١٨٨٠
طفل شاجاهامير	١٨٧٥	٦سنوات	بول ١٨٨٠
الطفل الثانى من اوكتوف	١٨٧٦	؟	بول ١٨٨٠
فتاة جاليايجورى	١٨٩٢	٨سنوات	جريدة المجتمع الانتروبولوجى فى بومباى
طفل باتزيبور	١٨٩٣	١٤سنة	فريزر١٩٢٩
الطفل ال ذئب من كرونشتاد	؟	٢٣سنة	راوبر ١٨٨٥
طفل سلطانيور	١٨٩٥	٤سنوات	روس١٨٩٥
الطفل القرد لوكاس	١٩٠٤	؟	فولى ١٩٤٠
الطفل النمر الهندى	١٩٢٠	؟	ديميزون ١٩٥٣
الطفلتين امالا و كامالا من ميدنابور	١٩٢٠	٨ و ١٠سنوات	سكوايرز ١٩٢٧
الطفل الفهد الأول	؟	؟	بكر١٩٢٠
ال مايوانا	؟	؟	ذي بيونير ٥ أبريل ١٩٢٧
طفل جهانسى	١٩٣٣	؟	زنج ١٩٤٠
طفل ذئب هندى	؟	؟	متون ١٩٣٩
طفل كازامانس	الثلاثينيات	١٦سنة	ديميزون ١٩٥٣
اسيسيا من ليبيريا	الثلاثينيات	؟	ديميزون ١٩٥٣
الطفل الفهد الثانى	؟	٨سنوات	زنج ١٩٤٠
انا من بنسيلفانيا	١٩٣٨	٦سنوات	ديفيز ١٩٤٠
إديث من اوهايو	١٩٤٠	؟	ماكسفيلد١٩٤٠
الطفل الغزال السوري	١٩٤٦	١٢سنة	ديميزون ١٩٥٣
الطفل الهندى رامو	١٩٥٤	١٢سنة	وكالة الأنباء الفرنسية ٨ فبراير١٩٥٤
الطفل القردطهران – ايران	١٩٦١	١٤سنة	وكالة الأنباء الفرنسية ٢٨ سبتمبر١٩٦١
إيف شينو من سان بريلان	١٩٦٣	٧سنوات	وكالة الأنباء الفرنسية ٢٤ مايو ١٩٦٣

الفصل الثالث

أنواع "الإنسان المتوحش" الثلاثة والأمثلة الأكثر شهرة

تعتبر غالبية القصص المروية عن "الإنسان المتوحش" من نتاج الخيال، وسيكون محبيا إلى النفس إذا ما اعتقد القاريء بأننا مثله نستطيع تمييز الخيالي من الحقيقي. والحق أننا مذهولون من الطابع الوبائي لظاهرة العزلة: ففي ألمانيا لاقت حالتان رواجا خلال عام ١٣٤٤؛ وظهرت حالتان أخريتان في المجر عام ١٧٦٧، كما ورد ذكر مالايقل عن خمسين حالة أطفال - ذئاب في الهند من عام ١٨٤٣ إلى عام ١٨٩٥، أي خلال خمسين عاما تقريبا. زد على ذلك أنهم السنغ (لقب يمنح لكبار المحاربين الهنود من طبقة السيخ أو الراجبوتيين الأشداء) هم الذين كانوا يحظون بالعثور عليهم: لقد وجد سنغ نفسه وجها لوجه أمام إنسان- متوحش بمدينة باتزيبور بالهند، ويروي ديميزن أن سنغا آخر ذهب حتى ليبريا في إفريقيا ليؤكد صدق موهبته المشهور بها في اكتشاف الأطفال المتوحشين. واكتشف هناك الطفل المسمى أسيسيا نسبة إلى اسم هذا السنغ الهندي؛ كما عثر سنغ آخر على الفتاتين آمالا وكمالا. وتبدو المغامرة التي ترويها مدموزيل لوبلان بأنها مليئة بالتفاصيل المذهلة الشبيهة بالأساطير وبالخرافات، كما أن قصص جاسبار وكمالا و فيكتور ذاتها لم تخلوا من الحواشي الخيالية. ولكن لا شيء من هذا كله -المنتسب إلى نقد

الوقائع الذي يشغل بال المؤرخين عادة- يمكنه إعفاءنا من النظـر فـي نواة الحقيقة الواقعة التي لا ريب بأن خفة ونزق البشـر وخيالاتـهم قـد حجبتـها. وقـد سبق أن قلنـا بأنـه يوجـد العديـد مـن الألغـاز المحيطـة بالحالات التاريخية العادية إلى حد أنه ليس من حقنا أن نتوقـع مـا هـو أفضل بالنسبة للحالات الشاذة. إننا نعـرف بعـض الأسـاتذة الجـامعيين وهم من العلماء البارعين المزودين بمعارف كثيرة -فضلا عـن عـدم اعتناقـهم لنظريـة الفلسـفة الجوهريـة- لكنـهم يتجـاهلون الأطفـال- المتوحشيـن ويتذرعـون بالمسـاخر والتناقضـات الـواردة فـي بعـض النصوص لكي يسخرون منها ويهزأون بها: ومن الجلي أنه يوجد فـي مضمون هذه النصوص ما يدعـو إلـى إثـارة أعصابـهم وإلـى القهقهـة على كل شيء، وعلى آلاف الصفحات الخرقاء أو المتناقضة التي مـع ذلك تخفي في طياتـها الحقيقـة. ولننسـى هؤلاء فـي غمـرة مشروعنـا الذي يبتغي أن يكون مدخلا عاما للموضـوع وللتقريريـن العظيميـن اللذين وضعهما إيتار. ولنتوقف الآن أمام الثالوث الرمزي الموثوق بـه المشتمل على جاسـبارمن نورمـبرج (ألمانيـا)، وكمـالا مـن ميدنـابور (الهند)، و فيكتور من الأ فيرون (فرنسا).

ففي نحو الساعة الخامسة بعد ظـهر يوم ٢٦ مـايو ١٨٢٨، كـان أحد سكان مدينة نورمبرج الألمانيـة البورجوازييـن يجلـس مسـتريحا أمام باب منزله بميدان أونشليت، وإذ به يـرى أمامـه فـي ذهـول شابـا عجيب الشكل يبدو شديد اليأس والقنوط يسير مترنحا ومتعثرا. هكذا تبدأ القصة التي يرويـها أنسلم فـون فيورباـخ (رجـل القـانون ووالـد الفيلسوف الألماني المعروف لـود فيـج فيوربـاخ) فـي كتابـه المعنـون "عدوان على الحياة العقلية" والذي تجدر ترجمته. كان هذا المجهول الذي ظهر بميدان أونشليت يرتدي قبعة من اللباد المزينة بجلد أحمر - التي نرى فيها الصورة المندثرة لمدينة ميونيـخ- وكوفيـة مـن الحريـر الأسود، وسترة ناحلة اللون، وقميصا من القمـاش السميك، وبنطلونـا من النسيج الخشن، وحذاءا مرتقا ذي نعل مزود بحدوة حصان. كان

هذا الزائر العجيب الذي سنعرف اسمه حالا يحمل في جيبه منديلا صغيرا مكتوبا عليه حروف اسمه الأولى، وصلوات كاثوليكية مدونة بخط اليد وكتيبات صغيرة ومسبحة وبعض الخرز. كان يحمل في يده خطابا موجها إلى "المحترم قائد فرسان السرية الرابعة بالفرقة السادسة بنورمبرج". وقام البورجوازي المذهول بتوصيل الشخص الغريب إلى ثكنات العسكريين بالمدينة. وكان الخطاب الغامض يقول: "يمكن لهذا لصبي القيام بخدمة الملك. لقد تركته أمه عندي، ولم أتركه يغادر المنزل قط. لقد علمته القراءة والكتابة، وأحضرته إلى نورمبرج في المساء." وكانت توجد طي الخطاب بطاقة مكتوب عليها:" تم تعميد الطفل، ويسمى جاسبار، المولود يوم ٣٠ أبريل ١٨١٢. وحين يبلغ الثامنة عشر من عمره عليكم مرافقته حتى مدينة نورمبرج حيث كان والده -المتوفي- يعمل فارسا. إنني فتاة فقيرة." وقد أدخل العسكريون الصبي إلى الاصطبل، حيث نام فوق التبن. ووجدوا صعوبة في إيقاظه في الساعة الثامنة صباحا لمرافقته إلى قسم الشرطة، حيث أمسك الريشة وكتب اسمه: جاسبار هاوزر Gaspard Hauser.

وضع جاسبارفي منزل مخصص للمتشردين، حيث كان يلعب في البداية بقطعة نقود، ثم باللعب الكثيرة التي أحضرها له الفضوليون، وكانت لعبته المفضلة هي الحصان. كان عمره العقلي لا يتجاوز الثلاث سنوات في حين كان جسمه كجسم الرجال. لم يكن يعرف عمل أي شيء بيديه سوى الإمساك بالأشياء بين إبهامه وسبابته. ينام وقت الغروب ويصحو عند الفجر، ويبقى طوال النهار جالسا على الأرض ممددا ساقيه. ويقول حارسه هيتل أنه يلعب مع الصبية أحيانا. وحين يمشي يبدو دائما بأنه يسير بلا هدى، وبأن ساقيه تهتزان إذ يسقط بعد خطوة صغيرة واحدة ثم ينهض بعدها فجأة. ويظهر جاسبار نفورا حقيقيا من اللحم الذي يلفظه، ومن البيرة التي يبصقها لكن إذا ما ابتلعها فإن درجة حرارته ترتفع، ويتصبب عرقا،

كما يصاب بالصداع والغثيان، وتنتابه الآلام. وكثيرا ما يبكي ويصرخ، ويخاف من كل شيء ومن لا شيء. وحين يكون مسرورا فإنه يضحك - خاصة حين يرى خيول بيضاء اللون لأن السوداء تفزعه. وحين يكون غير مباليا بشيء يبدو بأنه قد ارتد إلى حالة بلادة حيوانية. ويتسلى جاسبار بكتابة الحروف الأبجدية والأرقام حتى العشرة، ويملأ الصفحات بتوقيعاته. وهو شبه محروم من اللغة. لا يخرج من شفتيه سوى خليط مشوش من الأصوات وبعض الجمل التي لقنت له باللغة الإقليمية مثل: "أريد أن أكون محاربا مثل أبي". ويقول أيضا : "أعرف الذهاب إلى المنزل" و "لا أعرف". ويعرف جاسبار ست كلمات من بينها كلمة "بوا" التي تشير إلى كل ما هو إنسان وكلمة "روس" التي تشير إلى كل ما هو حيوان. وقد كتب فيورباخ الذي جاء لزيارته يوم ١١يوليو يقول: "يمكن الظن بأنه مواطن جاء من كوكب آخر، وبأن معجزة قد أسقطته على الكرة الأرضية، أو بأنه ذلك الرجل الذي يتحدث عنه أفلاطون بأنه ولد وتربى تحت الأرض، ولم يعرف ضوء النهار إلا عند بلوغه سن الرشد".

وفي يوم ١٨يوليو ١٨٢٨ ترك جاسبار منزل المتشردين ومقار الشرطة ليقيم بمنزل الدكتور دومر Daumer الذي كان يظهر عطفا عليه منذ بعض الوقت. وبعد بضعة شهور اختفي عدم التناسق من على وجه جاسبار وكذلك بروز فكيه وأسنانه. إنه الآن صبي طويل القامة، أزرق العينين، أبيض البشرة، يترك انطباعا بأنه قوي البنية. لا يزال يحمل بضع علامات لجروح حديثة العهد، ولجرح آخر عميق في ذراعه الأيمن. ولا يزال أيضا يشكو من صداع شديد، كما يشرب المياه بوفرة. وظل لأسابيع طويلة يتدرب على صعود السلم. وقام دومر بتدريبه على تناول طعامه بدون لحوم: وفي شهر سبتمبر كانت قوته العضلية قد ازدادت إذ كان يستطيع أن يرفع بيديه اثنى عشر كيلوجراما . وحين كان جاسبار يقيم في بيت المتشردين كان

يقدم طعامه لخيوله المصنوعة من الخشب ومن الجبص، ويضع حولها أشرطة زخرفية من الورق يقوم بقصها. وكان يقوم في الصباح بعرض الصور التي يقتنيها ثم يضعها في صندوق خاص بعناية واهتمام وولع بالنظام والترتيب. لكنه أصبح أثناء إقامته لدى دومر يقضي وقته في الرسم ولم يعد يهتم باللعب. كانوا يشاهدونه وهو يقوم خلال أيام عديدة بمئات المحاولات لرسم صورة على الحجر شبيهة بالأصل، وقد أحرز تقدما في هذا المجال. وخلال إقامته لدى دومر تذوق جاسبار بهجة ركوب الخيل التي كانت بهجة جنونية بالنسبة له. وشيئا فشيئا أصبحت مشيته أكثر ثباتا ومشاعره أكثر وضوحا . واكتشف لدى دومر أيضا متعة النوم في فراش وثير. ومع ذلك كان يعاني من الرعب الذي يصيبه أحيانا بالشلل الرعاشي، وظل محتفظا بمخاوفه المرضية العجيبة. إذ كان يخاف اللون الأسود بصفة دائمة، بل ومن الأخضر - ولعل هذا سبب كراهيته للريف- ومن الأصفر، فيما عدا لون النقود الأصفر الذهبي اللامع. كان لا يحب جميع الروائح باستثناء رائحة الخبز واليانسون، ويمرض إذا ما رأي معدنا ممغنطا، لكن هذه الحساسية للمغناطيس تتلاشى في شهر ديسمبر. كان جاسبار مطيعا إلى أقصى حد، لا يتذمر إلا من شعوره بالحرمان من العون الإلهي: إنه يدرك بأنه ليس كالآخرين، ويسأل لماذا ليس له أبوين. كان يود ارتداء ملابس فتاة لأنه يراها أكثر جمالا. قالوا له بأنه يجب أن يكون رجلا : لكنه يدحض ذلك كلية. وقد وافق فيما بعد على فكرة زواجه، وعلى وجود رفيقة له أوكل إليها دور ربة البيت، دون أية فكرة عن الحب.

ويقول دومر أنه لم يكن في استطاعة جاسبار في البداية تقدير المسافات بصورة صحيحة، ولا الإدراك الحسي للأشياء المنظورة بمقاديرها وبأوضاعها وأبعادها النسبية. لم يكن يتحمل ضوء الشمس، لكنه يرى بسهولة أثناء الليل. لم يكن يعرف المرآة، فإذا ما وقف أمام المرآة يسعى لاكتشاف إذا ما كانت صورته ليست إلا كائنا آخر يقف

خلفها. كان يخلط في أحاديثه بين الخيال والواقع. ومع ذلك كانت حاسة السمع لديه مرهفة، بالرغم من أنه لم يكن متنبها خلال بضعة أيام لأصوات أجراس الساعة الكبيرة ولدقاتها. وخلال العرض العسكري يمكث بالقرب من ضارب الطبل، لكن الجمهور يثيره، على عكس ألعاب الفروسية التي يتابعها مبهورا من خلف النافذة. وكان يلزم تعليمه أو بالأحرى إعادة تعليمه من جديد. فمنذ الأيام الأولى لإقامته لدى دومر بدأ تعليم جاسبار الكلام. بدأ أولا في تعلم صيغة المصدر ودلالات الألفاظ، وكان يستخدم ضمير الغائب (هو) بدلا من ضمير المتكلم (أنا)، لكنه بدأ يتعلم ببطء شديد استخدام كلمة "أنا". لم يكن جاسبار يعرف صيغ النداء والمخاطبة والأمر، وكانت كلماته تعني العديد من المعاني الشاذة - فمثلا كان يعني بكلمة Berg (أي "جبل") كل ما هو مرتفع. وكانت لغته غير ملتزمة بالقواعد النحوية بمعنى أنه كان يضع الكلمات متجاورة ولا يستخدم أدوات للربط بينها. تغير ذلك كله خلال ثلاث سنوات. وفيما بين الساعة الحادية عشر والثانية عشر من صباح كل يوم كان جاسبار يأخذ درسا في المدينة في الحساب. وقد فرضت عليه المدرسة دراسة اللغة اللاتينية. وفي عام ١٨٣١ قضى جاسبار بضعة أسابيع لدى فيورباخ الذي أبدى أسفه من صورية التعليم الذي يتلقاه مثل هذا الشخص الفريد من نوعه. ومن جهة أخرى لم تدم بهجة الشاب بالتعلم. لقد أصبح جاسبار فاقدا للإرادة، متكدرا، ومتبرما . كان هدوءه ثقيلا لكنه مختلط بالعقل السليم: "من الذي صنع الشجر؟ من الذي ينير النجوم ثم يطفئها؟ ما هي نفسي؟ هل يمكنني رؤيتها؟ لماذا لا يستجيب لنا الله دائما ؟"

من هو جاسبار؟ من أين جاء؟ إن ذاكرته لا تعي شيئا هاما . كان ينظر إلى ماضيه في قنوط، وفي النهاية تمكن من التذكر: كان لديه انطباع بأنه "جاء إلى هذا العالم" و"اكتشف البشر" في مدينة نورمبرج؛ وبأنه كان يعيش من قبل في "جحر" مع حصانين من

الخشب ويتغذى على الخبز والماء. ويذكر بأنه في أحد الأيام استغرق في نومه في جحره بعد تناوله مشروبا (من الأفيون الذي عرف رائحته بمنزل دومر). وكان يحضر له زاده اليومي في جحره "رجل" لم ير وجهه قط. إنه يسمي الآن هذا الكائن الذي يحتفظ بذكراه: "الرجل". وبعدها بدأ سكان المدينة يتهامسون بأن جاسبار سوف يكشف عن سره في القريب. وكانت هذه الثرثرة سببا في القضاء عليه وفي إنهاء حياته.

يبدو أن "الرجل" قد عاد مرة أخرى يوم ١٧ أكتوبر عام ١٨٢٩. كان جاسبار مريضا ويستريح في المنزل حيث كانت تقيم حماة دومر وشقيقته كاثرينا. وعند الظهر لاحظت كاثرينا وجود آثار دماء على السلم ثم في ملحقات المنزل. كان جاسبارمفقودا . وتم العثور عليه شبه ميت في قبو المنزل. كان لا يردد سوى كلمة واحدة هي "الرجل". كان مصابا في جبهته وظل في غيبوبة ويهذي لمدة ٤٨ ساعة، ولم يشف إلا بعد ٢٢ يوما . ويبدو أن الرجل قد شوهد في المدينة، والمرجح أنهم عرفوا شخصيته، ويقول فيورباخ: "لا استطيع إفشاء كل ما أعرفه تنفيذا لأوامر العدالة." وفي أحد أيام عام ١٨٣٣ تم الاعتداء مرة أخرى على جاسباروطعنه بخنجر في منتزه أنسباخ وتوفي في اليوم بعد التالي. كان في الثانية والعشرين من عمره، مقيما من جديد لدى أن سلم فون فيورباخ. وفي نفس المكان الذي طعن فيه جاسبار أقيم نصب تذكاري نقشت عليه العبارة التالية: "هنا قتل مجهول بواسطة مجهول." إن هذه العبارة شبه كاذبة، فالواقع أنه قد عرفت فيما بعد حقيقة قصة جاسبار المرجحة. إنه ابن مزعوم لستيفاني دي بوهارنيه- Stéphanie de Beauharnais إبنة شقيق جوزفين (الإمبراطورة وزوجة نا بليون بونا برت)- وكان نا بليون قد أصدر أمرا بتزويجها للأمير شارل دي باد .Charles de Bade وتم خطف الطفل المولود من ستيفاني وشارل حتى يرث العرش ابن من زواج مع إمرأة من عامة الشعب. وقد أودع الطفل لدى أحد حراس

الصيد الذين يعملون لدي البارون جريزنبرج Griesenberg ويدعى: فرانز ريختر - Franz Richter - والذي يسميه جاسبار "الرجل"- وكان القاتل الذي طعن جاسبار في الحديقة يدعى جاكوب موللر Jacob Muller وقد ألقى إدموند با بست Edmond Bapst فيما بعد بعض الأضواء على ما ظل خلال أمد طويل خفيا في هذا الشأن.

ومن بين قصص حالات العزلة يرمز جاسبار هاوزر إلى الطفل الذي لم يحرم تماما من وجود الغير، ومع ذلك فقد عاش بعيدا عن الناس وسط صمت وظلام سجنه المحفور في الأرض. أما بالنسبة إلى الفرد الذي لايجد من حوله ومنذ نعومة أظفاره سوى رفقة الحيوان وحده فإن حالته مختلفة تماما . وقد كشف أرنولد جيزيل Arnold Gesell في مؤلفه "الطفل الذئب والطفل الإنساني" مأساة الصبيتين آمالا وكمالا المذهلة نقلا عن قصتهما الأصلية والمعتبرة اليوم من أشهر حالات تحول الإنسان إلى حيوان. ففي ٩ أكتوبر عام ١٩٢٠ بينما كان القس سنغ في رحلة تبشيرية بقرية جودامورى (الهندية)، علم من الفلاحين بأنه توجد في الغابة "عجائب بشرية". وعند الغروب رافق سنغ بعض الفلاحين إلى الموقع الذي أشاروا إليه حيث مكث متواريا إلى أن شهد ثلاثة ذئاب كبيرة وذئبين صغيرين، يخرجون من الكهف وبصحبتهم مسخان شاذا الخلقة يسيران على أربع ويكسو وجههما نوع من عفرة الأسد. كانت الطفلة المتوحشة الثانية تبدو أصغر بكثير من الطفلة الأولى، وكانتا عند خروجهما من الكهف تتصرفان تماما كالذئاب: فقد أخرجتا رأسيهما أولا ونظرتا إلى هذا الجانب وذاك، ثم في النهاية قررتا الوثب. وأراد أحد مرافقي سنغ إطلاق النار لكنه منعه، وبسبب الرعب الذي أصاب غالبية مرشديه، عاد مرة أخرى إلى مسافة سبعة أميال لجمع بعض المتطوعين الأقل حذرا . وفي يوم ١٧ أكتوبر عاد مرة أخرى إلى الموقع ذاته مع جماعة صغيرة حيث شهد ذئبين من الذئاب الطاعنة في السن يهربان. ووقف الثالث والأخير وكانت أنثى تدافع عن مدخل العرين ولكنها

سقطت بعد أن اخترقت جسدها سهام عديدة. وفي أعماق العرين المحفور كان يكمن ذئبان صغيران وطفلتان صغيرتان وقد التصقوا بعضهم ببعض. ثم تكدر الذئبان واتخذا موقف الدفاع عن أنفسهما، في حين اتخذت الطفلتان موقفا أكثر وعيدا وأكثر عدوانية. تم أسر الطفلتين-الذئبتين وتركهما سنغ مع بعض الفلاحين بسبب سفره لمدة أسبوع. وبعد رحيله أصيب الأهالي بالذعر وفروا هاربين. وحين عاد القسيس وجد الصبيتين وحيدتين في داخل الأرض المسورة التي وضعتا فيها وقد أصيبتا بالهزال والإنهاك من شدة الجوع والعطش. تم إجبار الصبيتين على شرب اللبن وإحاطتهما بالرعاية الطبية لبضعة أيام ثم وضعتا فوق عربة يجرها ثور وأخذتا إلى ملجأ الأيتام بمدينة ميدنابور الذي يديره سنغ والذي عاد إليه يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٠.

ومن الآن فصاعدا أطلق على الطفلة الأصغر سنا اسم آمالا، وعلى الأكبر اسم كمالا. وكانتا عريضتي الأكتاف، طويلتي الأذرع، كما كان العمود الفقري لكل منهما مستقيما . كان جلدهما سميكا وخشنا في الكفين والكوعين وحول الركبتين. وكانت كل منهما تترك لسانها متدليا خارج شفتين غليظتين قرمزيتي اللون وكأنها تلهث، وتفتح أحيانا فكيها بصورة مفرطة. كانت كلتاهما تخشيان الضوء ولا تبصران جيدا إلا أثناء الليل، تقضيان اليوم كله متبلدتين في الظل أو تظلان بلا حركة في مواجهة الحائط، وتتخلصان من خمولهما أثناء الليل فتعويان بين وقت وآخر، وتتأوهان طوال الوقت لرغبتهما في الهروب. كانت آمالا - البالغة عام ونصف فقط من عمرها- وكمالا-البالغة الثامنة والنصف من عمرها- تنامان قليلا للغاية: كانتا تنامان أربع ساعات فقط خلال الأربع وعشرين ساعة، وتسيران بطريقتين: الأولى بالارتكاز على الكوعين وعلى الركبتين وذلك للسير ببطء لقطع المسافات الصغيرة، والثانية بالسير على اليدين والقدمين لقطع المسافات الطويلة وللجري سريعا . وتقومان بشرب

السوائل عن طريق لعقها، كما تتناولن طعامهن وهن جالستان القرفصاء منكفئتا الوجه. كانت الصبيتان تتذوقان أكل اللحوم وبارعتان في صيد الدجاج والنبش عما في جوف الأرض من رمم وأحشاء. إنهما لا تكترثان بالأطفال، تنفران من المجتمع، متيقظتان قليلا تجاه صغار الكلاب القطط، لكنهما عدوانيتان بخاصة تجاه زوجة سنغ وتتخذان حالة التأهب واليقظة حين يتم الاقتراب منهما، كما تعبران عن عدوانيتهما بحركة رأس سريعة من الأمام إلى الخلف.

وفي يوم ٢١ سبتمبر ١٩٢١ توفيت آمالا بعد معاناتها لمدة ثلاثة أسابيع من إلتهاب في الكلية واستسقاء عام، ومن العجيب أن كمالا ماتت أيضا بنفس المرض يوم ١٤ نوفمبر ١٩٢٩. وروى القس سنغ والدكتور سرباديكاري مسيرة كمالا النفسية طوال الثماني سنوات التي قضتها في ملجأ الأيتام بمدينة ميدنا بور. وفي يوميات سنغ نقرأ ما يلي: تتحول حركية كمالا الجسمانية ببطء شديد إلى حركية إنسانية. فبعد عشرة شهور من إقامتها كانت تمد يدها لتطلب الطعام، وبعد ستة عشر شهرا أي في فبراير ١٩٢٢ كانت تنتصب فوق الركبتين؛ وفي مارس كانت تسير بهذه الطريقة؛ وفي مايو كانت تقف على قدميها وهي مستندة إلى المقعد؛ وبعد مضي عام كانت تقف معتمدة على ذاتها؛ وفي يناير ١٩٢٦ كانت تسير على قدميها، وخلال العامين الأخيرين برهنت على أن مشيتها الأولية على الركبتين لم تكن إلا نتيجة لعدم تدريبها (بالرغم من احتفاظها بطريقة الذئاب أثناء الجري). كان سلوك كمالا يزداد مروضا وتنوعا عاما بعد آخر. إن سلوكا مماثلا للنشوة الحركية المنطوية على الاستمرار خلال ساعات طويلة في شد حبل مروحة السقف اختفى لتحل محله أفعال منسجمة مع الحياة الاجتماعية مثل: الإمساك بكوب ماء واستخدامه لشرب السوائل، مطاردة الغربان التي تلتهم الحبوب في فناء الدواجن، التآلف مع عادات الاغتسال والاستحمام في حضور آل

سنغ، والإشراف على الأطفال الرضعاء في الملجأ (كانت كمالا تميز الأطفال الذين يبكون أو يتكدرون)، جمع البيض من خم الدجاج والطيور، والقيام بالعديد من المهام البسيطة.

وفي وقت متزامن تغيرت طباع كمالا. تسببت وفاة آمالا في إصابتها بالبدء في الارتداد إلى حالتها الأولى: ولأول مرة في حياتها ذرفت الدمع، ورفضت تناول أي طعام أو شراب لمدة يومين، وظلت خلال ستة أيام كامنة في أحد الأركان، كانت خلال الأيام الستة التالية تتلمس أية رائحة قد تكون رفيقتها قد تركتها. وفي الفصل الثالث من "دراستها" بالملجأ أصبحت أكثر ثقة بالنفس، وكانت تقبل قطعة البسكويت التي تعطيها لها زوجة القس سنغ، كما كانت تقترب منها حين تراها توزع اللبن. وكانت مسز سنغ تقوم - على غرار ما فعله الدكتور إيتار وإن كان بغير عمد- بتدليك عضلات ومفاصل الطفلة كمالا بقصد تليينها. وفي أحد أيام شهر نوفمبر عام ١٩٢١ أمسكت كمالا بيد راعيتها وطلبت منها القيام بتدليكها. وفي الشهر التالي اقتربت من جديين وجلست بالقرب منهما ثم احتضنتهما، والغريب أنها أخذت تتحدث إليهما. وبعد ثلاث سنوات من إقامتها بالملجأ بدأت تخاف من الظلام، إذ كانت تقترب من الآخرين في الليل، كما كانت تفتقد زوجة القس عندما تغيب، إذ تهيم على وجهها في الحديقة وتصبح في حالة تدعو للرثاء، وعندما تعود تقفز من الفرح وتسرع للقائها. وبعد مرور خمس سنوات تهذبت حاسة تذوق الطعام كما ترقى الوجدان العام. أصبحت كمالا تحب الملح، وفي عام ١٩٢٦ كانت ترفض أكل رمم الحيوان وتتفادى الكلاب وتبكي حين يذهب الأطفال الآخرون إلى السوق بدونها، كما كانت تفقد الصبر حين تنتظر طويلا لدورها في التأرجح. كانت تتأثر أيضا بالمجاملات، ويظهر عليها الحياء حينما ترفض مغادرة عنبر النوم قبل إرتداء ثوبها.

وفي بطء تحرر ذكاء كمالا أيضا من الضباب الذي يغلفه. كانت في البداية لا تعرف سوى كلمتين هما "ما" بدلا من "ماما" حين كانت تشير إلى زوجة القسيس، وكلمة "بو" لكي تعبر عن الجوع أو العطش. وفي عام ١٩٢٣ كانت تقول "لا" بإيماءة برأسها وتنطق كلمة " هو" أي "نعم". وفي عام ١٩٢٤ طلبت الأرز وعينته بالاسم، كما أنها قامت بأول عامل إرادي وباختيارها الحر إذ قالت: "آم جاب" أي "أنا أريد". في عام ١٩٢٦ كانت كمالا تتعرف على متعلقاتها الشخصية - الطبق والكوب- وتمتلك ذخيرة لفظية تشتمل على حوالي ثلاثين كلمة وتصلح لمحادثة قصيرة. كانت تفهم جيدا التعليمات الشفوية الصادرة إليها، وحين تعوزها الكلمات تلجأ إلى الإشارات. وعند نهاية حياتها في نوفمبر ١٩٢٩ كانت تمتلك ذخيرة لفظية تشتمل على خمسين كلمة ووصلت إلى الحديث باستفاضة مع الأطباء الذين يعالجونها فضلا عن معرفتها الجيدة لأسمائهم. ويمكننا الانضمام إلى بول سيفادون Paul Savidon في قوله الحق بأنه لم يكن يوجد ما يشير إلى أنها معتوهة بالمولد، بل العكس هو الصحيح إذ أنه بمقارنة مستواها العقلي في سن ٨ سنوات بمستواه فيما بعد، يظهر لنا بوضوح أنه لا يعود إلى حالتها التعسة، بل إلى فقدانها لأسرة منذ طفولتها المبكرة. وقد ذكرنا سافيدون في مجال حديثه عن "قصة كمالا" بأنه "لا يمكننا فصل المشاكل العضوية عن المشاكل الجسمانية". ثم أدلى بالاستنتاج التالي: "يتميز الإنسان على الحيوان بحقيقة أنه يولد مبتسرا . إن شخصيته تتكون بعد مولده بواسطة مجموعة من "الأرحام" الثقافية التي لا تقل أهمية بالنسبة لنموه عن رحم الأم. إن علاقاته العاطفية التي يكونها مع أمه خلال السنتين الأوليتين هي التي تحدد مجمل حياته الوجدانية. إن التدرب على اللغة في الوقت المطلوب هو الذي يحدد مجمل حياة الإنسان الذهنية. وهذا يعني أن الطفل الذي يولد طبيعيا يمكن أن يصبح من الناحية العملية معتوها إذا ما كانت ظروف تعليمه غير مواتية.

ويعتبر هذا المفهوم أمرا جوهريا : فالشخصية تنمو في النطـاق الـذي تقوم فيه البيئة -بقيمتـها التربويـة التعليميـة- بمنـح الطفـل المسـاهمات الثقافية المناسبة في الوقت المناسب." هكـذا ينضـم سيفادون الطبيـب النفسـي إلـى ميرلو- بونتـي Merleau-Ponty عـالم النفس والفيلسـوف الوجودي.

لقد عاشت آمالا وكمالا في عزلة تامة بين الذئاب لا تقل عن عزلة جاسبار. وفـي المقـابل يبـدو أن العزلـة الأكـثر اكتمـالا والأكـثر كليـة كانت من نصيب فيكتور. ففي عام ١٧٩٧ كانوا يشـاهدون فـي إقليـم "لوتارن" Le Tarn (في جنوب فرنسا) وفي غابات "لاكون" Lacaune تحديدا طفلا مستمتعا بحرية غير مألوفة وكـان يـهرب عندمـا يـراه أحد النـاس. وقد تم أسره أول مرة في موضع يسمونه "لا باسين" La Bassine، لكنه نجح في الهروب وفـي الـهيام علـى وجهـه لمـدة خمسـة عشر شهرا. وفي منتصف يوليو ١٧٩٨ شاهده صيادون فـوق شجـرة وأمسكوا به مرة أخرى وأودعوه لـدى أرملـة تعيش فـي أقـرب قريـة لتحرسه بلا مقابل. ظل حبيسا لمدة أسبوع ثم تمكن مـن الـهرب مـرة أخرى وظل هائمـا فـي الغابـة شـهورا عديـدة وذلـك وفقـا لتقريـر دو جيرو de Guiraud وكيل النائب العام. وفي الساعة السابعة صبـاح يـوم ٩ يناير عام ١٨٠٠ ضل فيكتور طريقه ووقـع فـي الأسـر علـى بعـد ثمانمائة متر من حديقة شخص يدعى فيدال يعمـل صبـاغ ثيـاب فـي قرية سان- سيرنـان- سورانس بإقليم الأ فيرون. وفـي يـوم ١٠ ينـاير وضـع فيكتور في ملجأ سانت - أفريق ثم نقل إلي ملجأ بمدينة روديز يوم ٤ فبراير، حيث تم فحصه لأول مرة مـن جـانب عـالم الطبيعيـات بونـاتير Bonnaterre الذي كتب عن: طوله البالـغ ١٣٦ سم، والجلبة التـي يحدثها أثناء تناوله للطعام، وفـورات غضبـه المفاجئـة، وتعلقـه بلـهب النيران، ونومه المنتظم مع شـروق الشمـس وغروبـها، وجـهوده مـن أجل استعادته لحريته، وانعدام وعيه بانعكـاس الصـورة فـي المـرآة - فقد كان ينظر فيمـا وراء المـرآة لرؤيـة الشخـص الـذي يفـترض بأنـه

مختبيء خلفها. وقد اهتمت الصحف بنشر أنباء مختلفة عن فيكتور. أبدى أحد الوزراء اهتمامه بالموضوع : وأصدر تعليماته بإحضار فيكتور إلى باريس بقصد دراسة حالته. وقام بينل Pinel (فيليب بينل ١٧٤٥-١٨٢٦) أكثر علماء النفس شهرة في ذلك الحين بوضع تقرير عنه لم يعتبره فيه فردا محروما من القدرات الذهنية بسبب حياته الشاذة، لكنه مصاب ببلاهة أصلية (آي في تكوينه الذاتي) مثله كمثل جميع أولئك البلهاء الأصليين الذين شهدهم في ملجأ بيستر. وكان إيتار قد تم تعيينه رئيسا للأطباء في معهد الصم والبكم بشارع سان-جاك وكان قارئا كبيرا للوك Locke (الفيلسوف الانجليزي ١٦٣٢-١٧٠٤) ولكونديلاك Condillac (الفيلسوف الفرنسي ١٧١٥- ١٧٨٠)، ويعتقد بأن الإنسان لا يتكون بالفطرة، لكنه يتشكل بعد الولادة. وسمح إيتار لنفسه بالاختلاف مع رأي بينل إذ قرر بأن فيكتور مصابا حقا بالبلاهة، لكنه يحتفظ بحقه في ألا يرى بأن هذه البلاهة تعود إلى عجز بيولوجي بل إلى قصور ثقافي. وأعرب إيتار عن أمله في إيقاظ عقل الطفل - دون أن يأخذ في اعتباره تعذر إلغاء ما سبق حدوثه لفيكتور- لإفحام معارضيه. وقد منح إيتار الفرصة لإقامة البراهين وتم إيداع "المتوحش" بين يديه.

وحين وصل طفل الأ فيرون إلى شارع سان- جاك بباريس كان وجهه مكسوا بالحركات العصبية، يهرس عينيه بيديه، ويكز على أسنانه، ويهتز جسمه بسبب الاختلاجات، ويسعى بلا توقف نحو الهرب. كان ينتقل من حالة الفوران الحركي إلى حالة الوهن الكامل، يثيره الجليد فيتمرغ فوقه، ثم يهدأ حين ينظر من شاطيء البركة إلى مياهها الهادئة ويستغرق في أحلام مبهجة، وفي المساء يقف أيضا مسمرا في موضعه ناظرا بإعجاب إلى ضوء القمر الساطع. ولأنه كان عاجزا عن تقليد الأطفال فلم يكن يكترث بألعابهم، إذ كان يستغرق في إشعال النيران في الأوتاد الخشبية الخاصة بلعبة البولينج التي كانوا يقدمونها له كهدايا. كان العمل الوحيد - الذي تعلمه في

روديز أو في حياته في الغابات- يقتصر على تقشير بضعة قرون من الفاصوليا وانتزاع حباتها.

وبالرغم من بلوغ فيكتور سن المراهقة إلا أن طبيبه كان مندهشا لانعدام الشهوة الانتقائية لديه تجاه أشخاص من الجنس الآخر. وتعجب طبيبه أيضا بسبب سمات عديدة أخرى مثل : فقدانه للإحساس بالألم إذ كثيرا ما كان يمسك بيده جمرات ملتهبة بالرغم من رقة جلده المتناهية؛ وعدم إحساسه بالدخان حتى وإن كان موجودا داخل منخاره؛ وعدم مبالاته بطلقات المسدس التي تطلق بلا بارود على ظهره، في حين أنه ينظر إلى الوراء حيث يتم كسر بندقة. كان ينفر من النوم في سرير، بينما يظهر برود أعصاب تحت انهمار الأمطار الباردة، ورباطة جأش أمام النتانة والروائح العفنة، ويشمئز من الحلويات والتوابل والكحوليات والنبيذ، فقد كان نباتيا يتغذى على ثمار البلوط وجذور النبات والكستناء النيء. وفي الإجمال كان يبدي اشمئزازا من جميع علامات المدنية إلى جانب اندفاعه نحو الطبيعة الخام، وتجاه مياه الأمطار النقية التي يتلذذ بها وتجاه العواصف المصحوبة بالغيوم المنذرة بسقوط هذه الأمطار.

وكان انتباه فيكتور مشتتا ومذبذبا ومهموما ونظراته تجول حول كل شيء ولا شيء. كان بصره لا يميز بين الأشياء الأصلية وصورها؛ وسمعه لا يبالي بالصوت الإنساني ولا بالفرقعة الموسيقية - فيما عدا صوت تقشير أبو فروة. وتقتصر حاسة الشم لديه على تشمم كل ما يعترض طريقه من فروع أو أوراق شجر أو أحجار أو تراب أو لحوم. كان فيكتور أكثر عجزا من الشمبانزي لا يعرف كيف يفتح الباب ولا الصعود فوق قواعد مرتفعة للوصول إلى فريسة بعيدة المنال. وكان مثل الحيوان محروما من اللغة، ولا يصدر من حنجرته إلا صوتا وحيدا خشنا . كان وجه فيكتور يتماثل مع وجه إنسان شديد التخلف إذ ينتقل من حالة البلادة الكئيبة إلى الضحك غير

اللائق. وقد ثابر إيتار خلال الأعوام التالية من أجل إحداث بضعة تحولات لدى فيكتور.

وفي عام ١٨٠١ كتب الدكتور إيتار مذكرة روى فيها السلوكيات المتوحشة التي تخلى عنها فيكتور بعد مضي عام واحد، كما دون في عام ١٨٠٦ مذكرة أخرى روى فيها السلوكيات المتوحشة التي فقدها بعد مضي ست سنوات. ونقرأ في تقريره المدون عام ١٨٠١ أنه منذ الآن فصاعدا أصبح فيكتور يرتدى ملابسه بلا مساعدة من أحد، ويتفادى تلويث فراشه، ويرتب أدوات الطعام فوق المائدة ، ويقدم طبقه ليضعون له طعامه، ويملأ كوب الماء ، ويرفض استقبال الزوار غير المرغوب فيهم ثم يدلهم على طريق الخروج، ويدعو الفضوليين السذج لكي يجرون عربة اليد الصغيرة ذات العجلتين التي يركبها، ويحضر المشط لطبيبه حين يكون شعر الطبيب في حاجة للتصفيف، ويحضر في الصباح حقيبة أدوات الزينة لمربيته. ويقول الدكتور إيتار أنه في نهاية عام واحد ازدادت حساسية فيكتور ونمت انفعالاته الوجدانية. لقد أصبح الطفل يميز درجات الحرارة بسبب استحمامه بالمياه الساخنة والباردة، كما أن انفتح على فكرة الراحة والهناء. وأصبح من بعد لا يحب سوى البطاطس المطبوخة جيدا . وأصبحت جيوبه الأنفية حساسة للالتهابات وأفرزت أنفه مخاطا لأول مرة. وقد تكشف بأنه يستمتع ببعض المباهج الصغيرة: فهو يبتهج بسقوط خيط رفيع من الماء فوق يده، وبالطبق الذي يعوم فوق حوض مياه، وبشعاع الضوء الذي يتراقص على السقف. في كل مرة يرى فيها مشهد الريف كانت تنتابه الرغبة في الهرب، بالرغم من إظهاره لمشاعر الصداقة لمربيته مدام جويران وللسيد لوميري المشرف على حديقة بيت الرعاية وللدكتور إيتار- وذلك باستثناء الحالات التي يطيل فيها الدكتور إيتار وقت "الدروس" الأمر الذي يؤدي إلى إثارة غضب فيكتور. ذلك لأن اهتمامات الطفل المتوحش الثقافية ظلت محدودة. ومع ذلك فقد نمى انتباه فيكتور الارادي:

كانت عيناه تتابع حركة أي جسم يتنقل بسرعة ويختفي في مخابيء متنوعة. ومع ذلك ظل فيكتور غير مبال في البداية لجميع الأصوات التي ينطقها الإنسان فيما عدا حرف العلة O الذي يجعله يلتفت إلى الوراء مما جعل الدكتور إيتار يسميه "Victor" . وقد تمكن شيئا فشيئا من نطق جميع حروف العلة فيمت عدا حرف U وثلاثة حروف ساكنة من بينها حرف L الذي سيستخدمه لتكوين أول كلمة يحفظها وهي كلمة: "لبن"، التي كان ينطقها في البداية حين يجد اللبن أمامه مثلما نطلق صيحة لا للمطالبة بشيء لكن حينما نراه أمامنا.

وقد قرر الطبيب أن يناضل من أجل تحسين لغة تلميذه. بدأ في إعداد العديد من ألعاب "البنجو" حيث يمكن لفيكتور أن يضع في خاناتها بعض الأشياء شائعة الاستعمال وأشكال هندسية متنوعة ومتنقلة ثم مجموع الحروف الأبجدية. وبدأ المعلم بصبر وأناة يعلم الطفل كيف يتعرف أولا على كلمة "لبن" بتعيين الحروف الأبجدية المناظرة لها بل وبالإشارة إليها من بين الكلمات المكتوبة على قطعة الكرتون وذلك حتى يمكنه شرب كوب من اللبن الذي يحبه كثيرا.

وفي عام ١٨٠٦ يسجل إيتار في تقريره الثاني أن فيكتور حقق تقدما جديدا . لقد مضت ست سنوات ولا زال نشاطه محدودا . وفي أحد الأيام تمخض إلهام مبدع عن قيامه بصنع حامل أقلام من قضيب صغير مفرغ نجده في المطابخ: كان هذا هو اختراعه الكبير. وكان ينشغل في غالبية الأوقات في أعمال صغيرة سهلة ومملة، فيقوم مثلا بتقطيع الخشب بالمنشار ويظهر فرحا شديدا حين تنفصم قرمة خشب وتقع على بلاط الفناء. يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر بسعادة كبيرة حين يقدم خدمة للآخرين، وحين يقوم بنوع خاص بترتيب المائدة بعناية فائقة، وقد تسببت هذه العناية في تعرضه لحادث أليم يوم وفاة زوج مربيته السيدة جويران. إذ قام كعادته بوضع طبق المرحوم على المائدة مما جعل مربيته تنخرط في بكاء شديد. ظهرت

على فيكتور علامات الإضطراب والخجل ، وقام بإصلاح خطائه ولم يكرره مرة أخرى. وروى الدكتور إيتار مغامرة تنشئة فيكتور الطويلة والمثيرة، كما ذكر التغيرات العميقة التي استجدت في مواقفه العاطفية. صحيح أن الطفل ظل بعد مضي ثلاث سنوات على إيوائه في شارع سان جاك يحتفظ برغبته في التشرد وفي الإقامة في أعلى الشجر: وفي أثناء اجتماع عقد في "كليشي لا جارين" Clichy-la-Garenne حضرته مدام دي ستايل Mme de Staël (روائية وشاعرة فرنسية شهيرة ١٧٦٦-١٨١٧) وشخصيات أخرى هامة قام فيكتور باستعراض مهاراته في التسلق. وحين يأخذه الطبيب إيتار لتناول العشاء في المدينة فإنه يجد مشقة في منعه من الجري ولهذا يأخذه دائما داخل عربة تجرها الجياد. وفي كل مرة يمنعونه من النزهة كان يتألم ويعاني بشدة ويحاول ترك الدار. وقد نجح في الهروب بين وقت وآخر وكان يذهب إلى جنوب " منطقة دانفر "، أو إلى الشمال في غابات سينليس Senlis لكنه يشعر بعدها بالندم. وحينما رأى مدام جويران بعد عودته وحبسه لمدة أسبوعين سقط مغشيا عليه بسبب اختلاط مشاعر الفرح بالخجل. وفي الوقت الذي كان يبدي فيه رغبته في إرضاء المحيطين به كان أيضا يهتم بالفهم وبالمعرفة: كان يضحك حين يهنئه إيتار ويحزن حين يؤنبه - كان يتأثر بالعقوبة المعنوية أكثر من العقوبة البدنية، ويخضع شاعرا بالندم حين يعتقد بأنه مستحق للعقاب، لكنه يثور حين "يقومون بتجربة" عقابه تعسفيا. وكانت صحوة الوظائف الفكرية لدى الطفل المتوحش غريبة حقا وقد نتجت عن أسلوب إيتار التعليمي. فبالرغم من طيبة هذا المعلم الكبير إلا أنه لم يكن يتردد أحيانا في اللجوء إلى بعض الأساليب القمعية. لقد لاحظ أن فيكتور قد أصيب في إحدى المرات برعب شديد حين انحنى فوق حاجز الشرفة، ولهذا فإنه حين أراد معاقبته في أحد الأيام أمسك بتلميذه -الذي قاوم بشدة- من وسط جسمه وأخرجه من نافذة بالدور الرابع ليجعله معلقا في الهواء. وبعد إنزاله بدقيقتين قام بترتيب

لوازمه الدراسية، بينما كان وجهه ممتقعا ، وانهمرت الدموع من عينيه لأول مرة. ويعتبر إيتار المؤمن بفلسفة دي كوندياك (فيلسوف فرنسي ١٧١٥-١٧٨٠) أن الأمر الأساسي هو تدريب الحواس. وتعلم فيكتور كيف يستخدم أطراف أصابعه للتمييز بين أبو فروة والبندق والحصى الموضوعين داخل حقيبة، وذلك باستخدام حروف الكلمات المنفصلة. وكذلك توصل إلى التفرقة بين صوت الجرس وصوت الطبل ، وبين الدوي الذي تحدثه العصا فوق الخشب وبين دويها فوق الحديد، وذلك باستخدام الحروف المنطوقة. وبدءا من نهاية العام الأول تعلم فيكتور قراءة بعض الأشكال الخطية وعرف كيف يستخدمها ويستفيد منها. وتمكن الدكتور إيتار من أن يجعل تلميذه يسمي الكلمات المدونة على اللوحة، وأن يحرك س بابته فوق انحناءات الكلمات، وأن يجبره على نطقها، وقد حصل منه على نتائج لا بأس بها. كان إيتار يكتب الأسماء أمام الأشياء المناظرة ثم يمحيها فجأة ويطلب من تلميذه أن يتذكرها ويكتبها. لقد ظل وعي فيكتور لأمد طويل يعاني من المشكلة المحيرة الخاصة بإدراك مفاهيم ومدلول الكلمات. فقد بقيت كلمة "كتاب" لا تعني له سوى الكتاب الموجود في غرفة نوم الدكتور إيتار أي تعني كتابا واحدا ملموسا ومحددا . وبعد مضي بعض الوقت أصبح مثل صغار الأطفال يرتكب الخطأ العكسي، أي أنه يمنح نفس الإسم لأشياء متشابهة (مثل الجريدة والدفتر والمفكرة). وقد أوصلته تمرينات عديدة على أوجه التشابه والاختلاف إلى توازن نسبي وإلى استخدام الكلمات استخداما صحيحا. وحرص إيتار على أن يتعلم فيكتور كيف يتعامل بالبطاقات لا لتحديد الألفاظ التي تعين الأشياء وحسب بل ولتحديد تلك التي تشير إلى الأفعال بل وإلى الأوصاف أيضا . واشتملت الطريقة التعليمية كذلك على أن تجعل الطفل يتصرف بنفسه. لقد ظل فيكتور أبكما لكنه تعلم شيئا فشيئا الكتابة. وبعد مضي بضعة شهور لم يعد أبلها ، إذ

أصبح يدرك معاني الكلمات، ويستطيع استخدام الكتابة للإشارة إلى أهم رغباته وأمنياته.

وفي يوم ٣ مايو ١٨٠٣ وصل خطاب صادر من وزارة الداخلية إلى إدارة الصم -البكم لإبلاغها بأن الوزارة ستستمر في دفع المبلغ المخصص للسيدة جويران - ١٥٠ فرنكا سنويا - كمقابل للمجهود الشاق الذي تبذله في العناية بطفل الأفيرون المتوحش. كان فيكتور قد بلغ الثامنة عشر من عمره، والواقع أن الدكتور إيتار قد عهد بحضانة "الشاب" إلى السيدة التي تولت الاهتمام به منذ وصوله إلى باريس. وعاش فيكتور في ملحق بمبنى المؤسسة الكائنة بحارة فوياتين رقم ٤، وتوفي هناك أيضا بعد بلوغه الأربعين من عمره. وإننا لا نعيد فتح قضية الأطفال المتوحشين بمناسبة الحديث عن يكتور. فقد سبق أن قلنا رأينا بهذا الشأن. وإننا نكتفي بالنسبة لهذه القصة بالتذكرة بالمعارضة التي واجهها إيتار من جانب أولئك الذين كانوا منحازين لأفكار عصر ساده الفكر "الجوهري" (القائل بأن الجوهر أو الماهية يسبق الوجود)، ومن جانب أولئك الذين كانوا يعبرون عن مفاهيم عهد كانت فيه "الفطنة" النفسية تلعب بالنسبة لعلوم الإنسان الراهنة نفس الدور الذي لعبته الكيمياء القديمة تجاه علوم الطبيعة الراهنة. ففي القرن التاسع عشر كانت تسود فكرة أن طفل الإنسان يولد مسلحا بالطبيعة من أجل خوض الحياة باستثناء حالات التدهور البيولوجي. ولما كانت قوى متوحش الأفيرون العقلية ضعيفة، وبسبب التقدم الضئيل الذي أحرزه فقد اعتقد بوسكويه Bousquet بأنه قد تمكن من الانتصار إذ قال: "إذا كان لم يعوز فيكتور حقيقة سوى مفعول القدوة لكي يحطم الأغلال التي تقيد عقله، فمن الواضح أنه لم يوجد ما يمنعه من الانطلاق والازدهار حينما تنسم هواء المدنية". في الواقع أنه لم يكن يوجد سوى استحالة عودة فيكتور إلى سن السادسة مرة أخرى، وتعذر شفائه من الشيخوخة الذهنية التي أصابته، وصعوبة محو الرضوض النفسية التي أصابته

بسبب عزلته الطويلة والمؤلمة. كان بوسكيه يتحدث وكأن الماضي أمرا لا يعتد به، وكأن الطابع القديم للوظائف النفسية لا يلعب أي دور في حياة المراهقة والرشد، وكأنه يمكن للك ساح العقلي الزوال بفضل التأثير السحري للكلمة أو للنظرة. ولا يمكننا هنا مقاومة التفكير في "العنصرية" أو في "اليمينية" اللتين تتقبلان في البداية اختلاف الظروف لكنهما تحاولان بخبث تبريره بالعواقب المترتبة عليه. فقد استخدم إسكيرول Esquirol (طبيب عقلي فرنسي ١٧٧٢-١٨٤٠) المعاصر لإيتار مثله في ذلك مثل بوسكيه نفس المغالطات واعتبر طفل الأفيرون "أبلها هاربا أو تخلى عنه والدان قاسيان". وبعدها انهمرت الحماقات المنافية للعقل التي اضطلع بها كل من دولاسيوف Delasiauve وبورنفيل Bourneville . كان الأول ساذجا إلى حد أنه كتب بأنه " كان يجب أن يكون الطفل المتوحش مثلما كان عليه بسبب طبيعته"، أما الثاني فإنه لم يطعن صراحة في القرار السامي الذي أصدره الأول. ومع ذلك فإن كلا منهما يعترف بعد فحص مشروع إيتار التعليمي أنه كان من الممكن أن يحقق نتائج أفضل لو أنه اهتم "بالدروس العملية" أكثر من اهتمامه "بدروس متناثرة ومجردة"، وكذلك لو أنه لجأ إلى "المنافسة والمزاحمة التي تنشط البلهاء مثل تنشيطها للأطفال العاديين". ومن المؤكد تماما أن "المتوحش الذي تعلم بهذه الطريقة قد عبر عن ذاته بأكثر من مظهر خارجي". ولكن يذهب بورنفيل لما هو أبعد من ذلك، إذ كتب يقول: "من المؤكد أن أحد أسباب عدم تحقيق مجهودات إيتار ومهارته وذكاؤه للثمرة المرجوة هو أن تلميذه كان كبير السن حين عهد به إليه." ويذكر بورنفيل بحق أن العقبة التي وقفت في وجه تعلم فيكتور هي عاداته القديمة في العيش بحرية في الحقول، ومن هنا كان "من الضروري لا مكافحة الخلل في الدماغ (الناتج عن توقف نمو المواهب والكفاءات) فحسب، بل وأيضا مكافحة العادات التي اكتسبها خلال حياة التوحش". إن العيب الوحيد في هذه الشهادة أنها تحافظ على كل

من فرضية التخلف الطبيعي وفرضية التخلف المكتسب في آن واحد. والحال أنه إذا كان من الصحيح أن فيكتور قد هام على وجهه في غابات لانجدوك وروبرج الوعرة خلال بضعة أعوام، إلا أنه لم يثبت حدوث عجز في دماغه عن طريق إجراء تحليل دقيق. إن الافتراض هنا بأن تخلف الطفل العقلي يعود لأسباب عضوية يتماثل مع غيره من الافتراضات التعليلية العديدة الأخرى. إن أحدا لا يستطيع البرهنة مباشرة على بطلان هذا الاعتقاد، لكن ليس لدينا أي سبب يدعونا إلى الإيمان به، بل العكس صحيح إذ أن كل شيء يدعو بفصاحة ضد هذا الاعتقاد.

وتحت طائلة هجوم أصدقائه شعر إيتار بالتزعزع أحيانا، لا سيما وأنه كان أسيرا لإيديولوجيات عصره إلى حد ما، ولهذا ربط بشدة بين التوقعات التعليمية والتشخيص النفسي. ومع ذلك لم يتمكن أي شيء قط من دفعه إلى التخلي حقيقة عن طريقة دي كونديياك في تفسير الواقع. وقد تحدث إيتار بشيء من المرارة والإزدراء عن أولئك الذين لم يعودوا في عام ١٨٠٦ يهتمون بالطفل الذي "ارتأوا الحكم عليه فيما مضى". فهو رفض أن يكون أسيرا لمغالطات سوء النية. ويذكر بأن حواس فيكتور قد حققت تقدما كبيرا في مجال التدرب على الإدراك الحسي، وفي الممارسة الصحيحة للوظائف العقلية الكبيرة، وفي الوعي بالدلالة، والإحساس بالمشاعر الطيبة، وبالاعتبارات الأخلاقية والندم. إن أعضاء المؤسسة الذين قدم إليهم إيتار تقريره الثاني استخدموا نص كلماته حين كتبوا بقلم داسييه: " فيما يتعلق بموضوع فيكتور يجب علينا أولا أن نأخذ في الاعتبار النقطة التي بدأ منها والنقطة التي وصل إليها لأنه لكي يتم الحكم على هذا الشاب بطريقة صحيحة لا يجب مقارنته بأحد آخر غير نفسه." لقد ظل إيتار بعد مضي ست سنوات من الملاحظة ومن التجارب مخلصا لعقيدته المدونة في تقريره الأول حيث ذكر بأسلوبه الرشيق " يلقى بالإنسان في هذا العالم بدون قوى طبيعية ولا أفكار فطرية...

وسواء كان يعيش في حالة من التشرد التوحشية الأكثر شرودا، أو في الدولة الأكثر تمدنا في أوروبا ليس الإنسان سوى ذلك الذي نصنعه»، أو على الأقل قد يعثر " الإنسان على أفضل مزية في جنسه وهي تنمية ذهنه وفهمه» عن طريق سحر علاقاته الشخصية مع الآخرين وسحر الدروس والأمثلة التي يمكن للمحيط الإنساني وحده أن يمنحها له. إن الحقيقة التي يؤكدها ذلك كله في النهاية هي أن الإنسان باعتباره إنسانا -قبل تربيته وتعليمه- ليس إلا مجرد احتمالا أي أنه أقل من أن يكون حتى أملا منتظرا .

باريس، أبريل - يونيو ١٩٦٣

المراجع الأجنبية انظر صفحة ٢١٣.

مذكرة وتقرير بشأن فيكتور الأفيروني [1]

بقلم جان إيتار Jean ITARD

[1] هذه النصوص الشهيرة كانت مفقودة الأثر فى فرنسا منذ عام ١٨٩٤.

تقديم

ولد جان مارك جاسبار إيتار Jean Marc Gaspard Itard يوم ٢٤ ابريل عام ١٧٧٤ ببلدة أوريزون بمقاطعة الألب-السفلي بفرنسا. وفي عام ١٧٨٢ عهد به إلى خاله كاهن كاتدرئية مدينة ريز، حيث التحق بمدرسة المدينة الثانوية، وتابع بعدها دراسته بمدينة مارسيليا لدى الرهبان. كان والده يُعدّه للعمل في أحد البنوك: وقد جرب حظه في البنك لكنها كانت تجربة تعيسة فعاد مرة أخرى إلى مدينة ريز بعد عامين. وقد ألقت به الحرب الثورية والمصادفة في مستشفى سوليبه العسكري في حين أنه كان لا يعرف شيئا في الطب. وفي هذا المستشفى تولد لديه الولع الطبي وتابع الدروس التي كان يلقيها دي لاري de Larrey أستاذ التشريح. وفي عام ١٧٩٦ استدعاه دي لاري للعمل معه بمستشفى " فال دي جراس" وكان إيتار قد أصبح طبيبا . كان المستشفى في حاجة إلى طبيب جراح وتقدم إيتار إلى المسابقة التي أجريت وفاز فيها. وفي ذلك العهد كان يوجد رجلان يهيمنان على الطب الفرنسي: الأول هو بينل Pinel (طبيب أمراض عقلية ١٧٤٥-١٨٢٦) البارع في تنظيم الاستراتيجية العلمية، والثاني كورفيزار Corvisart (طبيب أمراض القلب ١٧٥٥-١٨٢١) المشايع لوضع الخطط وتنسيقها(التكتيك). وقد اختار إيتار السير على درب بينل. وفي أحد الأيام قام القس سيكار مدير المؤسسة الإمبراطورية للصم والبكم باستدعاء الدكتور جان إيتار للعمل بالمؤسسة: وبعد مضي وقت قليل - يوم ٣١ ديسمبر ١٨٠٠- عرض على إيتار منصب رئيس أطباء المؤسسة.

كان إيتار في الخامسة والعشرين من عمره حين كان يعد رسالة حول "الاستهواء الجنبي" (معالجة السل الرئوي بادخال الهواء

والأزوت في التجويف الجنبي) التي قدمها عام ١٨٠٣، وذلك في الوقت الذي تم فيه اكتشاف طفل الأ فيرون (مقاطعة في جنوب فرنسا) وإحضاره إلى باريس تنفيذا لأوامر الوزير شامباني Champagnyالذي كان واعيا بأهمية الحالة بالنسبة لمعرفة الإنسان. ودع الطفل في مؤسسة شارع سان جاك حيث اعتزم الدكتور إيتار تعليمه على الفور. وفي عام ١٨٠١ نشر مذكرة عن تلميذه المتوحش الذي جعله شهيرا في جميع أنحاء أوروبا. وقد منح إمبراطور روسيا للدكتور إيتار خاتما كجائزة كبرى وعرض عليه عن طريق سفيره في باريس منصبا هاما في سان- بطرسبرج. رفض إيتار هذا العرض، وبعد مضي خمس سنوات أي في عام ١٨٠٦ كتب تقريرا آخر بناءا على طلب وزارة الداخلية يتعلق بالتقدم الذي أحدثه لدى الطفل ولاحظه عليه، وهو تقرير حظي بتقريظ باسم المؤسسة كتبه داسييه سكرتيرها الدائم. كتب هذا التقرير خلال الفترة من يونيو إلى سبتمبر ثم طبع عام ١٨٠٧ " بأمر من الحكومة" -أي بقرار من الوزيز شامباني.

كان إيتار أستاذا مشهورا يقيم في وسط باريس ويستقبل في الصباح مرضاه الخصوصيين، لكنه يعود في كل مساء إلى ملجأ الصم -البكم لكي يغدق على الملجأ بنصائحه وبرعايته. إن عقليته الحاذقة في جميع الموضوعات أدت به إلى معالجة موضوعات عديدة. فقد كتب عن الإستسقاء، وعن النظافة والصحة العامة، وأجرى بحوثا بشأن التأتأه والحمى المتقطعة كما أجرى دراسات عديدة بشأن التعليم الشفهي. وفي عام ١٨٢١ وهو العام الذي أصبح فيه عضوا بالأكاديمية الطبية قام بنشرمؤلفه الشهير "دراسة في أمراض الأذن والسمع"، وهو أهم مؤلف يصدر منذ الكتاب الذي أصدره البروفسور دو رني أستاذ أمراض الأذن عام ١٦٨٣. هذا فضلا عن أن إيتار كان يقول بأنه حزين بسبب استهانة العلم في عصره بكل ما له علاقة بعضو السمع : إن هذا العلم لا يعرف أكثر

مما كان معروفا في عهد جالينوس (طبيب يوناني ١٣١-٢٠٦). وقام إيتار بتلخيص الأعمال الوصفية القديمة، وطرح تصنيفا لها، ودلنا على مجموعة من التقنيات العلاجية من بينها قسطرة قناة اوستاكيس وانثقاب طبلة الأذن. وقد أكد -على عكس رأي أطباء الآذان المعاصرين له- بأن أسباب الصمم عديدة ولا تقتصر على شلل العصب السمعي. وقد برهن أيضا -على عكس الفكرة السائدة- أن الصمم لا يكون كاملا إلا في النادر، وأن غالبية الأفراد يعانون من ضعف السمع بدرجات متفاوتة، وأقام برهانه على أساس فحص منهجي بواسطة مقياس للسمع ابتكره بنفسه. وباختصار فإن إيتار هو المؤسس بلا منازع لمبحث أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

إن حديث المنظرين عن الفسيولوجي أو عن الطب يختلف عن النظر إلى الوقائع كم علم. وبسبب تعذر شفاء الصم-البكم ولو مؤقتا ، سعى إيتار إلى تعليمهم الكلام رغم كل شيء. كان أبناء العصور القديمة يجهلون وسائل تعليم هؤلاء الأطفال المعاقين. وقد اجتهد إيتار بمصاحبة جاكوب رودريج بيرير Jacob Rodrigues Péreire من أجل حل هذه المشكلة، ووضع نبوغه في خدمة البحث عن المنهج. وبينما كان معاصروه يدعون إلى استخدام الإشارة والإيمائية، انحاز إيتار -على عكس الجميع- إلى فرض طريقة قراءة الشفاه والتعبير الشفهي. كان يسبق معاصريه بنصف قرن. وقام خلال حوالي أربعين عاما بتكريس نفسه لأطفال مؤسسة الصم-البكم ببراعة أشاد بها جميع المقربين إليه. كان إيتار في بداية حياته المهنية قد اشترى علاجا مزعوما للصم-البكم من أحد المدعين بمعالجة الأمراض، وظل بعدها مقتنعا بأننا لا نتعلم إلا بالخبرة، ولا نكون ثاقبي الفكر إلا بالشك، ولا نصبح أذكياء إلا بالتسليم بضيق نطاق المعرفة المكتسبة. كان إيتار لا يهتم بالنجاح المالي ولهذا تخلى مبكرا عن ممارسة الطب في وسط باريس، واعتكف على الدراسة في المؤسسة بشارع سان- جاك، وكان يستقبل في الصباح أعدادا كبيرة من المرضى

القادمين من خارج المؤسسة، والذين يجب عليهم تسجيل أسماءهم في بطاقات الاستشارة قبل الموعد بعدة أسابيع.

وبعد مضي وقت طويل على محاولته تعليم الطفل الأفيروني كان إيتار لا يزال يفكر في موضوعه. إنه يعتقد بأنه ليس للبكم أسبابا عضوية فحسب، وبأنه إذا ما كان الانتباه لا يتيح السمع، والذاكرة لا تبيح الحفظ، والتعليم الشفهي لا يسمح بالإعادة والتكرار، فلا يمكن للكلام أن يظهر. وخلال الفترة من عام ١٨٢٢ حتى ١٨٢٨ كتب إيتار تقارير عديدة -من بينها ثلاثة تقارير للأكاديمية-، وفي عام ١٨٣١ كتب مذكرة حول البكم المترتب على خلل في الوظائف العقلية. ولأنه كان مدركا للعلاقات الوثيقة القائمة بين السمع والنطق، وبين اللغة والفكر، وبين الثقافة والذكاء، فإنه لا يعتبر أحد أوائل معلمي الصم-البكم فحسب، بل وأول معلم للتخلف العقلي الذي قام خلال خمس سنوات من الصراع مع فيكتور غير العادي باستنباط أساليب مبتكرة لإيقاظ وعيه بالوقائع وما بينها من روابط. وحينما قرر بورنفيل طبيب قسم الأطفال العصبيين والمتخلفين في ملجأ بيستر في عام ١٨٩١ إنشاء "مكتبة التعليم الخاص" كان ذلك من أجل أن ينشر "تقارير ومذكرات حول طفل الأفيرون"، ولكي يقول بعد اسكيرول Esquirol صديق إيتار والمعاصر له، وبعد هوسون Husson، وبعد بوسكيه Bousquet ، وبعد دولاسيوف Delasiauve أنه "يجب علينا اعتبار إيتار أنه بحق مؤسس تعليم المتخلفين عقليا".

ولهذا فإننا لا ندهش حين نرى سيجوان Séguin معلم الأطفال غير المتكيفين يقوم هو الآخر بالاستشهاد دائما بإيتار. لقد قام سيجوان الذي كان معلما أولا ثم طبيبا بتطبيق تقنيات إيتار بعد تعديلها خلال عشر سنين في مدرسة بشارع بيجال. وقد هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لكنه ظل دائما تلميذا مخلصا لذلك الذي كان يسميه "معلمي المجيد"، وقام هناك بتأسيس العديد من المؤسسات للمعتوهين وبنشر الطريقة الإيتارية. وفي عام ١٨٩٨ اكتشفت البطلة

التعليمية ماريا مونتيسوري Maria Montessori (طبيبة إيطالية للأطفال المتخلفين ١٨٧٠-١٩٥٢) مؤلفات سيجان المنسية ومؤلفات إيتار في آن واحد. كتبت في عام ١٩٢٦ تقول: "يجب التسليم بأن الأوصاف الدقيقة التي وضعها إيتار كانت أولى الدراسات في التعليم التجريبي...ومن ناحيتي فقد أتممت تجاربي في روما بشأن المعتوهين خلال عامين وذلك وفقا لكتاب سيجوان وكانت ذخيرتي المفضلة لإتمام هذا العمل هي تجارب إيتار الرائعة. وعلى هدي هذه الاختبارات قمت بتصور وبتأليف مواد وفيرة ... ففي مذكرات إيتار نجد أساليب قريبة الشبه للغاية بالأساليب التي يلجأ إليها معلمو علم النفس العلمي مع فرد خارج المجتمع إلى حد يبدو بأنه أبكم- وأصم وأبله لتحويله إلى رجل يستطيع سماع الكلام وفهمه... وبعد أن قام الزمن بترسيخ ثقتي في هذه الأساليب تركت الأنشطة المكرسة للمعاقين لكي اتفرغ لدراسة أعمال سيجوان وإيتار. وشعرت بحاجتي لأن أتأمل هذه الأعمال: قمت بنسخ مؤلفاتهما إلى اللغة الإيطالية بدقة وعناية." وبعد مضي وقت آخر رأينا داعية أخرى لتعليم الأطفال المعتوهين هي أليس ديكودر Alice Descoedres vvتقوم بدورها بتطبيق مباديء ديكروليDecroly ، وتتأثر بإيتار وتجد في تقريره "عملا رائعا "، وقد أدخلت في تعليمها الشخصي تقنية تدريبات -العيون- المعصوبة، واستخدمت تقويما عقليا قائما على تعليم الحواس. وبالرغم من أن بعض هذه العمليات أصبح باليا ، ومن أن المفهوم التجزيئي المهيمن على هذا كله موضع نزاع، إلا أن إيتار يعتبر منشئا لحركة تعليمية ضخمة وأحد أفضل العقول خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وفي الوقت الذي يحتاج فيه العالم الحديث بشدة إلى العمال المتخصصين، يقوم باكتشاف التأثيرات الاجتماعية المتسببة في التخلف، وفي الوقت الذي تسترعي فيه انتباه العالم والسلطات أنواع العجز النفسي بعد العجز الجسماني، حصل إيتار على موقعه

التاريخي. إن نمو "التعليم الخاص"، والاهتمام الذي أبدته كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السو فييتي بشأن مشكلة المتخلفين عقليا -العبء الثقيل على المدنيات التقنية- أضفى على أعمال إيتار بريقا جديدا. لقد أصبحوا مدركين لظاهرات القابلية للشفاء. وبرهن شارل، وكلارك، وجويرتانGuertin ، وماكايMc Kay، وساراسونSarason ، وسبودلينجSpaudling ، أن الأطفال الذين كانوا يعتبرون في البداية متخلفين جوهريا ، أصبحوا أطفالا أسوياء بواسطة التعليم. وكتب لوريا Louria السو فييتي يقول: "إن الأشكال الوراثية للتخلف العقلي قليلة." وقد تجلى إيتار باعتباره رائدا عملاقا. وحين نشرت اليونسكو في عام ١٩٦١ تقريرها "الإحصائي عن التعليم الخاص" ذكر واضعو التقرير أنه "حين نريد الاستشهاد بأسماء تمثل الإلهام العام للأساليب والتقنيات المستخدمة فإنها- فيما عدا استثناءات قليلة- أسماء الكلاسيكيين الكبار الذين كان بعضهم من الرواد". ويضيف التقرير بأنه " لا يبدو حدوث تجديد ملموس في هذا المجال منذ عصرهم". من الصحيح أن هؤلاء الرواد سواء كان مونتيسوري Montessori أو ديكودر Descoedres قد أدخلوا تعديلات على تعليم إيتار، لكنهم احتفظوا بالمضامين وخاصة بالمبدأ الأساسي لهذا الاعتقاد القائل بأنه "إذا كان الطفل يعرف جيدا أسماء الأشياء التي يستخدمها، وإذا ما كان يعرف جيدا مدلول كلمتي نعم و لا ويستخدمها بطريقة صحيحة، وإذا ما كانت لديه فكرة تحسين أدائه، فالأمل يظل قائما " - وهو اعتقاد أظهر بوسكيه في خطابه أمام الأكاديمية الطبية بأنه معجب بوجوده لدى إيتار معلم متوحش الأفيرون المثابر.

كان هذا هو القدر غير المألوف لرجل يقول معاصروه عنه أنه كان يشبه الملك هنري الرابع جسمانيا وبأن المرض قد أحنى ظهره قبل الأوان. وبدءا من عام ١٨٣٢ خضع لنصيحة أصدقائه وكان يحصل على أجازة تمتد عدة شهور يقضيها في منتجع بوسيجور بإقليم باسي. إن إيتار الذي كان مرحا للغاية في شبابه أصبح صموتا

لكنه ظل رقيقا وكريما . إنه لا يخدع نفسه بشأن اقتراب نهاية حياته. ويفكر فيما بعد مماته ورحيله عن هذا العالم. لقد عاش أعزبا ، وفي أكتوبر عام ١٨٣٧ كتب وصية وهب فيها لأصدقائه أشياءا متنوعة، ومنح مكتبته لأحد أبناء إخوته، كما خصص للأكاديمية الطبية دخلا سنويا قدره ألف فرنك من أجل تقديم "جائزة كل ثلاث سنين لأفضل مذكرة في الطب العملي والعلاج التطبيقي"، وأوصى بدخل آخر يزيد ثماني مرات لصالح إقامة فصل " للتعليم التكميلي الشفهي"، وذلك بقصد الاستمرار بعد وفاته في معاونة أولئك الذين كرس لهم جميع قواه الجسمية والفكرية. وفي يوم ٥ يوليو ١٨٣٨ توفي إيتار - في الرابعة والستين من عمره- وكان يعتقد على الدوام بأن "لا شيء يمكنه تخليص الإنسان من ظروف وجوده المحزنة المتمثلة في المعاناة والموت ". وبوفاته اختفى أحد عظماء الطب، والتعليم، وعلم النفس.

ل.م

ملاحظة هامة : نود الإعراب هنا عن شكرنا للسيد فورجون مدير المعهد الوطني للصم-البكم بشارع سان جاك الذي أتاح لنا الإطلاع على محفوظات الدار وعلى المخطوطات التي كتبها إيتار ولم يسبق نشرها.

مذكرة بشأن التطورات الأولىدى
فيكتور الأفيروني (١٨٠١)

مقدمة

ألقي بالانسان فوق هذه الكرة الأرضية بلا قوى جسمانية، وبلا أفكار فطرية، ولا يستطيع الخضوع بذاته إلى قوانين بنيته التي تدعوه لاحتلال الصف الأول في نظام الكائنات، ألا أنه لايمكنه احتلال مكانه السامي المرسوم له في الطبيعة إلاداخل المجتمع، وفي حالة حرمانه من المدنية سيكون من أكثر الحيوانات ضعفا وأقلها ذكاءا : هذه حقيقة تكرر استخدامها لكن لم يتم البرهنة على صحتها بصفة قاطعة بعد... إن الفلاسفة الذين كانوا من أوائل من عبروا عن هذه الحقيقة، وأولئك الذن قاموا بعدهم بتأييدها ونشرها قدموا كبرهان على صدق قولهم الحالة الجسمانية والمعنوية لبعض العشائر الرحالة، الذين نظروا إليهم باعتبارهم غير متمدينين لأن مدنيتهم لم تكن مماثلة لمدنيتنا، وقاموا باقتباس سماتهم باعتبارها سمات الإنسان في حالته الطبيعية الخالصة. وعلى أية حال، ومهما قيل في هذا الشأن إلا أن الحقيقة لا تكمن هنا ولا يجب البحث عنها ودراستها في هذا المجال. فبين القوم المتوحشين الأكثر تشردا مثلما بين الأمة الأوروبية الأكثر تمدنا، ليس الإنسان سوى ما نصنعه; وبما أنه قد تمت تربيته بواسطة نظرائه فقد اكتسب عاداته واحتياجاته منهم؛ ولم تعد أفكاره من ابتكاره، لقد حظي بأجمل ميزة في جنسه وهي القابلية لتنمية فهمه بقوة المحاكاة وبتأثير المجتمع.

وعلى هذا يجب البحث في مكان آخر عن نموذج الإنسان المتوحش حقيقة، ذلك الإنسان غير المدين بشيء لنظرائه، واستنباط

هذا النموذج من تواريخ عدد قليل مـن الأفـراد تـم العثـور عليـهم بيـن وقت وآخـر خـلال القرن السـابع عشـر وكـانوا يعيشـون منـذ نعومـة أظفارهم في عزلة بالغابات[1].

لكن مسيرة دراسة العلم في العهود القديمة كـانت مشوبـة بـالخلل، فقـد كـانت خاضـعـة لـهوس الشـرح والتفسـير، ولريبـة الافتراضـات، وللتفـرغ كليـة للعمـل المكتبـي، ولـم تكـن معتمـدة علـى الملاحظـة والرصد، وبذلك ضـاعت هـذه الوقـائع الثمينـة مـن التـاريخ الطبيعـي للإنسان. ويقتصر مجموع ما تركه المؤلفون المزامنـون لتلك العـهود على بعض التفاصيل التافهة التي تدل نتيجتها الأكثر وضوحـا علـى أن هؤلاء الأفراد كانوا غير قابلين لتحقيق أى تقـدم هـام، ولعـل سـبب ذلـك هـو أنــهم اسـتخدموا فــي تعليمــهم النظــام الاعتيـادي للتعليـم الاجتماعي دون مراعاة لاختلاف منشأهم، ومـن غيـر اسـتخدام نظـام خاص لتعليمهم. وإذا كان تطبيق نظام التعليم الاعتيادي قد لقي نجاحـا كاملا لدى الفتاة المتوحشة التي وجدت فـي فرنسـا فـي بدايـة القـرن الثامن عشر ، فذلك لأنها قد عاشت في الغابات بصحبة رفيقة لها، فقد كـانت مدينـة لـهذا الارتبـاط البسيط ببعـض النمـو لقدراتــها الذهنيــة وبتربيـة حقيقيـة مثلمـا يقـول كونديـاك[2]، حيـن يفـترض بـأن تشــارك الطفلتيـن المـهجورتين والمعزولتيـن تمامــا فــي المعيشــة قـد نمــى ذاكرتهما ونشط خيالهما، بل وحتى جعلهما تبتكران عـددا قليـلا مـن الإشارات: إنه افتراض حاذق ويفسر تماما قصة هذه الفتاة ذاتها التي نمت ذاكرتها إلى حد جعلها تعيد تصوير بعض ظـروف معيشتـها فـي

---

[1] لقد رفع لينيه عدد هذه الحالات إلى عشر، ويصورها بأنها تكون تشكيله من الجنس الإنساني. كتاب "نظام الطبيعة"

[2] مولف "دراسة حول منشا المعارف الإنسانية" الجزء الثاني، القسم الأول.

الغابات بتفاصيلها الدقيقة وبخاصة الظروف العنيفة التي أحاطت بوفاة رفيقتها[1].

إن الأطفال الآخرين الذين عثر عليهم في حالة عزلة فردية والمجردون من هذه المزايا لم يجلبوا معهم إلى المجتمع سوى ملكات شديدة الخمول والبلادة، وقد فشلت جميع الجهود المفترض بأنها بذلت لتعليمهم، وهي جهود مقرونة بعلم "ما بعد الطبيعة" (ميتافيزيقا) وليد لا يزال يعوقه الانحياز المسبق للأفكار الفطرية، وبعلم طبي محدد بالضرورة بعقيدة عفوية لم تستطع الارتفاع إلى مستوى التأملات الفلسفية لأمراض الفهم والإدراك. وقد استضاء هذان العلمان بفضل مصباح التحليل وتأقلم كل منهما مع الآخر وتبادلهما التعضيد والمساندة، بحيث أمكنهما في أيامنا هذه التخلص من أخطائهما القديمة وتحقيق تقدم ضخم. ويوجد لدينا أيضا ما يدعو إلى الأمل بأنه إذا ما حدث وظهر أمامنا فرد مماثل لأولئك الذين تحدثنا عنهم فسيقوم هذان العلمان باستخدام جميع مواردهما الراهنة من أجل تنمية حالة هذا الفرد الجسمانية والمعنوية، أو في القليل إذا ما كان هذا التطبيق متعذرا أو غير مثمر، فإنه سيوجد في عصر الملاحظة هذا من يستقبل بعناية قصة كائن في مثل هذه الغرابة، وسيحدد من يكون ويستخلص ما يعوزه، ومجمل المعارف والأفكار التي لا تحصى والمدين بها الإنسان لتعليمه.

---

[1] تم أسر هذه الفتاة عام ١٧٣١ فى نواحى منطقة شالون- سور- مارن بفرنسا، وتربت فى دير للراهبات وسميت مدموزيل لوبلان. وعندما تعلمت الكلام روت أنها قد عاشت فى الغابات مع رفيقة لها، وأنها فى أحد الأيام قامت للأسف بقتلها بأن ضربتها فى رأسها لأنهما تشاجرتا عند عثورهما على مسبحة وقد رغبت كل منهما الاحتفاظ بها لنفسها. (راسين: قصيدة الدين).

ومهما كانت درجة وضوح هذه القصة، إلا أنها غير محكمة، وإذا ما قمنا أولا بحذف ما بها من توافه ثم ما لا يمكن تصديقه، فإنها لاتقدم سوى القليل من الخاصيات الجديرة بالتسجيل ومن أهمها قدرة هذه الشابة المتوحشة على تذكر حالتها الماضية.

وهل أسمح لنفسي بالإقرار بأنني قد حددت غايتي بتنفيذ كل من هذين المشروعين الكبيرين؟ ولايسألني أحد قط فيما إذا كنت قد حققت هدفي. إن مثل هذا السؤال سيكون سابقا لأوانه ولن أستطيع الإجابة عليه إلا بعد فترة لا تزال بعيدة للغاية. غير انني صبرت في صمت، ولم أرغب في شغل الجمهور بأعمالي لولا أنني كنت في حاجة بل كان لزاما علي أن أبرهن من خلال النجاحات الأولى التي حققتها تجاه هذا الطفل بأنه ليس -كما يعتقدون عامة- معتوها ميئوسا منه، بل كائنا مثيرا للاهتمام يستحق من جميع الجوانب رعاية وعناية خاصة تتولاها هيئة مستنيرة محبة للإنسانية.

ارتقاء صبي متوحش

منذ بضع سنوات مضت لمحت الأبصار طفلا في غابات دو لاكون de la Caune عمره إحدى أو اثنتى عشرة سنة عاريا تماما يبحث عن طعامه من ثمار البلوط وجذور النباتات. وعند نهاية السنة السابعة (وفقا للتقويم الجمهوري الذي أقيم في فرنسا عام ١٧٩٣واستمر ١٣ عاما) التقى به في المكان نفسه ثلاثة صيادين قاموا بأسره في اللحظة التي كان يقفز فيها فوق شجرة ليتخلص من مطاردتهم. أقتيد الطفل إلى ضيعة صغيرة قريبة وعهد به إلى سيدة أرمل لحراسته، لكنه هرب بعد أسبوعين وذهب إلى الجبال حيث هام على وجهه خلال برودة الشتاء الأكثر شدة وكان يكتسي قميصا مهلهلا لا يغطي جسمه. كان أثناء الليل ينعزل في أماكن موحشة، ثم يقترب أثناء النهار من القرى المحيطة، وهكذا كان يعيش متشردا حتى اليوم الذي دخل فيه بمبادرة شخصية منه منزلا آهلا بالسكان بناحية سان- سرنان Saint-Sernin.

تم احتجازه في هذا المنزل والعناية به ومراقبته خلال يومين أو ثلاثة ثم نقل إلى ملجأ مدينة سان-أفريق Saint-Affrique وبعدها إلى مدينة روديز Rodez حيث احتفظ به لعدة شهور. وخلال إقامته في هذه الأماكن المختلفة لوحظ دائما أنه جفول، نافد الصبر، دائم الحركة، يسعى بصفة مستمرة إلى الهرب، وأدت ملاحظته إلى تجميع مادة مثيرة للاهتمام للغاية رواها شهود جديرون بالثقة، ولن يفوتني روايتها في هذه الدراسة إذ يمكن أن تحقق فوائد جمة[١]. واعتقد أحد

---

[١] إذا كنا نعنى بكلمة "متوحش" عادة أنه الإنسان غير المتمدين، فإننا نتفق على هذا الطفل ليس متمدينا على الإطلاق وبالتالى تنطبق عليه هذه التسمية تماما. وعلى هذا فإننى احتفظ بهذه التسمية التى كانوا دائما يطلقونها عليه إلى حين قيامى بشرح الدوافع التى جعلتنى أمنحه اسما آخر.

الوزراء من رعاة العلوم بأن علم الإنسان قد يستفيد بالحصول على معارف جديدة من هذا الحادث. وصدرت الأوامر بإحضار هذا الطفل إلى باريس التي وصلها في نهاية العام الثامن (وفقا للتقويم الجمهوري الفرنسي) بمرافقة رجل كبير السن جدير بالاحترام الذي وعد بالعودة لأخذه واعتباره ابنا له إذا ما تخلت عنه المؤسسة.

لقد سبقت متوحش الأفيرون إلى باريس الآمال الأكثر إبهارا والأقل عقلانية[1]، وكان العديد من الفضوليين يتلهون بتصور دهشة المتوحش حين يرى جميع الأشياء الجميلة في باريس. ومن ناحية أخرى ينسى العديد من الأشخاص الجديرين بالاحترام بسبب علمهم أنه حين يكون الإنسان بعيدا عن المجتمع وتجاوز السن الصغير، فإن أعضاء جسمه تكون أقل مرونة، والمحاكاة أكثر صعوبة. لقد ظن هؤلاء أن تعليم هذا الشخص لن يستغرق بضعة شهور وأننا سرعان ماسنعرف منه المعلومات الأكثر إثارة عن حياته الماضية. ولكن ما الذي شهدناه بديلا عن كل هذا؟ شهدنا طفلا قذرا لدرجة مقززة، مصابا بحركة تشنجية، يرتعش غالبية الوقت، ويتأرجح بلا انقطاع، يقوم -مثل بعض وحوش العرض- بخربشة أولئك الذين يخدمونه وبعضهم، وأخيرا لا يبالي بشيء ولا ينتبه إلى أي شيء.

ومن السهل تصور بأن كائنا من هذا النوع لا يثير الفضول إلا مؤقتا. فقد هرعوا في البداية أفواجا لمشاهدته لا لملاحظته، ولتكوين رأي بشأنه من غير أن يعرفونه، ثم توقفوا عن الحديث عنه، وأصبحوا غير مبالين به. وفي وسط هذه اللامبالاة العامة، لم ينس أعضاء مجلس إدارة المؤسسة الوطنية للصم-البكم ومديرها الشهير

---

[1] جميع ماسبق أن قلته وما سأقوله بشأن تاريخ هذا الطفل قبل إقامته فى باريس يحصل على مصداقيته من التقارير الرسمية للمواطنين جيرو وكونستان من مقاطعة سان- إتيف، وهما يعملان مامورين حكوميين الأول فى ناحية سانت- أفريق والثانى فى ناحية سان- سرنان. وقد استعنت أيضا بالملاحظات التىأثبتها تفصيليا المواطم بوناتير أستاذ التاريخ الطبيعى بالمدرسة المركزية بمقاطعة أفيرون، فى دراسته "لمحة تاريخية عن متوحش الأفيرون - باريس السنة الثامنة [التقويم الجمهورى].

بأنه حين قبلت المؤسسة هذا الشاب منكود الحظ فإنها قد التزمت بتعهدات تجاهه لا بد وأن توفيها. وحيث أنهم كانوا يشاركونني نفس الآمال فقد قرروا أن يعهدوا لي بالعناية بهذا الطفل.

ولكن قبل أن أعرض تفاصيل ونتائج هذا الإجراء، يلزم توضيح النقطة التي بدأنا منها، واسترجاع تلك الفترة الأولى ووصفهاحتى يمكننا تقييم النقطة التي وصلنا إليها بصورة أفضل. هكذا بمقارنة الماضي بالحاضر يمكننا تحديد ما يجب علينا انتظاره من المستقبل. وبناء عليه فإنني مضطر إلى العودة إلى الوقائع التي سبق معرفتها والتي سأعرضها سريعا . ولكن تفاديا لأي شك في أنني أبالغ في تصويرها بقصد إبراز تلك التي أريد مقارنتها بها، فإنني أجيز لنفسي أن أروي هنا بطريقة تحليلية الوصف الذي أدلى به طبيب معروف بالنبوغ والمهارة وبمعرفته العميقة بالأمراض العقلية أمام جمعية علمية في جلسة كان لي شرف حضورها .

لقد بدأ المواطن ببينيل Pinel (طبيب أمراض عقلية فرنسي شهير ١٧٤٥-١٨٢٦) أولا بعرض الوظائف الحسية لدى الصبي المتوحش وصور حواسه بأنها تدنت إلى حالة من الخمول، جعلت هذا الطفل التعس يقل كثيرا من هذه الناحية عن بعض حيواناتنا المنزلية. كانت عيناه غير مستقرتين، بلا أي تعبير، تشردان بغموض من شيء إلى آخر دون توقف أمام شيء بعينه. وكانت حاسة اللمس لديه غير مدربة إلى حد أنه لم يكن يميز بين جسم بارز وجسم آخر مرسوم: كان جهاز السمع لا يحس بالضوضاء الأكثر شدة كما لا يحس بالموسيقى الأكثر رقة: أما جهاز الكلام فقد كان في حالة بكم كاملة لا يصدر إلا صوتا متماثلا من الحنجرة : وكانت حاسة الشم قليلة التمرس لدرجة أنها كانت تستقبل روائح العطور والروائح العفنة لأكوام القمامة بعدم مبالاة متساوية. وأخيرا كانت حاسة اللمس تقتصر على الوظائف الآلية الخاصة بالامساك بالأشياء. وإذا ما انتقلنا إلى حالة الوظائف العقلية لدى هذا الطفل، فإن كاتب التقرير

قدمه إلينا باعتباره عاجزا عن الانتباه، فهو مسلوب الذاكرة والرأي، محروم من القدرة على المحاكاة، محدود الأفكار حتى بالنسبة للأفكار الخاصة باحتياجاته وذلك إلى حد أنه لم يتمكن مطلقا من فتح الباب ولا الصعود فوق كرسي للوصول إلى الأطعمة التي وضعت بعيدا عن متناول يده. كان أيضا مجردا من كل وسيلة اتصال، لا يضفي تعبيرا ولا قصدا على إيماءات وحركات جسده، ينتقل بسرعة وبلا أي سبب من حزن خامل إلى صيحات القهقهة الأكثر حدة. كان فاقد الحس تجاه أي نوع من أنواع المودة أو الحنان، كما انحصرت بصيرته في إشباع شراهته، واقتصرت لذته في حاسة تذوقه، وتحدد ذكاؤه في قابليته لانتاج بضع أفكار مشوشة تتعلق باحتياجاته، ويمكن القول بايجاز أن مجمل حياته كانت حياة حيوانية.

وبعدها قام المواطن بينيل بسرد قصص عديدة جمعها من ملجأ بيستر Bicêtre عن أطفال مصابين بالعته ولا أمل في شفائهم ، ثم أوضح أوجه تشابه عديدة بينهم وبين هذا الطفل مما يؤدي بالضرورة إلى التماثل الكامل والتام بين هؤلاء الأطفال وبين متوحش الأفيرون. ويقودنا هذا التماثل بالضرورة إلى الاستنتاج بأن هذا الطفل المصاب بمرض يعتبر حتى اليوم مستعصيا ، لا بد وأن يكون غير قابل لأي نوع من المخالطة الاجتماعية أو من التعليم. وكان هذا فعلا هو الاستنتاج الذي توصل إليه المواطن بينيل لكنه كان مقرونا بهذا الشك الفلسفي الشائع في جميع كتاباته، ذلك الشك الذي يعرف علم التكهنات كيف يقرنه بتنبؤاته التي لا يعتبرها سوى حسابات مشحونة بالاحتمالات وبالمصادفات غير المؤكدة.

لكنني لم أكن مشاطرا لهذا الرأي السلبي مطلقا وبالرغم من صحة الصورة المقدمة ومن صدق التشبيهات، إلا أنني سمحت لنفسي بتصور وجود بعض الآمال. وقد أسست هذه الآمال على اعتبارين يتعلقان بسبب هذه البلاهة الظاهرية ثم بقابليتها للشفاء. ولا يمكنني الاستطراد في الحديث دون التوقف قليلا أمام هذين الاعتبارين. إنهما

يتعلقان أيضا باللحظة الراهنـة، ويرتكـزان علـى سلسـلة مـن الوقـائع التـي يجـب أن أرويـها مـع اضطـراري إلـى مزجـها أكثر مـن مـرة بأفكاري الخاصة.

وإذا ما عكفنا على حل المعضلة الميتافيزيقية التالية: تحديد درجة الذكاء وطبيعـة الأفكـار لـدى صبـي حـرم منـذ طفولتـه مـن أي تعليـم وعاش منعزلا عن أبناء جنسه كلية. إنني أرتكب خطأ جسيما ، إذ ما اقتصر حل هذه المعضلـة علـى عـدم منـح هـذا الشخـص سـوى ذكـاء خاص بعدد قليل من احتياجاته، وجردناه مـن جميـع الأفكـار البسـيطة والمعقـدة التـي نتلقاهـاعن طريـق التعليـم، والتـي تـتركب فـي عقلنـا بوسائل عديدة. والحال أن الصورة المعنوية لهذا الصبي ستكون هـي صورة متوحش الأفيرون وسيوضـح حـل المعضلـة أبعـاد حالـة هـذا الصبي العقلية وسببها.

ولكن لكي يتم إقرار هذا السبب باقتناع أكثر، يجب إثبات أنـه كـان يمارس تأثيره منذ سنين عديدة، ويلزم دحض الاعتراض الـذي يمكـن أن يوجه إلى بل والذي تم توجيهه فعلا من قبل، وهـو أن المتوحـش المزعوم ليـس إلا أبلـها بائسـا تخلـى عنـه والـداه علـى حافـة إحـدى الغابات لنفورهما منه. إن أولئك الذين استسلموا لمثـل هـذا الافـتراض لم يعاينوا هذا الطفل بعد وصوله إلى بـاريس بوقـت قليـل. كـانوا فـي هذه الحالة سيرون أن جميع عاداته تحمل طابع حياة الشرود والعزلـة، وأنه نافر بشدة من المجتمع ومن أعرافه، ومن ملابسنا وأثاثاتنا، ومن الإقامة فـي بيوتنـا وإعدادنـا لطعامنـا. كـان لا يبـالي مطلقـا بالأشـياء موضـع سرورنا وبحاجاتنا المصنوعة، ويبدي ميلا شديدا للانطـلاق بحرية في الحقول الأمر الذي لا يزال حتى اليوم مشتعلا فـي داخلـه، بالرغم من احتياجاته الجديدة ومـن عواطفـه الوليـدة. وقـد دفعتـه هـذه الميول إلى محاولة الهرب إلى الغابات أثناء إقامته قصيرة الأجـل فـي مدينـة مونمورانسـي Montmorency وكـاد ينجـح فـي محاولتــه لـولا الاحتياطات الصارمة المتخذة. وقـد سبق أن هـرب مرتيـن مـن بيـت

الصم-البكم بالرغم من رقابة مربيته. وكان يستخدم وسيلة انتقال ثقيلة إذ كان يرتدى حذاءا ، الأمر الملفت للنظر حيث كـان يواجـه صعوبـة للاقتداء بطريقتنا الهادئة والمتزنة في المشـي، فضـلا عن أنـه كـان يخب أو يثب (كالحصان). ومن بين عاداته المتأصلة كان يشم كل ما يقدم إليه وحتى تلك الأجسام التي نعتبرها بلا رائحـة، كما كـانت طريقـة مضغـه للطعـام لا تقل إثـارة للدهشـة إذ كـان يمضـغ بسرعة بأسنانه القاطعة مثله في ذلك مثل بعض الحيوانـات القارضـة، وكـان يعيش في الأغلب على المنتجات النباتية: إنني أقول في الأغلب لأنـه يبدو بأنه في بعض الحالات كان يفترس حيوانـات صغيرة ميتـة. لقد قدم إليه عصفور كناري ميت، فقـام فـي لحظـات بنزع ريشـه الكبير والصغير وفتح بطنه بظلفه ثم رماه بعد أن شمه.

ويمكن استنتاج علامـات أخرى على الحيـاة المنعزلـة تمامـا ، ورقيقة الحال، والمتشردة التـي عاشـها هذا الطفل من عدد النـدوب وآثار الجروح القديمة التي تغطي جسمه. وبصرف النظر عـن الندبـة التـي نراهـا فـي مقدمـة الرقبـة والتـي سـأشير إليـها فـي مكـان آخـر باعتبارها ناتجة عن سبب آخر وتستحق عنايـة خاصـة، فإنـه يمكننـا إحصاء أربع ندوب على الوجه، وست علـى طـوال الذراع الأيسر، وثلاث على مسافة قليلة من الكتف الأيمن، وأربع على محيط العانـة، وواحدة على الردف الأيسر، وثلاث على إحـدى سـاقيه واثنتـان علـى الساق الأخرى. هكـذا يكـون مجمـوع النـدوب ثـلاث وعشريـن تبـدو بعضها بأنها نتيجة لنهش الحيوانات، والبعض الآخـر بسـبب تمزقـات وسـحجات عريضـة وعميقـة إلـى حـد مـا. وإذا مـا نظرنـا إلـي هـذه العلامات العديدة الدالـة علـى التخلـي الكـامل وطويـل الأمـد عـن هـذا الطفل المنكوب، ومن وجهة نظر عموميـة أكثر وفلسـفية أكثر فإنـها تشهد ضد ضعف الإنسان وعجزه حينما ي ترك وحيدا معتمدا علـى قدراتـه الخاصـة، بقدر مـا تشـهد لصـالح مـوارد الطبيعـة التـي وفقـا

لقوانين تبدو في الظاهر متناقضة، تعمل صراحة من أجل المحافظة على ما تقوم خفية بإفساده وتحطيمه.

ولنضف إلى جميع هذه الوقائع المستنتجة من المعاينة، تلك التي لا تقل أصالة والمقدمة من سكان الحقول المجاورة للغابة التي عاش فيها هذا الطفل. هكذا سنعرف أنه خلال الأيام الأولى التالية لدخوله المجتمع، لم يكن يتغذى إلا على ثمار البلوط والبطاطس والكستناء النيئة، وبأنه لم يكن يصدر أي صوت، وكان ينفر من النوم في سرير، وبالرغم من الرقابة الشديدة إلا أنه تمكن من الهرب عدة مرات .الخ. وسنعرف بصفة خاصة أنه قد شوهد قبل ذلك بخمس سنين وكان عاريا تماما ويهرب عند اقتراب الناس منه[1]، الأمر الذي يجعلنا نفترض بأنه كان قبل ظهوره لأول مرة قد تعود على هذا النوع من الحياة، وبأنه لا بد وأنه قد أقام على الأقل عامين في أماكن غير مأهولة لكي تتولد لديه هذه العادات. هكذا يكون هذا الطفل قد أمضى في عزلة تامة ما يقرب من سبعة أعوام خلال حياته التي بلغت ١٢ عاما حينما تم أسره في غابات ديلاكون. وبناء عليه من المحتمل بل يكاد يكون من الثابت أنه تم التخلي عن هذا الطفل عندما كان في الرابعة أو الخامسة من عمره، وأنه إذا ما كان قد حصل في ذلك الوقت على بضع أفكار وكلمات، إلا أن كل هذا قد انمحى من ذاكرته بسبب عزلته.

هذا هو ما بدا لي بأنه السبب في حالته الراهنة. وبذلك نرى لماذا كنت متفائلا بشأن نجاح رعايتي له. في الواقع أنه على ضوء المدة القليلة التي قضاها بين البشر لا يعتبر متوحش الأفيرون صبيا أبلها بقدر ما هو طفل بلغ الشهر العاشر أو الثاني عشر من عمره، وطفل تعاكسه عاداته المعادية للمجتمع ، وشرود ذهنه المستمر، وأعضاء جسمه غير المرنة، وحساسيته الضعيفة بسبب أحداث طارئة. وفي

---

[1] خطاب المواطن ن٠٠٠المنشور بجريدة "جورنال دى ديبا" Journal du Débat بتاريخ ٥ بلوفيوز العام الثامن [التقويم الجمهورى الفرنسى]٠

ظل وجهة النظـر الأخيرة أصبحت حالتـه هـي حالـة طبيـة محـض، يختص الطب المعنوي بعلاجها، وهو الطب المعتبر فنا جليلا ابتكره في انجلترا ويليس Willis (عـالم أعصـاب إنجليزي ١٦٢١-١٦٧٥) وكريشتون Crichton (طبيب عقـل إنجليزي ١٧٦٣-١٨٥٦)، وانتشـر حديثا في فرنسا بسبب نجاحات وكتابات ال بروفيسور بينيل.

وبالاسـترشاد بأفكـار هذيـن الطبيبيـن أكـثر مـن تعاليمـهما التـي لا تتوافق مع هذه الحالة غير المنتظرة، قمت بإيجاز العلاج المعنـوي أو تعليم متوحش الأ فيرون في خمس غايات رئيسية.

الغاية الأولية: ربطه بالحياة الاجتماعية، وذلك بجعلها أكثر راحـة من الحياة التي كان يعيشها آنذاك، وبجعلها بخاصـة أكـثر تمـاثلا مـع الحياة التي تركها أخيرا.

الغاية الثانية: إيقاظ الحاسية العصبيــة باستخدام أقـوى المنبـهات، ومن خلال مشاعر المودة والحنان الحارة في بعض الأحيان.

الغايــة الثالثــة: توسيع مجـال أفكـاره بمنحـه احتياجــات جديــدة، وبالإكثار من علاقاته مع الكائنات المحيطة به.

الغاية الرابعة: دفعه إلى استخدام الكلام بتحتيم ممارسـة المحاكـاة عن طريق قانون الضرورة الحاسم.

الغاية الخامسة: القيام بتدريب عمليات العقل الأكـثر بسـاطة علـى بنود احتياجاته الجسمانية خـلال بعـض الوقـت، ثـم إقـرار اسـتخدامها لأغراض تعليميه.

١

الغاية الأولى: ربطه بالحياة الاجتماعية، وذلك بجعلها أكثر راحة من الحياة التي كان يعيشها آنذاك، وتكون بخاصة أكثر تماثلا مع الحياة التي تركها أخيرا.

يبدو أن بعض العوامل أدت إلى إخماد الأمل في تمدين متوحش الأفيرون وهي حدوث تغيير مفاجيء في طريقة حياته، والمضايقات المتكررة من جانب المتطفلين، والمعاملة السيئة المترتبة على اشتراكه في المعيشة مع أطفال مماثلين له في السن. إن تحول نشاطه المرح تدريجيا إلى خمول بليد تسبب في ممارسته لعادات الانعزال بصورة أكثر حدة. وكنا أيضا نجده دائما جالسا القرفصاء في أحد أركان الحديقة، أو مختبئا في الدور الثاني خلف بعض أنقاض البناء. وذلك باستثناء اللحظات التي كان فيها الجوع يقوده نحو المطبخ. وقد رآه بعض المتطفلين من سكان باريس وهو في هذه الحالة المحزنة وكان رأيهم بأنه يجدر إرساله إلى مستشفى للأمراض عقلية، كما لو كان من حق المجتمع انتزاع طفل من حياة حرة وبريئة لإرساله إلى مصحة حيث يشتد ضجره ويكفر فيها عن سوء حظه لأنه خيب آمال الفضول الشعبي. لقد اعتقدت أنه يوجد قرار أكثر بساطة، وبخاصة أكثر إنسانية، هو معاملته معاملة طيبة وإظهار التسامح تجاه رغباته وميوله. إن مدام جويران Guérin التي عهدت إليها الإدارة رعاية هذا الطفل قد أوفت ولا تزال توفي بهذه المهمة الشاقة بكل ما تتحلى به الأم من صبر وما تحمله المعلمة المستنيرة من ذكاء. فبدلا من مناوئة عاداته عرفت كيف تتآلف معها وبذلك يمكنها تحقيق المقصود من هذه الغاية الأولى.

ومهما كانت رغبتنا ضعيفة في الحكم على حياة هذا الطفل الماضية على أساس تصرفاته الراهنة، فإننا نرى بوضوح أنه -على غرار بعض المتوحشين في البلدان الحارة- لم يكن يعرف سوى أربعة أشياء هي: النوم، والأكل، وعدم العمل والطواف في الحقول. وعلى هذا كان يجب جعله سعيدا على طريقته، وذلك بأن ينام عند غروب الشمس، وتقدم له الأطعمة التي يحبها، وباحترام خموله، ومصاحبته في نزهاته أو بالأحرى في جولاته عدوا في الهواء الطلق في بعض الأوقات التي أمكن فيها ذلك. وكانت هذه الغزوات الريفية تبدو أكثر امتاعا له حين يحدث تغيير فجائي وعنيف في الجو: هذا طالما أنه من الصحيح بأن الإنسان يتوق إلى الأشياء المثيرة الجديدة مهما كانت ظروف هذه الإثارة. هكذا حينما كنا نراقب هذا الطفل أثناء وجوده داخل غرفته، كنا نراه يتأرجح في رتابة مملة، ويتجه دائما بعينيه نحو النافذة الزجاجية، ثم يجول ببصره بحزن في فضاء الهواء الخارجي. وإذا ما حدث أن هبت وقتها ريح عاصفة، أو إذا ما ظهرت فجأة الشمس وأضاءت السماء بعدما كانت مختفية وراء الغيوم، فإنه يطلق صيحات ضاحكة وصاخبة، ويظهر ابتهاجا شبه تشنجي تبدو خلاله جميع انحناءاته التي تتجه من الخلف إلى الأمام كأنها نوع من الوثوب يرغب في القيام به ليخترق النافذة ويسرع إلى الحديقة. ويحدث أحيانا أنه بدلا من حركات الابتهاج هذه، ينتابه غضب جنوني، فيلوي ذراعيه، ويلوح بقبضتيه، ويصر على أسنانه، ويصبح خطرا على أولئك الذين يكونون بجواره.

وفي صباح أحد الأيام كان الجليد يسقط بغزارة بينما كان لا يزال نائما، وعندما تيقظ من نومه صاح فرحا ، وترك فراشه جريا نحو النافذة ثم إلى الباب وأخذ يروح ويجيء بين النافذة والباب إلى أن أفلت وهو نصف عار ذاهبا إلى الحديقة. وهناك أخذ يطلق صيحات الابتهاج الأكثر حدة ، ويجري ثم يتمرغ في الجليد الذي كان يجمعه بملء يديه ويتغذى به بشراهة لا تصدق.

ولكنه عندما كان يرى هذه الظواهر الطبيعية الكبيرة لم يكن يظهر إحساساته دائما بمثل هذه الحمية وهذا الصخب. وتجدر ملاحظة أن إحساساته كانت تبدو في بعض الحالات أنها تتخذ أسلوب التعبير الهادئ عن الأسى والكآبة المبهمة: إنها أوضاع متناقضة تماما تحدث بلا تبصر، لكن لا يمكن إنكارها إذا ما قمنا بمراقبة هذا الشاب المنكوب بعناية. هكذا فإن الوقت الذي يختاره للنزول إلى الحديقة يكون حينما يضطر الجميع إلى مغادرتها بسبب قسوة الأحوال الجوية. كان يطوف في أرجاء الحديقة عدة مرات ثم ينتهي بالجلوس على حافة حوض المياه.

وكثيرا ما توقفت خلال ساعات كاملة وبسرور يعجز عن الوصف لمعاينته وهو في هذه الحالة؛ ولكي أشاهد كيف تتناقص وتهدأ تدريجيا جميع حركاته التشنجية، وتأرجح جسمه المستمر، ويحل محلها موقف أكثر هدوءا، ولكي أرقب كيف يتغير تدريجيا وجهه الفارغ من المعنى أو المقطب ليتخذ طابعا واضحا يدل على الحزن أو شرود الذهن. ويحدث ذلك كلما تعلقت عيناه بثبات فوق سطح المياه وحينما يلقي فوقه بين وقت وآخر ببقايا أوراق الشجر اليابسة. - وحينما يكون القمر مضيئا بنوره الجميل خلال الليل وعندما تدخل أشعة هذا الكوكب في غرفته فإنه نادرا ما يتوانى عن الاستيقاظ والبقاء بجوار النافذة. وتقول مربيته في تقاريرها أنه يظل بجوار النافذة خلال جزء من الليل واقفا بلا حراك، مادا لعنقه، وعيناه مثبتان في اتجاه الحقول المضاءة بالقمر، ومستسلما لنوع من الافتتان والاستغراق في التأمل. ولا ينقطع هذا الهدوء والسكون بين وقت وآخر إلا بشهيق مرتفع للغاية مصحوب بصوت نائح ضعيف. - وكان أيضا من العبث واللاإنساني محاولة الاعتراض على عاداته الأخيرة هذه، بل كانت وجهة نظري هي ربطها بحياته الجديدة لجعلها أكثر بهجة. ولكن لم يكن هذا هو الشأن بالنسبة لعاداته التي كان من مساوئها تدريب معدته وعضلاته بصفة دائمة وترك حساسية أعصابه

وقدرات عقله بلا عمل. وكان يجب علي أيضا التمسك تدريجيا بجعل جولاته أكثر ندرة، ووجبات طعامه أقل وفرة وتكرارا ، ومدة بقاءه في فراشه أقل طولا ، وأيامه أكثر فائدة لتعليمه.

٢

الغايــة الثانيــة. ـ إيقــاظ الحاســية العصبيــة باســتخدام أقــوى المنبـهات، ومـن خـلال مشـاعر المـودة والحنـان الحـارة فـي بعـض الأحيان.

يعتقد بعـض الفسيولوجيين المحدثيـن أن الحاسـية ترتبـط بعلاقــة طردية مع المدنية بمعنى أنها تزداد كلما ارتقت المدنية. ولا أعتقد أنـه بالإمكان تقديم دليل يؤكد صحــة هذا الاعتقـاد أقـوى مـن دليـل نقـص الحاسية لدى أعضـاء حس متوحش الأ فيرون. ويمكننـا الاقتنـاع بـهذا الأمر إذا ما نظرنا من جديد إلــى الوصـف السـابق عرضـه نقـلا عـن مصـدر لا يتطـرق إليـه الشـك. وبالنسـبة إلـى نفس الموضـوع فـإنني أضيف هنا بعض ملحوظاتي الأكثر أهمية.

لقد حدث أثناء عبوري حديقة الصم-البكم فــي غضـون الشتـاء، أن رأيتـه فـي مـرات عديـدة جالسـا القرفصـاء فـوق أرض رطبـة وهــو نصف عار، ويظل هكذا معرضـا للريـاح البـاردة والممطـرة خـلال ساعات طويلة. ولم يكن عضو الجلد واللمس يظـهر أيـة حاسـية تجـاه البرد فحسب بل وتجـاه الحـرارة الشديـدة أيضـا . فقد كـان يحـدث لـه يوميا حين يكون بالقرب من النار أن يتدحـرج الجمـر خـارج المدفـأة فيمسكه بأصابعه ويعيده وسط الجمر المشتعـل بـلا تعجـل شديـد. وقـد فوجيء أكثر من مـرة فـي المطبـخ وهـو يرفـع البطـاطس مـن المـاء

المغلي بنفس الطريقة؛ ويمكنني التأكيد بأنه حتى في ذلك الوقت كانت بشرته ناعمة وشبيهة بالمخمل[1].

وكثيرا ما أمكنني ملء تجاويف أنفه الخارجية بالدخان ولم يحدث أن تسبب ذلك في عطسه. ويجعلنا هذا نفترض بأنه لم يكن يوجد بين عضو الشم -المدرب للغاية- وبين حاستي التنفس والنظر أية علاقة من تلك العلاقات الخفية التي تمثل جزءا مكونا لحاسية حواسنا، والتي تقوم في مثل هذه الحالات بتحتيم حدوث العطاس أو إفراز الدموع. وكان ذرفه للدموع أقل خضوعا لانفعالاته الحزينه، فبالرغم من تعرضه خلال الشهور الأولى من حياته الجديدة إلى مضايقات لا تحصى، وإلى معاملات سيئة إلا أنه لم يحدث مطلقا أن باغته وهو يذرف الدموع. - كانت أذنه تبدو من بين جميع حواسه الأخرى أنها الأكثر حساسية. ومع ذلك فقد أدركنا أن مشاعره كانت دائما تهتز حين يسمع الصوت الذي تحدثه لوزة أو أي طعام آخر يحبه. هذه الملحوظة صادقة تماما إلا أن أذنه لم تكن تحس بالضوضاء الشديدة ولا بصوت الطلقات النارية. ففي أحد الأيام أطلقت بالقرب منه عيارين ناريين من مسدس، وبدا العيار الأول بأنه قد حرك مشاعره، أما الثاني فقد جعله يلتفت إلى الوراء فقط.

هكذا وبغض النظر عن بضع حالات مثل الحالة السابقة، حيث يمكن لقلة الاهتمام أن تتخفي في صورة عدم حاسية عضوية، فقد اكتشفنا مع ذلك شدة ضعف هذه الخاصية العصبية في غالبية حواسه. وعلى هذا فقد اشتملت خطتي على تنمية الحاسية بجميع الوسائل الممكنة، وعلى تهيئة عقله للانتباه بإعداد الحواس للانفعال بصورة أكبر. ومن بين الوسائل المتنوعة التي استخدمتها بدا تأثير الحرارة بأنه الأكثر فاعلية في هذا الاتجاه. وهو الأمر الذي يقره

---

[1] يقول أحد الذين عرفوه حين كان في سان- سيرنان: قدمت له كمية كبيرة من البطاطس؛ وقد ابتهج حين رآها، وأخذها بين يديه ورماها في النار . وبعد قليل سحبها من النار، وأكلها وهي ملتهبة للغاية .

الفيزولوجيون [1] والسياسيون [2] حين يرون أن سكان جنوب فرنسا مدينون للحرارة بحساسية جلدهم الأكثر رهافة بكثير من سكان الشمال. وقد استخدمت هذا المنبه بجميع الأساليب. لم يكن كافيا مراعاة دفئه أثناء معيشته سواء في نومه أو ملبسه، إذ كنت أعطيه يوميا حماما بمياه شديدة السخونة لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، ونكرر خلالها إعطائه دش على الرأس بالمياه الساخنة ذاتها. ولم ألحظ مطلقا أن الحرارة وتكرار الحمامات قد أعقبها التأثير المضني الذي يعزونه لها.

والواقع أنني كنت حتى أرغب في حدوث هذا لاقتناعي تماما بأن فقدان القوة العضلية في مثل هذه الحالات يكون لصالح الحاسية العصبية. وإذا كان هذا التأثير المضني لم يحدث، إلا أن الحاسية العصبية لم تخيب توقعاتي. فبعد مضي بعض الوقت أظهر متوحشنا اليافع حساسيته تجاه البرد، وأصبح يستخدم يده ليتعرف على درجة حرارة مياه الحمام، ويرفض الاستحمام إذا ما كانت المياه فاترة. وسرعان ما أدى نفس السبب إلى جعله يدرك فائدة الملابس التي لم يكن حتى ذلك الوقت يتحملها إلا بصعوبة شديدة. وبعد أن أدرك هذه الفائدة لم تبق سوى خطوة واحدة لإجباره على ارتدائه لملابسه بنفسه. وقد أمكننا بعد بضعة أيام من تحقيق ذلك بأن كنا نتركه كل صباح معرضا للبرد واضعين ملابسه بجواره إلى أن عرف بنفسه كيف يرتديها. وأمكن استخدام حيلة متشابهة إلى حد ما لاكسابه عادات النظافة، فإن تأكده بأنه سيمضي الليل كله في فراش بارد ورطب جعله يتعود على النهوض من فراشه لقضاء حاجته. وبالإضافة إلى استحمامه بالماء الساخن كان يتم تدليك عموده الفقري بل وحتى دغدغة المنطقة القطنية. وكان هذا الأسلوب الأخير مثيرا له إلى حد

---

[1] لاكوز Lacose: "رأى بشأن الإنسان جسمانيا ومعنويا"- لاروش Laroche: "تحليل وظائف الجهاز العصبى".

[2] مونتيسكيو Montesquieu: "روح القوانين"، الكتاب الرابع عشر.

أنني اضطررت إلى حظره عندما وجدت أن آثاره لم تقتصر على ازدياد بهجته، بل امتدت إلى أعضاء التناسل، وقد تدفعه حيوية بلوغه المبكر إلى اتجاهات بغيضة.

وكان ينبغي أيضا أن أضيف إلى هذه المنبهات المتنوعة منبهات أخرى لا تقل إثارة وهي تلك المتعلقة بانفعالات النفس. كانت انفعالاته المحتملة تنحصر في انفعالين هما: البهجة والغضب. لم أكن أثير غضبه إلا خلال فترات متباعدة، وذلك حتى يكون غضبه أكثر عنفا. وقد لاحظت أنه حين يحتد به الغضب، يبدو ذكاؤه في بعض الأحيان بأنه قد حصل على نوع من النمو يزوده بحيلة مبتكرة تساعده على الخروج من المأزق. ففي إحدى المرات أردنا أن نجعله يستحم بينما كان الماء لا زال فاترا، وأدى إصرارنا المتكرر إلى إشعال غضبه الشديد، ولم تستطع مربيته إقناعه لأنه كان يجس بنفسه وبأطراف أصابعه درجة حرارة المياه، وفي النهاية توجه نحوها بحمية وأمسك يدها وغمسها في البانيو.

ولأروي حدثا آخر في هذا الشأن. كان في أحد الأيام في مكتبي جالسا على أريكة عثمانية، ذهبت للجلوس بجواره ووضعت بيننا "قارورة ليد" (أول مكثف كهربائي اخترع عام ١٧٤٦) مشحونة بكهرباء خفيفة. وكان في اليوم السابق قد تلقى منها صدمة كهربائية خفيفة مما جعله يعرف تأثيرها. وحين رأيت القلق الذي انتابه بسبب وجود هذا الجهاز بالقرب منه اعتقدت أنه سوف يمسكه من كلابه ويبعده. لكنه اتخذ قرارا أكثر حكمة: فقد وضع يديه في فتحة صديريته وتراجع بضع بوصات بحيث لم يعد فخذه يتلامس مع غلاف الجهاز الخارجي. اقتربت منه أكثر ووضعت الجهاز بيننا مرة أخرى. تحرك من جديد فاقتربت منه، واستمرت هذه المناورة إلى أن وجد نفسه محصورا في طرف الأريكة تحده الحائط من الخلف ومنضدة من الأمام ثم الجهاز المخيف من ناحيتي، ووجد أنه من المستحيل عليه التحرك بوصة أخرى. وفي تلك اللحظة استغل

الفرصة التي مددت فيها ذراعي لكي أحضر ذراعه وقام بمهارة شديدة بوضع رسغ يدي فوق كلاب الجهاز . وتلقيت أنا الشحنة الكهربائية.

وإذا كنت في بعض الأحيان اضطلعت بمهمة إثارة غضب هذا الصبي اليتيم بالرغم من اهتمامي الشديد به، إلا أنني لم أترك أية فرصة تمر دون إدخال البهجة إلى نفسه: لا ريب أنه لم تكن هناك حاجة لأية وسيلة صعبة أو مكلفة من أجل تحقيق هذا الغرض. كان يكفي انعكاس شعاع من الشمس فوق سطح مرآة في غرفته ثم الطواف به فوق سقفها؛ أو إسقاط قطرات مياه من كوب مرتفع فوق أطراف أصابعه أثناء استحمامه؛ أو أيضا أن نصب قليلا من اللبن في قصعة من الخشب نضعها على أطراف البانيو، ثم تقوم ذبذبات المياه بتحريك هذه القصعة شيئا فشيئا وسط صيحات بهجته إلى أن تصبح قصعة اللبن بين متناول يديه: هذا تقريبا هو كل ما كان يجب عمله من أجل الترفيه عن ابن الطبيعة هذا ولكي ندخل البهجة إلى نفسه حتى الثمالة.

كانت تلك هي المنبهات الجسمانية والمعنوية التي استخدمتها مع مجموعة منبهات غيرها من أجل تنمية حاسية أعضاء جسمه. وقد حصلت بعد ثلاثة أشهر على إثارة عامة لجميع قواه الحسية. فأظهر اللمس حاسيته لتأثير الأجسام سواء ساخنة أو باردة، مستوية أو خشنة، هشة أو صلبة. كنت أرتدي في ذلك الوقت بنطلونا من القطيفة وكان يجد متعة في تمرير يده فوقه. كان بهذه الحاسة الاستكشافية يتأكد من درجة طهي البطاطس التي بعد أن يخرجها من الماء بالملعقة يقوم دائما يجسها بأصابعه عدة مرات، ثم يقرر على ضوء درجة رخاوتها إذا ما كان سيأكلها أم يرميها من جديد في الماء المغلي. وحين كنا نعطيه شمعدانا لإشعاله بالورقة لم يكن ينتظر دائما حتى تمسك النار بالفتيلة قبل إسراعه بالقاء الورقة بينما تكون النار لاتزال بعيدة عن يده. وحين كنا نستثيره لكي يحمل جسما ثقيلا

أو لكي يدفعه، فقد كان يتوقف أحيانا فجأة لينظر إلى أصابعه التي من المؤكد لم تكن قد جرحت أو أصيبت برضوض، ثم يضع يده بهدوء في فتحة صدريته. وحدث تغير في حاسة الشم أيضا . أصبحت أقل إثارة لعضو الشم تتسبب في عطسه، وفي المرة الأولى التي عطس فيها استولى عليه رعب شديد مما جعلني اعتقد بأنه شيء جديد بالنسبة له. وقد اضطر بعدها إلى الارتماء فوق السرير.

وكان تهذيب حاسة التذوق أكثر بروزا . كان الطعام الذي يتغذى هذا الطفل به بعد وصوله إلى باريس بقليل مقززا بشناعة. كان يصطحب طعامه معه في جميع الأركان ويعجنه بيديه المليئة بالقاذورات.

لكنه خلال الفترة التي أتحدث عنه، كثيرا ما ألقى بجميع محتويات طبق الطعام بتبرم لسقوط مادة غريبة فيه، وحينما يقوم بكسر اللوز تحت قدميه كان يقوم بتنظيفه باهتمام وبتدقيق بالغين.

وفي النهاية جاءت الأمراض لتشهد بدورها على نمو هذه الحاسية المهيمنة لدى الرجل المتمدين، والأمراض شواهد محزنة لكن يتعذر نقضها. ففي خلال الأيام الأولى من الربيع أصيب متوحشنا اليافع بزكام حاد وبعد مضي بضعة أسابيع أصيب مرتين متتاليتين بنزلات رئوية.

مع ذلك لم تمتد هذه النتائج إلى جميع الأعضاء. فإن أعضاء البصر والسمع لم تتأثرا مطلقا ، ذلك على الأرجح لأن هاتين الحاستين أكثر تعقيدا بكثير من باقي الحواس ، وكانتا تحتاجان إلى تدريب خاص وإلى وقت أكثر طولا ، كما سنرى فيما بعد.

إن تحسن الحواس الثلاث المتزامن عقب ممارسة المنبهات على الجلد، بينما ظلت الحاستان الأخيرتان (البصر والسمع) ثابتتين هو حقيقة ثمينة تستحق لفت انتباه الفسيولوجيين إليها.وتبرهن هذه الحقيقة على صحة أن حواس اللمس والتذوق والشم ليست سوى تعديلات أدخلت على الجلد، في حين أن حاستي السمع البصر تكتسيان بجهاز

جسماني شديد التعقيد وتخضعان لقواعد أخرى لتحسينها و لا بد أنـــهما تكونان نوعا خاصا قائما بذاته.

٣

الغاية الثالثة: توسيع مجال أفكاره بمنحه احتياجات جديدة، وبالإكثار من علاقاته مع الكائنات المحيطة به.

إذا كان التقدم الذي أحرزه هذا الطفل حتى الآن نحو التمدين وتنمية ذكاءه شديد البطء والصعوبة إلى هذا الحد، فيجب القائي اللوم بخاصة على الصعوبات العديدة التي واجهتها أثناء مباشرة هذه الغاية الثالثة. لقد قدمت له على التوالي ألعابا من كل نوع؛ وبذلت جهدا كبيرا في أكثر من مرة لتعليمه كيف يستخدمها، لكنني حزنت لأنها لم تستأثر بانتباهه، وانتهت هذه الأشياء المتنوعة دائما بجعله فارغ الصبر إلى حد أنه كان يخفيها أو يتلفها إذا ما لاحت له الفرصة. وهكذا بعد أن أخفى خلال أمد طويل داخل مقعد مثقوب لعبة الكرات الخشبية (البولينج) التي جلبت له بعض المضايقات من جانبنا، اتخذ قرارا في أحد الأيام بتكويمها في الموقد، ثم وجدناه جالسا أمامه يتدفأ في مرح بلهب نيران البهجة هذه.

ومع ذلك فقد تمكنت من جعله يتعلق ببعض أنواع اللهو المتصلة باحتياجات جهازه الهضمي. وهذا هو مثال على لهو كثيرا ما كنت أمنحه إياه عقب تناولنا الطعام في المدينة حينما كنت آخذه هناك للعشاء. كنت أضع أمامه بلا نظام أو تنسيق وفي وضع مقلوب عدة أكواب فضية صغيرة، وتحت أحد هذه الأكواب أضع ثمرة أبو فروة واحدة. صحيح أنني أجذب التفاته برفع كل كوب الواحد بعد الآخر فيما عدا الكوب الذي توجد تحته ثمرة أبو فروة. وبعد أن شهد بنفسه الأكواب التي لا يوجد تحتها شيء أعيد هذه إلى مكانها بنفس النظام السابق وأطلب منه بالإشارة أن يبحث بدوره عنها. كان أول كوب

يبحث تحته هو تحديدا ذلك الذي أضع تحتـه الجـائزة الصغيرة التـي يستحقها انتباهه. وإلى هذا الحد لـم يكـن الأمـر سـوى مجـهود صغير تبذله ذاكرته. لكنني شيئا فشيئا جعلت اللعبة أكثر تعقيدا. هكـذا كنـت بعد أن أضـع ثمـرة أبـو فـروة أخرى بنفس الطريقـة، أقـوم بتغيـير أوضاع جميع الأكواب حتى يصبـح مـن الصعب عليـه فـي ظـل هـذا التعاكس العام أن يتابع بعينيه وبانتباهه ذلك الكوب الذي يشتمـل علـى الوديعة الثمينة. وفعلت مـا هـو أكثر مـن ذلـك، فقد وضعـت أشيـاء أخرى تحت كوبين أو ثلاثة وبـالرغم مـن أن انتباهـه تفـرق بيـن هـذه الأشياء الثلاثة إلا أنه تابع التغيرات التي أحدثتها واتجه إليها منذ بداية بحثه عنها. وليس هذا هو كل شيء بعد، لأنه لم يكـن هـذا هـو الـهدف الوحيد الذي أقصده. لم يكـن هـذا التميـيز فـي الأكـثر إلا تدبـيرا أملتـه الشراهة. ولكي نجعل انتباهه أقـل حيوانيـة -إذا مـا صـح القـول- فقد حذفت من هذا اللهو كل ما له علاقة بالمأكولات التي يحبها ولم أضـع تحـت الأكـواب سـوى أشيـاء غـير غذائيـة. وكـانت النتيجـة مرضيـة ومماثلة إلى حد مـا، وأصبـح هـذا اللـهو ليس إلا مجـرد لعبـة أكـواب مفيدة لإثارة الانتباه، والتمييز، وثبات نظراته.

وباستثناء مثل هذه الأنواع من اللهو التي ترتبط باحتياجاته كان من المستحيل على أن أجعله يحب الألعـاب المناسبة لعمـره. وإننـي شبـه متأكد بأنني كنت سأحصل على نجاحات باهرة لو كنت قد تمكنت مـن تحقيق ذلك. ولكي ندرك معنى هذا الرأي يجب أن نتذكر التأثير القوي الذي تمارسه ألعاب الطفولة على نمو الفكر في مراحله الأولـى مثلـها في ذلك كمثل مباهج التذوق الصغيرة.

وقد فعلت أيضا كل شيء من أجـل إيقـاظ ميـول الـذوق لديـه عـن طريق أكثر أنواع قطع الحلوى تفضيلا لدى الأطفال، والتي رجـوت استخدامها كوسائل جديدة للمكافـأة والعقـاب والتشجيـع والتعليـم. لكـن كان من المتعذر التغلب على نفوره مـن جميـع المـواد السـكرية ومـن مأكولاتنـا الأكـثر لـذة. اعتقـدت حينـذاك أنـه يجـب علـي اسـتخدام

المأكولات المتبلة باعتبارها تتناسب مع حاسة هي بالضرورة منهكة بسبب أطعمة الحيوانات. لم أتمكن من تحقيق أي تحسن، وكنت أقدم له المشروبات القوية والمأكولات المت ب لة في الأوقات التي يكون فيها متعجلا بسبب جوعه أو عطشه لكن بلا أي نجاح. وبعد أن يئست أخيرا من إمكانية حثه على تذوق مأكولات جديدة، اكتفيت بالعدد القليل من المأكولات التي يقتصر عليها مع مواكبتها بجميع اللواحق المكملة التي قد تزيد من تلذذه بها حين ينكب عليها. ولهذا كثيرا ما كنت آخذه معي للعشاء في المدينة. وفي تلك الأيام كانت توضع على المائدة مجموعة كاملة من مأكولاته المفضلة. وفي المرة الأولى التي وجد نفسه يستمتع بمثل هذا العيد السعيد استولت عليه نشوة من الفرح بلغت حد الجنون. والأرجح أنه رأى وقتها أنه لن يأكل الكمية التي يحبها وأنه المسئول عن ذلك بسبب طبق العدس الذي التهمه بعد أن خطفه من المطبخ قبل مغادرته للدار. وقد سعدت بهذا الخروج الأول. إذ جلبت له المتعة، ولم يبق سوى تكرار الخروج عدة مرات لخلق حاجة جديدة لديه، وهو ما قمت بتحقيقه. وقد فعلت ما هو أكثر، فحرصت على أن تسبق هذا الخروج بعض الاستعدادات التي يمكنه ملاحظتها: كنت أدخل غرفته حوالي الرابعة بعد الظهر واضعا قبعتي فوق رأسي، وقميصه مطويا فوق ذراعي. وسرعان ما أصبحت هذه التدابير علامة على الخروج. ما أكاد أظهر حتى يرتدي ملابسه سريعا ويتبعني وقد بدت عليه علامات السرور. وإنني لا أقدم هذه الواقعة كدليل على ذكاء مرتفع، فلا يوجد إنسان لايعترض على قائلا بأن الكلب العادي للغاية يقوم على الأقل بفعل نفس الشيء. ولكن مع الإقرار بهذه المساواة المعنوية، إلا أن أولئك الذين شهدوا متوحش الأفيرون عند وصوله إلى باريس يعرفون أنه كان من ناحية التمييز يقل بكثير عن أذكى حيواناتنا المنزلية.

- وكان من المستحيل علي مرافقته في الطريق حينما أخرج معه. كان يجب أن أعدو مثله، أو استخدم الوسائل العنيفة المضنية لكي

أجعله يسير خطوا مثلي. هكذا اضطررنا إلى عدم الخروج إلا في العربة. وتكونت لديه متعة جديدة متزايدة بتكرار الخروج. وبعد أمد قليل لم تعد تلك الأيام مجرد أيام سعيدة يبتهج فيها; بل تحولت إلى حاجة حقيقية يؤدي حرمانه منها حين تتباعد الفترات الزمنية بين كل خروج وآخر إلى إصابته بالحزن والقلق وتقلب أطواره.

وكم كانت متعته تزيد حين يجري هذا اللهو في الريف. فقد أخذته منذ أمد غير بعيد إلى منزل في الريف بوادي مونمورانسي يمتلكه المواطن لاشا بوسيير. وكان مشهدا في غاية العجب بل ومؤثرا للغاية أن ترى البهجة مرتسمة على عينيه عند رؤيته للتلال والغابات الموجودة في هذا الوادي المزدهر: لم تكن نوافذ العربة كافية لإشباع شراهة نظراته. كان يجنح نحو إحدى النوافذ ثم يميل تجاه الأخرى، وكان يبدى قلقا شديدا حين تبطيء خيول العربة في سيرها أو تتوقف. وقضى يومين في هذا المنزل الريفي، وبالرغم من الرعاية الكاملة التي كان يلقاها والمودة الدائمة المحيطة به، ألا أن العناصر الخارجية لهذه التلال والغابات أصابته بنفاذ الصبر وبالقلق الشديد إلى حد أنه أصبح أسيرا لرغبته في الهرب. لقد استولت هذه الفكرة علي جميع قدراته العقلية كلية، بل وحتى على شعوره باحتياجاته حتى أنه كان بالكاد يجد وقتا لتناول الطعام، إذ يهب واقفا من على مائدة الطعام في كل دقيقة، ثم يجري إلى النافذة لكي يهرب إلى الحديقة إذا ما كان بابها مفتوحا ؛ أما إذا ما كان الباب مغلقا فإنه على الأقل يتأمل من خلال زجاج النوافذ جميع الأشياء التي كان حتى وقت قريب متعودا عليها، ولعله يفكر أيضا في ذكرى حياة سابقة مستقلة وسعيدة ومأسوفا عليها. واتخذت أيضا قرارا بألا أعرضه مرة أخرى إلى محن مماثلة. ولكن لكي لا أحرمه من ميوله الريفية تماما استمرينا في مرافقته للنزهة في بعض الحدائق القريبة التي لا تتشابه مطلقا مع هذه المشاهد الكبيرة للطبيعة البرية، والتي تجذب الصبي المتوحش بقوة نحو أماكن طفولته. هكذا كانت مدام جويران ترافقه

إلى حدائق لوكسمبورج أحيانا وإلى حديقة الأويزر فاتوار حيث تعود على الذهاب إليها يوميا تقريبا لتناول وجبة خفيفة من اللبن يقدمها له المواطن لوميري . Lemeri وقد انتهى بالميل إلى حياته الجديدة بفضل هذه العادات الجديدة، وبعض أنواع الترفيه التي كان يفضلها، وبسبب جميع المعاملات الطيبة التي كانوا يحيطونه بها. ومن هنا تولد ارتباطه الحار بمربيته الذي كان يعبر عنه أحيانا بطريقة مؤثرة. فلم يحدث قط أن فارقها دون شعوره بالغم، ولا أن التقى بها من جديد دون ظهور دلائل ابتهاجه.

وفي إحدى المرات هرب من مربيته في الشارع، لكنه ذرف دموع غزيرة حين عاد والتقى بها، وبعد مضي عدة ساعات من عودته كان تنفسه لايزال عاليا ومتقطعا وكان نبضه كأنه مصاب بحالة حمى. وحينئذ وجهت إليه مدام جويران بعض كلمات اللوم والتأنيب، وقد فهم معنى اللهجة التي تحدثت بها إلى حد أنه أخذ يبكي. كانت صداقته لي أقل من ذلك بكثير وكان لا بد وأن تكون كذلك. كانت طبيعة الرعاية التي يلقاها من مدام جويران من النوع الذي يمكن تقديره في الحال، لكن لم تكن تلك التي أمنحه إياها ذات أية فائدة محسوسة. ويعود هذا الاختلاف حقيقة إلى السبب الذي ذكرته إلى حد أنه لم يكن يحسن استقبالي إلا في أوقات معينة: لم تكن هذه الأوقات هي تلك التي كنت أقضيها في تعليمه. لكن حين أزوره في موعد ذهابه للنوم مثلا أي عند هبوط الليل كانت حركته الأولى هي الجلوس حتى يمكنني تقبيله، ثم يجذبني نحوه ممسكا بذراعي لكي أجلس بجواره على سريره. وعندئذ يقوم عادة بالإمساك بيدي ليضعها على عينيه وعلى جبهته وقفاه ثم يمسك يدي بيده فوق هذه الأجزاء لأمد طويل. وفي أحيان أخرى كان ينهض ضاحكا وصائحا ، ويقف في مواجهتي لكي يلامس ركبتي بطريقته المشتملة على مسها وتدليكها بشدة في جميع الاتجاهات، وأعترف بأنني كنت أرتضي بلا كلفة بهذه التصرفات الصبيانية.

والأرجح أنني كنت أتذكر وقتها الأثر الكبير الـذي تمارسـه علـى نفس الطفل هذه المجاملات التي لا تنضب، وتلك التفاهات والترهـات التي وضعتها الطبيعـة فـي قلـب الأم والتـي تـؤدى إلـى ظـهور أولـى البسمات وأولى مباهج الحياة.

٤

الغاية الرابعة: دفعه إلى استخدام الكلام بتحتيم ممارسة المحاكاة عن طريق قانون الضرورة الحاسم .

لو أردت الحديث عن النتائج الطيبة وحدها لكنت حذفت من هذا التقرير هذه الغاية الرابعة، والوسائل التي استخدمتها لتحقيقها، والنجاح الضئيل الذي أحرزته. لكن ليس هدفي وصف الرعاية التي قدمتها بقدر ما هو وصف التطورات المعنوية الأولى لمتوحش الأفيرون ولا يجب على حذف ما قد ينطوي على أدنى علاقة بها. وسأجد نفسي مضطرا حتى إلى تقديم بعض الأفكار النظرية هنا، وأرجو أن يغفروا لي هذا الأمر حين يرون اهتمامي بتعضيدها بالوقائع، وحين يعرفون أنه يتحتم على الرد على الاعتراضات التي لا تنتهي والقائلة: هل يتحدث المتوحش؟ وإذا لم يكن أصما فلماذا لا يتحدث ؟

وإننا نتصور بسهولة بأنه في وسط الغابات وبعيدا عن مجتمع الكائنات العاقلة لم تجرب حاسة السمع لدى متوحشنا انطباعات حسية أخرى غير تلك التي يمارسها عليها عدد قليل من الأصوات بخاصة المرتبطة بحاجاته الجسمانية. ولم يكن عضو السمع يميز الأصوات والنغمات، إذ لم يكن سوى وسيلة بسيطة للتنبيه باقتراب حيوان خطر أو بسقوط ثمرة برية. تلك كانت على الأرجح الوظائف التي اقتصر عليها السمع، إذا ما حكمنا علي عضو السمع وفقا لحالته منذ عام مضى حين كان يتأثر قليلا أو لايتأثر مطلقا بالأصوات التي لا تفيد احتياجات الفرد، والعكس صحيح إذ كان يبدي حساسية رهيفة تجاه كل ما له بعض العلاقة بحاجات الفرد. وحين كنا نقوم بتقشير أبو

فروة أو لوزة بأكبر هدوء ممكن وبدون علمه، أو حين كنا مجرد نلمس مفتاح باب الغرفة المحبوس فيها، فإنه لا يتوانى عن الالتفات فجأة والعدو نحو الموضع الذي يأتي منه الصوت. وإذا كان عضو السمع لم يظهر نفس الحساسية تجاه نطق الكلام، ولا حتى ضجيج إطلاق السلاح الناري، فهذا لأنه كان بالضرورة قليل الإحساس وقليل الانتباه لأي تأثير آخر غير ذلك الذي تعود عليه خلال أمد طويل[1]. على هذا يمكننا تصور لماذا الأذن شديدة القدرة على التقاط بعض الأصوات حتى الأكثر خفوتا ، قد تكون شديدة الضعف في تمييز النطق. ومن جهة أخرى لا يكفي التقاط نغمة الصوت حتى يتمكن الإنسان من الحديث، بل يجب أيضا تمييز معنى هذه النغمة. إنهما عمليتان متباينتان تماما ، تستوجبان شروطا مختلفة من عضو السمع. إذ يكفي لالتقاط النغمة وجود درجة معينة من حاسية العصب السمعي، ويجب من أجل تمييز معناها حدوث تغيير خاص في هذه الحاسية. وعلى هذا يمكن عدم إدراك نطق الكلمات بالرغم من أن الأذنين سليمتان تماما . وإننا نجد من بين المعتوهين العديد من البكم الذين مع ذلك ليسوا صما. ويوجد من بين تلاميذ المواطن سيكار Sicard (معلم فرنسي شهير للصم-البكم ١٧٤٢-١٨٢٢) طفلان أو ثلاثة يسمعون دقات الساعة جيدا، كما يسمعون تصفيق الأيدي وأنغام المزمار والكمان الأكثر خفوتا، والذين مع ذلك لم يستطيعوا قط محاكاة نطق إحدى الكلمات، بالرغم من تكرار نطقها بصوت شديد الارتفاع والبطء. هكذا يمكننا القول بأن الكلام هو نوع من الموسيقى

---

[1] أرجو ملاحظة أيضا أنه كلما ابتعد الإنسان عن طفولته، تصبح ممارسة حواسه يوما بعد يوم أقل شمولية ،ففي سن طفولته يرغب في رؤية ولمس كل شيء، ويضع جميع الأشياء التي يقابلها في فمه، ويرتعد عند سماعه لأقل صوت، وتتركز حواسه حول جميع الأشياء حتى تلك التي لا علاقة معروفة لها باحتياجاته وكلما ابتعد عن هذه المرحلة من حياته التي هي نوع من تدريب الحواس كلما أصبحت الأشياء لاتؤثر فيه إلا بقدر تعلقها بشهيته وبعاداته وبميوله . وحينئذ كثيرا مايحدث إلا تثير إنتباهنا سوى حسا واحدة أو حساتان . فهذا موسيقى متميز ينتبه إلى كل مايسمع ولايبالي بكل مايرى. وهذان علمان أحدهما متخصص في النبات والثاني في المعادن، ووجدا أنفسهما في حقل مليء بأشياء تتعلق بمجال أبحاثهما.

التي يمكن لبعض الآذان ألا تتأثر بها بالرغم من كونها جيدة التكوين. فهل تنطبق هذه الحالة على الطفل موضع اهتمامنا؟ لا أعتقد ذلك، ومع أن آمالي ترتكزعلى عدد قليل من الوقائع، إلا أنه من الصحيح أن محاولاتي في هذا الشأن لم تكن كثيرة ، كما أنني حرصت على اتخاذ موقف المراقب بعد أن ترددت طويلا حول الموقف الذي يجب علي اتخاذه. وبناء عليه هذا هو ما لاحظته. لم يبدو على متوحش الأ فيرون خلال الشهور الأربعة أو الخمسة الأولى التي أقام خلالها في باريس إحساسا بالأصوات المختلفة السابق ذكرها. وفي خلال شهر فريمير (الشهر الثالث من التقويم الجمهوري الفرنسي) بداعليه أنه يسمع الصوت الإنساني، وحينما كان شخصان يتحدثان في الممشى المجاور لغرفته بصوت عال، كنا نجده يقترب من الباب للتأكد من أنه محكم الإغلاق، ثم يقوم بوضع المزلاج الداخلي ويظل واضعا أصبعه فوق المزلاج للتأكد أكثر من انغلاق الباب. ولاحظت بعد مضي بعض الوقت أنه يميز صوت الصم-البكم، أو بالأحرى هذه الصيحة الصادرة من حناجرهم بصفة مستمرة أثناء لعبهم. وكان يبدو حتى بأنه يعرف المصدر الذي يخرج منه الصوت، لأنه كان حين يسمعه أثناء هبوطه السلم، لا يتوانى عن الاسراع في الهبوط أو العودة إلى الصعود وذلك تبعا لما إذا كان الصوت قادما من أسفل أم من أعلى. وفي بداية شهر نيفوز (الشهر الرابع من التقويم الجمهوري الفرنسي) عاينت ملاحظة مثيرة للاهتمام. ففي أحد الأيام بينما كان في المطبخ مشغولا بسلق بطاطس، كان شخصان يقفان خلفه ويتشاجران بحمية دون أن يبدو عليه أي اهتمام. ثم جاء ثالث ليشترك في المناقشة وكان يبتديء ردوده قائلا : "أوه!" .Oh! ولاحظت أنه كلما نطق هذا الشخص بكلمته المفضلة هذه، كان متوحش الأ فيرون يلتفت وراءه باهتمام. وفي موعد ذهابه إلى النوم مساءا قمت ببعض التجارب حول نغمة "أوه" هذه وحصلت على النتائج نفسها تقريبا. واستعرضت جميع

باقي النغمات البسيطة الأخرى المعروفة باسم حروف العلة لكن بدون نجاح. إن تفضيله لحرف O (أو) جعلني أطلق عليه اسما ينتهي بهذا اللفظ وهو فيكتور .Victor وظل هذا هو اسمه، وحين كنا نناديه بصوت عال فنادرا ما كان يتوانى عن الالتفات وراءه أو عن الإسراع. وعلى الأرجح أنه للسبب نفسه أيضا تمكن فيما بعد من فهم كلمة Non (لا)، التي كنت استخدمها مرارا لكي أجعله يعدل عن أخطائه حين يرتكب خطأ أثناء تمريناته الصغيرة.

وفي سط تطورات عضو السمع البطيئة هذه لكنها محسوسة، ظل الصوت أبكما ورافضا لأن يلفظ الأنغام المنطوقة التي كانت الأذن تبدو أنها تميزه؛ ومع ذلك لم يبدو في بنية الأعضاء الصوتية الخارجية أي آثر لوجود عيب، كما لم يوجد ما يدعو إلى الشك في سلامة بنيتها الداخلية. من الصحيح أننا نرى في الجزء العلوي والأمامي للرقبة آثار جرح كبير قديم مما يمكن أن يلقى بعض الشك على سلامة الأعضاء التحتية لو لم يكن شكل الجرح مطمئنا . والواقع أن هذه الندبة تنم عن جرح أحدثته آلة حادة، لكن حين ننظر إلى شكله الطولي فإننا نتجه إلى الاعتقاد بأن الجرح لم يصب سوى الغشاء الخارجي، وبأنه سرعان ما التأم. ويدعونا هذا الجرح إلى الافتراض بأن يدا غير مدربة على الجريمة هي التي حاولت إنهاء حياة هذا الطفل، وبأنه قد ترك ليموت في الغابات وبأنه مدين بسرعة شفاء جرحه لنجدة الطبيعة وحدها. وما كان لهذا الجرح أن يلتئم بهذه الصورة المرضية لو كانت أجزاء عضو الصوت العضلية والغضروفية قد تمزقت. وقادتني هذه التأملات إلى الاعتقاد بأنه حينما تبدأ الأذن في التقاط بعض النغمات التي لم يقم الصوت بترديدها، فلا يجب إلقاء اللوم على وجود خلل عضوي لكن على الظروف غير المواتية. إن انعدام الممارسة الكلي يجعل أعضاءنا عاجزة عن القيام بوظائفها، وإذا ما كانت الأعضاء المخصصة للقيام بهذه الوظائف تصاب بأضرار شديدة بسبب هذا التعطل، فكيف يكون الشأن بالنسبة

للأعضاء التي تنمو وتتطور دون اتجاه أي مؤثر نحو استخدامها؟ يجب مرور ثمانية عشر شهرا على الأقل من التعليم الجاد حتى يستطيع الطفل تمتمة بضع كلمات؛ ونحن نريد من ساكن غابات خشن أن يتكلم، في حين أنه لا يعيش في المجتمع إلا منذ أربعة أو خمسة عشر شهرا، قضى منها خمسة أو ستة شهور وسط الصم-البكم ! ليس من المتعذر حدوث ذلك فحسب، لكن من أجل تحقيق هذا الحد الهام من التعليم فإنه يحتاج إلى وقت أكثر ومعاناة أكبر مما يحتاجه الطفل الأقل نضوجا. إن هذا الطفل الأقل نضوجا لا يعرف شيئا لكنه يمتلك مستوى فائقا من القابلية لتعلم كل شيء: فهو يمتلك ميلا طبيعيا للمحاكاة؛ كما أن جميع أعضاء جسمه تتمتع بمرونة وبحساسية مفرطة؛ فلسانه دائم الحركة؛ وحنجرته ذات قوام شبه لزج: وباختصار فإن كل شيء لدى الطفل يساهم في خلق هذه الثغثغة المستمرة المعتبرة تدريبا لا إراديا للصوت يحدثه السعال والعطس وصرخات الطفولة بل وحتى البكاء الذي لا يجب اعتباره علامة على الانفعالية الحادة فحسب، بل ودافعا قويا يستخدم بلا توقف في فترة العمر المناسبة لتنمية أعضاء التنفس والصوت والكلام بصفة متزامنة. وليمنحونني هذه المزايا العظيمة ولسوف أعطيهم نتائجها العظيمة بدلا منها. وإذا ما أقروا معي بأنه لا يجب علينا الاعتماد على هذه المزايا لدى فيكتور الذي أصبح يافعا ، فيجب عليهم الموافقة أيضا على أن موارد الطبيعة الخصبة تعرف كيف تخلق لنفسها وسائل جديدة للتعليم حين تقوم أسباب عرضية بحرمانها من الوسائل التي أعدتها في البداية. وهذه على أية حال هي بعض الوقائع التي تجعلنا لا نتخلى عن الأمل.

لقد قلت في منطوق هذه الغاية الرابعة التي حددتها لنفسي: "دفعه إلى استخدام الكلام بتحتيم ممارسة المحاكاة عن طريق قانون الضرورة الحاسم." والواقع أنه بسبب اقتناعي بالاعتبارات الواردة في هاتين الفقرتين الأخيرتين، ولاعتبار آخر لا يقل حسما سأعرضه

بعد قليل، فإنــه مــا كــان يجـب انتظــار اشتغــال الحنجـرة إلا فـي وقـت متــأخر وكــان يجـب تنشيطـــهاعن طريـــق الأشيـــاء الضروريــــة لاحتياجاتها. وكان لدي ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه بما أن حرف العلة oكان أول حرف تم سماعه، فسوف يكون هو أول حرف يتم نطقـه، وقد وجدت أن خطتي قد لاقت توفيقا لأن هـذا النطـق البسـيط علامـة على أحد الاحتياجـات العاديـة لـهذا الطفـل. ومـع ذلـك لـم أتمكـن مـن الانتفاع بأية صورة من هذه المصادفــة السـعيدة. ففـي الأوقـات التـي يكون عطشه فيها شديدا كنت أمسك أمامه إناءا مليئا بالماء وأصيــح مرارا قائلا أوه، أوه eau, eau (أي ماء، ماء وتنطق بالفرنسية أوه)، بينمــا أقـوم بمناولـة الإنــاء إلــى شخــص آخــر يقـف بجانبــه ويقــوم بتكرار الكلمة نفسها، ثم أطلب مـن هـذا الشخـص إعطـائي المـاء مـرة أخرى، ويظل الطفل التعيس معذبا وهو يتحرك في جميع الاتجاهات ويحرك ذراعيه حول الإناء بطريقة عصبية ويطلق نوعا من الصفير لكنه لا يلفظ بأية صوت. وكان من اللانسانية أن استمر أكثر من ذلك. وقـد غـيرت الموضـوع لكنني لـم أغـير الطريقـة. وبـدأت فـــي بــذل محاولاتي حول كلمة "ليه" lait (أي " لبن" وتنطق بالفرنسـية " ليـه ").

وفي اليوم الرابع من بدء هـذه التجربـة الثانيـة نجحت فـي تحقيـق رغباتي، وسمعت فيكتور ينطق بوضوح وبطريقة خشنة إلى حـد مـا كلمة "ليه" lait (لبن) التي قام بتكرارها في الحال. وكـانت هـذه هـي المرة الأولــى التـي يصـدر فيـها نغمـة منطوقـة، وقـد سـمعتها بفرحـة شديدة.

ومع ذلك فقد نقصت قيمة هذا النجاح الأول في نظري كثيرا بسبب بعض التأملات. إذ أنه لم ينطق كلمة "ليه" lait مشوبة بفرح شديد إلا حينما صببت اللبن في الكوب الذي قدمه لي وبعد أن فقدت الأمـل فـي النجاح، كما أنه لم ينطقها مرة أخرى إلا حين قمـت مـن جديـد بصـب اللبن في كوبه كمكافأة له. ونستطيع أن نرى السـبب الـذي يجعـل هـذه

النتيجة لا تحقق الغايات التـي أرجوها، فقد نطـق بالكلمـة باعتبارها صيحة ابتهاج عقيمة بدلا من أن تكون علامة على احتياجه للبـن. لـو كانت كلمة "لبن" هذه خرجت من فمـه قبـل منحـه الشـيء المطلـوب لكان النجـاح قد تحقـق؛ وكـان فيكتـور قد أدرك الاستخدام الحقيقـي للكـلام ممـا يتيـح إقامـة اتصـال بينـي وبينـه يسـمح بـاطراد النجـاح وتزايده. وبدلا من كل ذلك لم أحصل إلا عن تعبير عن السرور الذى شعر به وهو أمر غير مـهم لـه وغـير مفيـد لنـا. كـان مـا حـدث هـو علامة صوتية، ودليل على امتلاك عضو الصوت. لكنني أكـرر بـأن هذا لا يقيم أية علاقة بيني بينه، ولا بد من إهماله فيما بعـد لأنـه عقيـم بالنسبة لاحتياجات الفرد. وقد فزعـت مـن النتـائج المترتبـة علـى هـذا الاتجاه الخاطيء.

وفي أكثر الأحيان لم نكن نسمع منه كلمة "لبن" إلا أثنـاء ابتهاجـه بالمشروب. وفي بعض الأحيان نطق هذه الكلمة قبل حصولـه عليـه، وفي أحيان أخرى نطقـها بعـد حصولـه علـى اللبـن بقليل، لكنـه كـان يقولها دائما بلا قصد. ولم أعد أبـدي اهتمامـا حيـن كـان يكـرر هـذه الكلمة تلقائيا والتي ظل يكررها أثناء الليل عندما يصحـو مـن نومـه. وبعد حصولي على هذه النتيجة الأولى تخليت تماما عن الطريقة التـي استخدمتها، وذلك في انتظار الوقـت الـذي تسمح فيـه الظـروف بـأن استبدلها بطريقة أخـرى أكـثر فاعليـة. تركـت عضـو الصـوت لتـأثير المحاكاة الذي بالرغم من ضعفه إلا أنه مع ذلك لم يكن خامدا تماما، خاصـة إذا مـا أصدرنـا حكمنـا علـى ضـوء ماحققـه مـن بعـض التقدم اللاحق والتلقائي.

وكانت كلمة "ليه" lait بالنسـبة لفيكتـور جـذرا لكلمتيـن أخريتيـن ذات مقطع واحد هما la (لا) و li (لـي)، ومـن المحقق أنـه لـم يكـن يعني بهما شيئا. ثم عد ل من الكلمـة الثانيـة بـأن أضـاف لـها حـرف "ل" l صامت آخر وكان ينطقه مثل كلمة gli فـي اللغـة الإيطاليـة. كنا نسمعه مرارا يقول " لي، لي" lli، lli بعذوبة ورقة مع تغيـير فـي

مقام الصوت. ومن العجيب أن حرف L الصامت الذي يعتبر بالنسبة للأطفال من أكثر الحروف صعوبة في نطقها كان من أوائل الحروف التي ينطقها هو. ولن أكون بعيدا عن الحقيقة إذا ما اعتقدت بوجود علاقة بين الجهد الشاق الذي يبذله في هذا النطق وبين ميوله تجاه julie (ولي) وهو اسم فتاة يافعة تبلغ الحادي أو الثاني عشر من عمرها كانت تجيء لتمضية أيام الآحاد مع أمها مدام جويران. ومن المحقق أنه في ذلك اليوم كانت تكثر صيحاتIli ، Ili بل وكان يوجهها حتى لمربيته، كما ويتم سماعها أثناء الليل حينما يكون نائما بعمق. ولايمكننا أن نحدد بدقة سبب هذه الواقعة الأخيرة ومدلولها. يجب انتظار بروز المراهقة أكثر لكي تزودنا بعدد أكبر من الملاحظات وحتى نستطيع تصنيفها وتحليلها. وكانت آخر منجزات عضو الصوت أكثر أهمية لأنها تتكون من مقطعين يتعادلان مع ثلاثة مقاطع بسبب طريقته في نطق مقطعها الأخير.

هذا الإنجاز الجديد هو Oh Dieu! (تنطق "أوه ديو" ومعناها "ياإلهي!") التي تعلمها من مدام جويران وكان يطلقها مرارا أثناء شدة ابتهاجه. ولكنه كان ينطقها بعد أن يحذف حرف u الواقع في آخر الكلمة، مع تشديده على حرف i وكأنه حرفين متتاليين.، ذلك بطريقة تجعلنا نسمعه يصيح قائلا بوضوح Oh Diie! Oh Diie!: (وتنطق أوه دييو! أو دييو!) . إن حرف o الذي نجده في هذه النغمة الجديدة لم يكن جديدا بالنسبة له فقد كنت قد توصلت من قبل في جعله ينطقه.

كانت هذه هي النقطة التي وصلنا إليها فيما يتعلق بعضو الصوت. وإننا نرى أن جميع حروف العلة فيما عدا حرف u قد أصبحت فعلا من بين النغمات القليلة التي يلفظها، والتي لا تضم سوى ثلاثة حروف ساكنة هيl ،d ، و I صامتة. ومن المؤكد أن هذا التقدم ضعيف للغاية إذا ما قارناه بالتقدم الذي يحققه نمو الصوت الإنساني نموا كاملا ، لكنه بدا لي كافيا لضمان حدوث هذا النمو. وقد سبق أن ذكرت الأسباب التي تجعل هذا النمو طويلا وصعبا. ولا يزال

يوجد سبب آخر لا يقل في أهميته ولايجب على إهمالـه، هـو السـهولة التي يجدها متوحشنا اليافع في التعبير عن احتياجاتـه بطريقـة أخـرى غير الكلام[1]. وتتبدى جميع رغباته من خـلال علامـات معبرة للغايـة تشتمل على التدرجات والمرادفـات المماثلـة لتعبيراتنـا. فحيـن يحل موعد نزهته يتجه عدة مرات نحو نافذة غرفته وبابها. وإذا ما لاحـظ أن مربيتـه ليسـت متأهبـة بعد للخـروج فإنـه يضـع أمامـها الأشيـاء اللازمـة لزينتـها، ولفـرط نفـاذ صـبره يذهـب إلـى حـد مسـاعدتها فـي ارتداء ملابسها. وعندما تنتهي من استعدادها يسرع بهبوط السلم قبلها ويقوم بنفسه بشد حبل الباب لفتحه. وحيـن يصـل إلـى المرصـد فـأول شيء يطلبه هو اللبن، ويظهر رغبته هـذه بتقديم قصعـة مـن الخشـب لاينسى اطلاقا أن يضعها في جيبه قبل خروجه. وقد حصل على هذه القصعة لأول مرة في اليوم التـالي بعـد أن كسـر كـوب مـن الصينـي كان يستخدمه لشرب اللبن.

ومن أجل استكمال متعته أثنـاء سهراته المسائية كنـا منـذ بعـض الوقت نتيح له الانتقال فـي عربـة نقالـة ذات عجلتيـن (كـانت تسـتخدم قديما لنقل الأشخاص). وكان منـذ ذلـك الحيـن إذا مـا اسـتولت عليـه الرغبة في استخدامها ولم يتقدم أحد لتحقيـق رغبتـه، فإنـه يدخـل إلـى المنزل ويمسك أحدهم من ذراعه ويقوده نحو الحديقة ويضع بين يديه ذراعـي العربـة النقالـة ثـم يجلـس علـي مقعدهـا، وإذا مـا تـم رفـض الاستجابة إلى مطلبه يغادر مقعدها ويعـود للإمسـاك بذراعـي العربـة لكي يدفعها عدة دورات ثم يعيدها إلى مكانـها، متخيـلا علـى الأرجـح بأنه إذا ما كانت رغبته لم تتحقق إلا أنه قد عـبر عنـها بوضـوح. ومـا الذي يحدث حين كان يرغب في تناول العشاء؟ إنه يظهر هذه الرغبة بوضـوح تـام. إذ يقـوم بنفسـه بـترتيب المـائدة ويقـدم لمـدام جويـران

---

[1] تؤكد ملاحظاتى حول هذه النقطة رأى كوندياك الذى يقول فىحديثه عن منشأ لغـة الحـواس: " كانت لغة الفعل طبيعية للغاية حين ذاك لكنها تمثل عقبـة كبيرة يجب التغلـب عليـها ، وهـل كـان مـن الممكن التخلى عنها واللجوء إلى غيرها لانستطيع التكهن بمزاياها ونعرف صعوبتها ؟ ".

الأطباق لكي تنزل إلى المطبخ لملئها بالطعام. وإذا ما كنت أتناول العشاء معه في المدينة، فإنه يتوجه دائما بجميع طلباته إلى الشخص الذي يقوم باستقبالنا. وإذا ما تجاهلوا طلبه، يقوم بوضع طبقه بجوار المأكولات التي يفترسها بعينيه. وإذا لم يحصل على نتيجة يمسك بالشوكة ويقرع بها حافة الطبق مرتين أو ثلاث مرات. هل لا زالوا يصرون على تجاهله؟ في هذه الحالة لا يظل ملتزما بالحذر لكنه يغمس الملعقة أو حتى يده في وعاء الطعام ليفرغه بالكامل وفي غمضة عين داخل طبقه. إنه نادرا ما يكون أقل من ذلك بلاغة في طريقة الإفصاح عن انفعالاته النفسية وبخاصة عن نفاذ صبره وتكدره. ويعرف العديد من المتطفلين كيف أنه حين يصاب بالإرهاق من طول زيارتهم له يقوم بصرفهم بصراحة طبيعية كاملة، فيقدم لكل فرد منهم عصاه وقبعته وقفازه دون خلط أو خطأ، ويدفعهم برقة نحو الباب ثم يغلقه بعنف خلفهم[١].

ومن أجل إكمال قصة اللغة الإيمائية هذه، يجب القول أيضا أن فيكتور كان يسمع هذه اللغة بنفس قدر السهولة التي يتحدث بها.

كان يكفي لمدام جويران لكي ترسله لإحضار مياه أن تجعله يرى الإبريق فارغا بأن تجعل الإبريق مقلوب الوضع.

وكان يكفيني القيام بعمل مماثل لكي أجعله يقدم لي ماء للشرب أثناء تناولنا العشاء معا في المدينة الخ. ومن المدهش بأنه باستخدامه لهذه الطريقة للاتصال لا يحتاج لأي درس تمهيدي ولا لأي اتفاق متبادل لكي يجعل الآخرين يفهمونه. وفي أحد الأيام اقتنعت بصحة هذا الأمر عن طريق تجربة حاسمة. فقد اخترت شيئا تأكدت مقدما أنه لا توجد أية علامة متبادله بينه وبين مربيته تدل عليه.

---

[١] تجدر ملاحظة أن لغة الفعل هذه طبيعية تماما، وأنه كان يستخدمها بالطريقة الأكثر بلاغة منذ الأيام الأولى لدخوله فى المجتمع . يقول المواطن مونستانت ايستيف الذى شاهده فى بدايات تلك الفترة المثيرة. " حينما كان يشعر بالعطش كان يلتفت يمينا ويسارا وحينما يرى إبريقا يضع يده فى يدى ويقودنى نحوه ثم يقرعه بيده اليسرى طالبا منى إعطاءه ماء ليشرب كنا نحضر له نبيذا لكنه كان يرفضه ويبدى نفاذ صبره بسبب تأخيرى فى إعطائه الماء."

وقع اختياري على المشط المخصص لتمشيط شعره ورغبت في أن يحضره لي. وقد أخطأت لأنني ظننت بأنني إذا ما نفشت شعر رأسي في جميع الاتجاهات وجعلته يراه منفوشا فإنه لن يفهم ما أعنيه. الواقع أنه حالما نفشت شعري حتى وجدت بين يدي الشيء الذي طلبته. ولا يرى العديد من الأشخاص في جميع هذه الأساليب سوى أنها سلوك حيوان، لكنني شخصيا أعتقد أن لغة الفعل هذه هي اللغة البدائية التي استخدمها النوع الإنساني في الأصل عند بداية المجتمعات الأولى، وذلك قبل أن تؤدي جهود قرون عديدة إلى تزويد الإنسان بنظام الكلام وهو نظام خصب وسامي يبرز فكر الإنسان حتى وهو لا يزال في مهده. ويقوم الإنسان باستخدام نظام الكلام طوال حياته دون أن يدرك مدى أهميته بالنسبة له وماذا سيكون حاله لو حدث وأنه حرم منه لأسباب عارضة كما حدث في هذه الحالة التي نهتم بها. والأرجح أنه سيأتي اليوم الذي ستؤدي فيه احتياجات فيكتور الأكثر تعددا إلى دفعه لاستخدام علامات جديدة. إن استخدامه المعيب لنغماته الجديدة هذه يمكن أن يعطل وصوله لكنه لن يمنعه. والأرجح أنه سيحدث له ما يحدث للطفل الذي يتمتم في البداية كلمة "بابا" من غير أن يربطها بأية فكرة محددة، ويستمر في قولها في جميع الأماكن وفي كل مناسبة، ثم يمنحها إلى جميع الرجال الذين يراهم، ولا يصل إلى استخدامها بالصورة الوحيدة الصحيحة إلا بعد عمليات تفكير واستدلال عديدة.

٥

الغاية الخامسة: القيام خلال فترة معينة بممارسة عمليات العقل الأكثر بساطة على أغراض احتياجاته الجسمانية، ثم إقرار استخدامها لأغراض تعليمية.

إذا ما تأملنا الإنسان من ناحية إدراكه في نعومة أظفاره، فإنه لا يبدو متفوقا على الحيوانات الأخرى. فجميع ملكاته الذهنية محصورة بدقة داخل دائرة ضيقة من احتياجاته الجسمانية، ومن أجل هذه الاحتياجات وحدها تتمرس عملياته الذهنيه. وإذن يجب على التربية أن تستحوز على هذه العمليات وتستخدمها في تعليمه، أي في نظام جديد للأمور ليس له أدنى علاقة باحتياجاته الأولية. وتنتج عن هذا الاستخدام جميع معارفه، وكل تقدم لعقله، والتصورات الماهرة الأكثر سموا . ومهما كانت درجة رجاحة هذه الفكرة، فإنني لا أذكرها هنا إلا باعتبارها نقطة بدء للمسيرة التي سلكتها لتحقيق هذه الغاية الأخيرة.

لن أدخل في تفاصيل الوسائل التي استخدمت لتدريب ملكات متوحش الأ فيرون الذهنية على الأشياء التي كان يشتهي أكلها. لم تكن هذه الوسائل شيئا آخر غير إقامة عوائق بينه وبين احتياجاته بصفة متزايدة وجديدة دائما بحيث لا يستطيع التغلب عليها إلا بالمداومة على استخدام انتباهه، وذاكرته، وأحكامه، وجميع ملكاته

الحسية[1]. هكذا نمت جميع الملكات اللازمة لتعليمه، ولم يتبق إلا العثور على الوسائل الأكثر سهولة لاستثمارها. كان يجب علي أيضا عدم الاعتماد كثيرا على قدرات حاسة السمع، فإن متوحش الأ فيرون لم يكن يعتبر من هذه الناحية إلا أصما وأبكما. وقد دفعني هذا الاعتبار إلى تجريب طريقة المواطن سيكار Sicard (معلم ومؤلف فرنسي للصم والبكم ١٧٤٢-١٨٢٢). هكذا بدأت بالطرق الأولى المألوفة في هذه المدرسة الشهيرة، ورسمت على لوحة سوداء شكلا خطيا لبضعة أجسام مثل مفتاح ومقص ومطرقة والتي يمكن تصوير أشكالها برسوم بسيطة. وكنت أضع الجسم على الرسم الخاص به مع تكرار هذا العمل مرة بعد أخرى بينما هو يراقبني، وبعدما تأكدت بأنني جعلته يشعر بالعلاقة بينهما، طلبت منه إحضار الجسم الذي أشير إلى رسمه الخاص به. لم أحصل على نتيجة، فأعدت تكرار ما سبق عدة مرات أخرى لكنني لم أنجح إلا قليلا: كان يرفض بعناد إحضار الشيء الذي أشرت إلى الرسم الخاص به أو أنه كان يحضر الأشياء الثلاثة معا. وقد تصورت بأن السبب في سلوكه هذا هو كسله لأنه يريد إحضار كل شيء دفعة واحدة بدلا من

---

[1] من المفيد ملاحظة إننى لم أجد أى صعوبة فى تحقيق هذا الهدف الأول. إذ كلما تعلق الأمر باحتياجاته، يبدو إنتباهه وذاكرته وذكاؤه بأنهم يسمون فوق ذاته؛ وقد أمكن دائما إجراء هذه الملحوظة التى ستقودنا نحو التكهن بمستقبل موفق إذا ما إجتهدنا فى تعميقها. ولا أتردد فى القول بأننى أعتبر تمكنه بعد مضى ستة أسابيع من إقامته فى المجتمع من تعلم إعداد طعامه بالعناية وبالدقة اللتين وصفهما لنا المواطن بوناتير "عالم الطبيعة" كدليل قوى على الذكاء. ويقول بوناتير:(كان شاغله خلال إقامته فى روديس هو نزع فصوص الفاصوليا، وكان ينبذ هذه المهمة بفطنة لاتقل عن فطنة الإنسان الأكثر تمرثا على هذا العمل. وبما أنه كان يعرف بالتجربة بأن هذا النوع من الخضروات مخصص لإعاشته فقد كان يذهب لإحضار الحلة حالما يحضرون لهم حزمة من قرون الفاصوليا، ثم يقوم بإعداد المكان فى وسط الشقة لإنجاز مهمة تقشيرها. ويقوم بتوزيع المواد فى هذا المكان بطريقة تجعل عمله سهلا ومتيسرا. فيضع الوعاء على اليمين والفاصوليا على اليسار ويقوم بشق قرون الفاصوليا الواحد بعد الآخر بإستخدام أصابعه فى خفة ورشاقة لا نظير لهما. وكان يضع الحبوب السليمة فى الوعاء ثم يلقى بتلك التى قد تكون عطمة أو ملطخة، وإذا ماحدث أنسقطت منه إحدى الحبات صدفة فإنه يتتبعها بعينيه ويلتقطها ليضعها مع الآخريات. وكان كلما ينزع حبات الفاصوليا من قرونها يضعها بجواره فى أكواب منتظمة، وحينما ينتهى من عمله يرفع الوعاء ليضع فيه الماء ثم يضعه فوق النار التى يحافظ على إشتعالها بإضافة قشور الفاصوليا التى كومها بجواره. وإذا ما إنطفأت النار فإنه يستخدم الجاروف الذى يحتفظ به لدى المشرف على شئونه ..إلخ).

إحضاره على دفعات. وتنبهت حينذاك إلى وسيلة تجبره على توزيع انتباهه على كل من هذه الأجسام على حدة. كنت قد لاحظت منذ بضعة شهور مضت أنه يميل بوضوح إلى الترتيب: وكان يصل في هذا إلى حد النهوض أحيانا من فراشه لكي يعيد قطعة موبيليا أو إحدى الأدوات المنزلية إلى مكانها المعتاد والتي قد تكون قد تزحزحت عن مكانها لأي سبب من الأسباب. وذهب في ميوله هذه إلى حد آخر أكثر بعدا وهو الأشياء المعلقة فوق الجدران: كان كل شيء معلقا له مسماره وكلابه الخاصين، وإذا ما حدث عرضا أن تغيرت مواضعه فإنه لا يهدأ إلا بعد أن يقوم بنفسه بإعادته إلى مكانه. ولم يتبق إذن إلا أن أخضع الأجسام التي أريد تدريب انتباهه عليها إلى نفس الترتيب. قمت بتعليق كل جسم من الأجسام الثلاثة تحت الرسم المختص به وتركتها جميعا في مكانها لبعض الوقت. وحينما قمت بعدها برفعها من مكانها وإعطائها لفيكتور، سرعان ما أعاد وضعها في أماكنها الخاصة بها. قمت بتكرار نفس العملية مرارا وكنت أحصل في كل مرة على نفس النتائج. ومن أجل التحقق من النتائج قمت بتغيير أماكن الرسومات، فرأيته بعدها يعيد وضع الأجسام في أماكنها السابقة بلا مراعاة لتغير أماكن رسوماتها. وفي الواقع أنه لم يكن هناك ما هو أكثر سهولة من تعليمه التنظيم الجديد المترتب على تغيير مواضع الرسومات، ولا ما هو أصعب من جعله يعقل ما يفعل. كانت ذاكرته وحدها هي التي تقوم بعمل الترتيب. وحينئذ ثابرت من أجل تحييد المساعدات التي يحصل عليها من ذاكرته. وقد توصلت إلى ذلك بإنهاكه بلا توقف عن طريق زيادة عدد الرسومات وكثرة تغيير مواضعها. وبذلك أصبحت ذاكرته مرشدا غير كافيا من أجل ترتيب هذه الأجسام العديدة ترتيبا منهجيا، واضطر ذهنه إلى اللجوء إلى المقارنة بين الرسم والشيء المرسوم. ما أصعب الخطوة التي أمكنني أن أخطوها. لقد تأكدت تماما من ذلك حين رأيت فيكتور يتجه بنظره على التتابع نحو كل جسم على حدة

ليختار أحدها ثم يبحث بعد ذلك عن الشكل الذي يتناظر معه، وسرعان ما حصلت على البرهان المادي عن طريق قيامي بعكس الأشكال بينما يقوم هو بالتالي بعكس الأجسام بطريقة منسقة.

وقد أوحت لي هذه النتيجة بآمال مشرقة وباهرة. اعتقدت بأنه لن توجد بعد ذلك عقبة لا أستطيع التغلب عليها، في حين واجهتني إحدى العقبات الأكثر صعوبة التي أعاقتني بشدة وأجبرتني على التخلي عن طريقتي. إننا نعرف أنه عند تعليم الصم - البكم نقوم عادة عقب طريقة المقارنة الأولى هذه بتطبيق طريقة أخرى أكثر صعوبة. فبعد أن نجعل الشخص يشعر عن طريق المقارنات المتكررة بالعلاقة بين الشيء ورسمه، فإننا نضع حول الرسم جميع الحروف المكونة للكلمة الدالة على الشيء الذي يمثله الشكل المرسوم. ونقوم بعدها بمسح الرسم ولا تتبقى غير حروف الكلمة. ولا يرى الأصم- الأبكم في هذه العملية الثانية سوى تغيير في الرسم لكنه يستمر بالنسبة له كعلامة على الشيء. ولكن بالنسبة لفيكتور كان الأمر مختلفا، فبالرغم من كثرة التكرار ومن ترك الشيء معروضا تحت اسمه لفترات طويلة إلا أنه لم يتمكن من إدراك العلاقة. ولم أجد مشقة في تعليل هذه العقبة، وكان من السهل علي إدراك لماذا كان من المتعذر التغلب عليها. فالمسافة بين شكل أحد الأجسام وبين تمثل هذا الجسم بالحروف الأبجدية شاسعة وكبيرة للغاية خاصة بالنسبة للتلميذ الذي أمامنا الذي يخطو خطواته التعليمية الأولى. وإذا ما كان الصم- البكم لا يتوقفون أمام هذه العقبة فذلك لأنهم الأكثر انتباها والأكثر قدرة على الملاحظة من بين جميع الأطفال. وحيث أنهم متعودون منذ نعومة أظفارهم على السمع وعلى الحديث بأعينهم فإنهم متمرسون أكثر من أي شخص آخر على تقدير العلاقات بين الأجسام المرئية.

وبناء عليه كان يجب البحث عن طريقة أكثر تماثلا مع ملكات فيكتور التي لا تزال خامدة، وبموجب هذه الطريقة يؤدي التغلب علي إحدى العقبات إلى رفعه إلى مستوى العقبة الجديدة التي يجب التغلب

عليها. وفي هذا الإطار وضعت خطتي الجديدة. ولن أتوقف عن إجراء تحليل للمواقف، كما سنصدر أحكامنا على ضوء التنفيذ.

قمت بلصق ثلاث قطع من الورق مختلفة الأشكال والألوان بوضوح على لوح من الخشب مساحته قدمان مربعان. كان شكل القطعة الأولى دائري ولونها أحمر، والثانية مثلثة وزرقاء، والثالثة مربعة وسوداء. وأحضرت ثلاث قطع كرتون متماثلة مع قطع الورق هذه في أشكالها وفي ألوانها ثم قمت بتثبيت كل منها فوق مثيلتها بواسطة مسمار في منتصفها وتركتها بضعة أيام. وبعد أن تم انتزاعها من أماكنها أعطيتها لفيكتور الذي أعادها إلى مكانها بسهولة. وقمت بقلب اللوحة وتغيير ترتيب الأشكال للتحقق من أن هذه النتائج الأولى ليست قائمة على التقليد إطلاقا، بل على المقارنة. وبعد مضي عدة أيام استبدلت اللوحة بأخرى غيرها. وقمت برسم نفس الأشكال السابقة لكنها كانت جميعها ذات لون واحد. ففي اللوحة الأولى كانت لدى تلميذنا علامتان هما الأشكال والألوان؛ في حين لم يكن أمامه في اللوحة الثانية سوى مرشد واحد هوالمقارنة بين الأشكال. وفي الوقت نفسه تقريبا قدمت له لوحة ثالثة حيث كانت جميع الأشكال متساوية، وقد حصلت دائما على النتائج نفسها لأنني أعتبر بأن أخطاء الانتباه الصغيرة لا قيمة لها. وقد دفعتني السهولة التي أجرى بها هذه المقارنات الصغيرة إلى جعله يقوم بمقارنات أخرى جديدة . قمت بإدخال بعض الإضافات وبإجراء بعض التعديلات على اللوحتين الأخيرتين. أضفت أشكالا أخرى أقل وضوحا وألوانا جديدة لا توجد بينها سوى فروق دقيقة. كان يوجد على اللوحة الأولى مثلا متوازي للأضلاع قليل الاستطالة وإلى جانبه مربع، وفي اللوحة الثانية عينة من الأزرق السماوي إلى جانب الأزرق الباهت. وقد ارتكب بعض الأخطاء في هذا الشأن، كما أبدى بعض التردد والحيرة، لكن كل ذلك اختفى بعد بضعة أيام من التمرين.

ودفعتني هذه النتائج إلى التجاسر على القيام بتغييرات جديدة أكثر صعوبة؛ ففي كل يوم كنت أضيف وأحذف وأجري تعديلات ومقارنات جديدة. وفي النهاية أدى تكاثر هذه التدريبات الصغيرة وتعقدها إلى إنهاك انتباهه وطاعته. وحينئذ عادت للظهور بحدة حركات نفاذ الصبر والغضب التي كانت تنشب بعنف شديد في بداية إقامته في باريس بخاصة حين وجد نفسه محبوسا داخل الغرفة. ومهما يكن الأمر فقد بدا لي أن الوقت قد حان بوجوب عدم تهدئة هذه الحركات بالتسامح، بل التغلب عليها بالقوة. وبناء عليه اعتقدت بضرورة الإلحاح.

هكذا حين أصيب بالسأم من العمل الذي - والحق يقال- لم يكن يدري الهدف منه ومن الطبيعي أن يضجر منه، فقد قام بالإمساك بقطع الكرتون وبإلقائها على الأرض في غيظ، والذهاب إلى فراشه في غضب. توقفت لمدة دقيقة أو دقيقتين ثم أعدت الكرة، وبهدوء إعصاب شديد جعلته يقوم بجمع قطع الكرتون المبعثرة في الغرفة ولم أتركه يستريح إلا بعد أن أعادها كلها إلى أماكنها.

لم ينجح عنادي سوى لبضعة أيام لكنه في النهاية انهزم أمام طبعه المستقل هذا. لقد أصبحت فورات غضبه أكثر تكرارا وأكثر عنفا تتماثل مع تلك التي سبق أن تحدثت عنها لكن تختلف عنها من حيث أن آثارها كانت موجهة نحو الأشخاص أقل مما نحو الأشياء. وتمادى في هذه الرغبة الهدامة إذ كان يقرض ملاءات وأغطية فراشه ويبعثر في غرفته رماد المدفأة وجمراتها المشتعلة، ثم ينتهي بالإصابة باختلاجات تتماثل مع الصرع من حيث توقف الوظائف الحسية بصفة شبه كاملة. وقد أجبرت على الخضوع حين وصلت الأمور إلى هذا الحد المرعب؛ ومع ذلك فإن تسامحي زاد الأمر سوءا، فقد أصبحت فورات غضبه كثيرة وقابلة للتجدد بسبب أية مضايقة، بل وبلا سبب محدد في أحيان كثيرة.

بلغت حيرتي أقصى حدودها. وأدركت عدم نجاح مجهوداتي إلا في جعل هذا الطفل المسكين منكودا بمرض الصرع. فبعد بضع نوبات غضب ستؤدي قوة العادة إلى توطيد مرض من أشد الأمراض رعبا وأقلها قابلية للشفاء. يجب إذن علاج هذه الحالة بأسرع وقت ممكن، وذلك ليس بالأدوية التي غالبا ما تكون غير مجدية، وليس بالمعاملة برقة ولطف التي لم يعد مأمولا في جدواها، بل بطريقة مثيرة للانزعاج والقلق شبيهة إلى حد ما بالطريقة التي استخدمها بويرهاف Boerhaave (طبيب هولندي شهير ١٦٦٨-١٧٣٨) في مستشفى هارلم. وتصورت أنه إذا ما فشلت الطريقة الأولى التي سأستخدمها في تحقيق نتيجة إيجابية، فالمرض سوف يتفاقم وسيصبح كل علاج مماثل غير مجد. وعلى ضوء اعتقادي المتأصل هذا اخترت الطريقة التي اعتقدت أنها الأكثر إثارة لرعب كائن لم يعرف خلال حياته الجديدة أي نوع من أنواع الخطر.

كانت مدام جويران قد اصطحبته إلى المرصد في وقت سابق وقادته إلى "مصطبة المرصد" التي نعرف كم هي شاهقة الارتفاع. وما كاد يقترب من حاجز هذه المصطبة حتى استولى عليه الرعب والارتجاف الشامل، وعاد إلى مربيته وقد اكتسى وجهه بالعرق، ثم جذبها من ذراعها نحو باب الخروج ولم يستعد بعض الهدوء إلا عند هبوطه إلى أسفل السلم. ما الذي يمكن أن يكون السبب في مثل هذا الهلع؟ لم يكن هذا هو الهدف الذي سعيت إليه مطلقا؛ فقد كان يكفيني معرفة نتيجة ما حدث لكي استخدمها في تحقيق أهدافي. وسرعان ما أتيحت أمامي الفرصة خلال إحدى نوباته الأكثر عنفا التي رأيت ضرورة إثارتها باستئناف تدريباتنا. وقد انتهزت فرصة الوقت الذي كانت فيه وظائفه الحسية لم تتوقف بعد ثم فتحت بعنف زجاج نافذة غرفته الكائنة في الدور الرابع والمطلة على مناطق صخرية ضخمة. قمت بعدها بالاقتراب منه وقد بدت على جميع مظاهر الغضب، وأمسكته بقوة من الفخذين، وأخرجته من النافذة، وجعلت رأسه

متجهة مباشرة إلى أسفل نحو أعماق هذه الهوة. وبعد مضي عدة بضع ثواني انتشلته من هذا الوضع وكان ممتقع اللون، دامع العينين، يتصبب عرقا، وتكتسيه اختلاجات خفيفة اعتقدت أنها نتيجة الخوف. ودفعته بعدها نحو لوحاته، وجعلته يلتقط جميع قطع الكرتون وفرضت عليه إعادتها إلى أماكنها. وفي الحقيقة أنه قام بتنفيذ كل ذلك ببطء شديد، وبطريقة سيئة أكثر مما هي جيدة، لكنه على الأقل لم يكن نافذ الصبر. وبعدها ذهب ليلقي بنفسه في فراشه حيث انخرط في بكاء شديد.

وكانت هذه هي المرة الأولى - على قدر معرفتي- التي ذرف فيها الدموع. إن الحالة التي سبق لي عرضها والخاصة بأنه كان يحزن لفراق مربيته ويبتهج عند لقائها هي لاحقة لهذه الواقعة، وإذا كنت قد ذكرتها مسبقا فذلك لأنني أتبع التسلسل الزمني في سرد الأحداث أقل من قيامي بعرضها بصورة منهجية.

وقد حققت هذه الطريقة الغريبة نجاحا إن لم يكن كاملا فعلى الأقل كافيا . وإذا كان لم يمكن التغلب كلية على نفوره من العمل، فعلى الأقل قل هذا النفور كثيرا، ولم يحدث أن أعقبته آثار مثل تلك التي سبق عرضها.

وحينما كنا نرهقه أكثر من اللازم، أو حتى نجبره على العمل خلال الساعات المخصصة لخروجه أو لتناول وجباته، فقد كان في هذه الحالات وحدها يكتفي بإظهار ضجره ونفاذ صبره، ونسمعه يتمتم شاكيا الأمر الذي ينتهي بذرف دموعه.

وقد أتاح لنا هذا التغير المواتي استئناف دروسنا التي أدخلت عليها تعديلات تستهدف ترسيخ أفكاره، كما سمح لنا أيضا بمواصلة الدروس بانتظام ودقة. وقد استبدلت الأشكال الملصقة على اللوحات برسومات خطية لهذه الأشكال ذاتها وذلك بدلا من كونها كما سبق وذكرت رسومات كاملة تمثل أشكالا هندسية. وداومت أيضا على تعيين الألوان بعينات صغيرة ذات شكل غير منتظم ولا تتماثل إطلاقا

مع شكل قطع الكرتون الملونة. ويمكنني القول بأن هذه الصعوبات الجديدة لم تكن سوى لعبة بالنسبة لفيكتور، وهي نتيجة كافية لتحقيق الهدف الذي كنت انتظره من استخدام نظام المقارنة الفج هذا. وقد حان الوقت لاستبدال هذا النظام بنظام تعليمي أعظم شأنا كان يمكن أن ينطوي على عقبات يتعذر التغلب عليها لو لم يتم التمهيد لها بنجاح الطرق التي استخدمناها لتذليل العقبات الأولى .

قمت بطباعة كل حرف من الحروف الأيجدية الأربعة والعشرين ببنط كبير على قطع كرتون مساحة كل منها بوصتان. وقمت أيضا بحفر عدد مساو من الخانات في لوحة مساحتها قدم ونصف مربع وأدخلت فيها قطع الكرتون دون لصقها حتى يمكن تغيير أماكنها عند الحاجة. ثم جرى إعداد عدد مماثل من الحروف المماثلة من ناحية العدد والمقاس والمصنوعة من المعدن. وكان المقصود هو قيام التلميذ بمقارنة الحروف المعدنية بالحروف المطبوعة ثم وضعها في خاناتها المناظرة لها. وقد أجرت مدام جويران أول تجربة لهذه الطريقة أثناء غيابي؛ ودهشت كثيرا حين علمت منها بعد عودتي بأن فيكتور تمكن من تمييز جميع الحروف ومن وضعها في الخانات المناسبة. وقد قام بإجراء الامتحان سريعا ودون ارتكاب خطأ واحد. كنت مبهورا بهذا النجاح السريع، لكنني لم استطع في حينها تفسير السبب، ولم يحدث إلا بعد مرور عدة أيام أن تمثلت الطريقة التي اتبعها تلميذنا للقيام بهذا التصنيف. لقد تنبه إلى حيلة صغيرة تجعل الأمر أكثر سهولة وتعفيه من استخدام الذاكرة وعقد المقارنات واتخاذ القرارت من أجل تنفيذ هذا العمل. فمنذ أن يتم وضع اللوحة بين يديه لا ينتظر رفع الحروف المعدنية من خاناتها، لكنه يسحبها ويكومها بين يديه وفقا لنظام ترتيبها بحيث يصبح آخر حرف من الحروف الأبجدية - بعد إفراغ اللوحة تماما - هو أول حرف في الكوم . ثم يبدأ في إعادة هذا الحرف الأخير ممسكا باللوحة من نهايتها ويشرع في وضع الحروف من اليمين إلى اليسار (علما بأن الحروف اللاتينية

ومن بينها الفرنسية تكتب من اليسار إلى اليمين). ويتبقى شيء آخر: فهذه الطريقة قابلة للتحسين من جانبه، لأنه كثيرا ما يتصدع الكوم وما تسقط الحروف، وكان يجب في هذه الحالة إعادة تنظيم كل شيء والاعتماد على مجهودات الانتباه وحده. كانت الأربعة وعشرون حرفا موضوعين في أربعة صفوف يضم كل صف ستة حروف. وبناء عليه كان من الأكثر سهولة عدم انتزاعها إلا صفا بعد الآخر ثم إعادة وضعها بالطريقة نفسها بحيث لا يتم البدء في انتزاع حروف الصف الثاني إلا بعد الانتهاء من إعادة جميع حروف الصف الأول إلى مكانها.

ولا أعرف فيما إذا كان يتبع المنطق الذي أعزوه إليه، لكن من المؤكد على الأقل أنه كان ينفذ العمل بالطريقة التي أصفها. والحالة هذه فقد كان عمله نمطيا لكنه ابتكر هذا النمط، مما يضفي شرفا على ذكائه بقدر الشرف الذي حصلت عليه بصيرته بعد قليل بفضل قيامه بعمل تصنيف منهجي. ولم يكن من الصعب وضعه على هذا الطريق، ففي كل مرة نعطيه فيها اللوحة، كنا نعطيه الحروف مخلوطة وبلا نظام. وبالرغم من عكس الحروف المطبوعة وقلبها وتغيير خاناتها، وبالرغم من ترتيبها بطريقة خادعة مثل وضع حرف G إلى جوار حرف C والحرف E إلى جوار الحرف.. F الخ إلا أن حصافته لم تهتز. وحين كنت أقوم بتدريب فيكتور على جميع هذه الحروف كان هدفي هو جعله يستخدمها في أغراضها البدائية المألوفة، بمعنى التعبير عن الاحتياجات التي لا يستطيع التعبير عنها بالكلام. وحيث أنني لم أكن أعتقد بأننا قد اقتربنا من زمن تعليمه الباهر إلى هذا الحد، فإن حب الاستطلاع أكثر من الأمل في النجاح هو الذي أوحى لي القيام بالتجربة التالية:

ففي صباح أحد الأيام وبينما كان ينتظر بفارغ الصبر إفطاره اليومي المكون من اللبن، أخرجت من لوحته أربعة حروف ووضعتها فوق لوح من الخشب أعددته خصيصا لهذا الغرض. هذه

الحروف هي: LAIT (وهي الحروف الأربعة المكونة لكلمة «لبن» باللغة الفرنسية). قامت مدام جويران التى أخطرتها مسبقاً بالاقتراب، وبالنظر إلى الحروف، ثم ناولتنى بعدها مباشرة كوباً مليئاً باللبن تظاهرت بأننى فى حاجة إليه. وبعد بضع لحظات اقتربت من ڤيكتور: أعطيته الحروف الأربعة التى أخذتها من فوق اللوح ثم أشرت بيدي إلى اللوح فى الوقت الذى أمسكت فيه بيدى الأخرى كوباً من اللبن. وسرعان ما أعاد الحروف إلى مكانها لكن فى وضع معكوس تماماً بحيث أنها أصبحت TIAL بدلاً من LAIT أرشدته إلى التصحيحات اللازم إجراؤها وذلك بالإشارة بأصبعي إلى الحروف التى يجب نقلها من مكانها وإلى الموضع الصحيح لكل حرف: وحين وضع الحروف فى أماكنها الصحيحة قمت فوراً بإعطائه كوب اللبن.

ومن الصعب أن نصدق بأن خمس أوست تجارب مماثلة كانت كافية لا لكى تجعله يضع الحروف الأربعة لكلمة lait بطريقة منهجية فقط، بل لكى يعرف أيضاً العلاقة بين الكلمة والشيء. هذا هو على الأقل ما يخطر علي بالنا نتيجة لما حدث بعد مضى ثمانية أيام من هذه التجربة الأولى. لقد رأيناه أثناء استعداده للذهاب إلى المرصد يضع الحروف الأربعة المذكورة فى جيبه بمبادرة شخصية منه، وما كاد يصل لدى المواطن لوميرى حيث يذهب كل يوم – كما سبق القول – لتناول اللبن حتى أخرج هذه الحروف ووضعها على المائدة بطريقة تكون كلمة liat .

كنت اعتزم تلخيص الحقائق المبعثرة ففى هذا التقرير فى هذا المكان، لكننى رأيت بأنه مهما كانت القوة التى ستكتسبها من تجميعها معاً هنا فإنها لا تتساوي مطلقاً مع قوة النتيجة الأخيرة. وإننى أدونها كتابة وشبه عارية ومجردة من أية ملاحظات، حتي يمكنها تسجيل المرحلة التى وصلنا إليها بطريقة أكثر وضوحاً وتصبح كفيلة.

بالمرحلة التي يجب أن نصل إليها. ويمكننا دائما الاستنتاج من غالبية ملاحظاتي ومن الملاحظات التي اغترفناها من الغايتين الأخيرتين بخاصة أن الطفل المعروف باسم متوحش الأفيرون يتحلى بممارسة طليقة لجميع حواسه؛ وبأنه يقدم دلائل مستمرة على الانتباه والتذاكر (استحضار واستجماع خبرات سابقة)، ويمكنه المقارنة والتمييز وإصدار الأحكام، ويستطيع أخيرا استخدام جميع ملكات إدراكه في أشياء خاصة بتعليمه. ونلاحظ أيضا نقطة هامة هي أن جميع هذه التغيرات الموفقة حدثت خلال أمد قصير هو تسعة شهور لدى شخص كان من المعتقد أنه عاجز عن الانتباه، ويمكننا الاستنتاج من ذلك بأنه من الممكن تعليمه بل لعله مضمونا بفضل هذه النجاحات الأولية بصرف النظر عن النجاحات التي نأمل فيها بالضرورة بفضل الزمن الذي يبدو أنه أثناء مسيرته الثابتة يمنح الطفولة من القوة ومن النمو جميع ما يأخذه من الإنسان عند الشيخوخة.[1]

ومع ذلك ماهي النتائج عظيمة الشأن الخاصة بتاريخ الإنسان الفلسفي والطبيعي والمترتبة على مجموعة الملاحظات الأولى هذه ! فلنجمعها معا ونصنفها بمنهجية ، ولنختزلها إلى قيمتها الحقيقية،

---

[1] يمكن للمراقبين المستنيرين أن يجيئوا ليتأكدوا بأنفسهم من صحة هذه الملاحظات إنهم وحدهم الذين يمكنهم الحكم على أهمية الوقائع، ذلك لإستخدامهم الذهن البصير فى فحصهم، ولإضفائهم الإدراك على العلم. إن تقييم الحالة المعنوية لمتوحشنا أكثر صعوبة مما نتصور. إن الأراء المتقلبة وجميع الأفكار المنحازة والمتعصبة تقوم بتضليل الرأى الحصيف. ويقول كونديـاك فى حالة مماثلة إلى حد كبير (إذا كانت عادتنا بإستخدام الإشارات كعامل مساعد قد أتاحت لنا ملاحظة كل ما نحن مدينين لها به. فليس علينا إلا أن نضع أنفسنا مكان هذا الشاب الصغير لكى ندرك إلى أى حد كان يتحصل على القليل من المعرفة، لكننا نصدر أحكامنا دائما وفقا لأوضاعنا.) ومن أجل تكوين أراء صائبة في هذه الحالة يجب أيضا عدم إصدار الرأى بعد فحصه مرة واحدة، لكن تلزم ملاحظته ودراسته عدة مرات وخلال مختلف أوقات النهار، وأسماء استمتاعه بكل متعة، وعند قيامه بممارساته الصغيرة.. إلخ. وحتى كل ذلك لايكفى فلابد من أجل عقد مقارنة صحيحة بين الحاضر والماضى أن نكون قد رأينا متوحش الأفيرون خلال الشهور الأولى من إقامته فى باريس إن أولئك الذين يروه ولم يلاحظوه فى تلك الفترة ثم يرونه حاليا فإنهم لن يجدونه سوى طفلا شبه عادى، لايتحدث إطلاقا. إنهم لن يستطيعوا إطلاقا تقدير الفارق بين هذا الشخص شبه العادى وبين متوحش الأفيرون فى بداية دخوله المجتمع، وهو فارق قد يبدو ضئيلا فى الظاهر، لكنه فى الواقع ضخم للغاية حين نتعمق فى الأمر ونعرف ماهية مجموع الأفكار المكتسبة الجديدة التى يمكن من خلالها الوصول إلى هذه النتائج الأخيرة.

وسوف نجد فيها البرهان المادي على أهم الحقائق التي اكتشفها لوك وكوندياك بفضل قوة عبقريتهما وعمق تأملاتهما. وقد بدا لي أنه يمكن على الأقل استخلاص ما يلي:

١) أن الإنسان أدنى من عدد كبير من الحيوانات حين يكون في حالة الفطرة الخالصة [١]؛ وهي حالة عجز وتوحش قاموا بإضفاء الألوان الجذابة عليها بلا مبرر؛ وهي حالة يكون فيها الفرد من الملكات الخاصة بنوعه، يسوق حياة بائسة يرثى لها بلا ذكاء وبلا مشاعر، وتقتصر على الوظائف الحيوانية.

٢) أن هذا السمو الأخلاقي الذي يقولون بأنه أمر طبيعي لدى الإنسان ليس سوى نتيجة للمدنية التي تسمو به فوق الحيوانات الأخرى عن طريق دافع قوي. هذا الدافع هو حاسية الجنس البشري المهيمنة، وهي خاصية جوهرية تتمخض عنها ملكات المحاكاة، وهذا الميل المستمر الذي يجبره على البحث عن احتياجات جديدة وحاسيات جديدة.

٣) أن قوة المحاكاة هذه الموجهة نحو تدريب أعضاء جسم الإنسان وخاصة التدرب على الكلام، التي تكون قوية وفعالة للغاية خلال السنوات الأولى من الحياة، سرعان ما تضعف مع تقدم السن والانعزال وبفضل جميع الأسباب التي تتجه نحو إنهاك الحساسية العصبية. ولهذا نجد أن أكثر نتائج المحاكاة فائدة هي بلا ريب نطق الأصوات، وأن هذا النطق يواجه عقبات بلا حصر حين يتم التدرب عليه في سن لم تعد سن الطفولة الأولى.

٤) أنه توجد لدى المتوحش الأكثر انعزالا كما لدى الحضري الذي ارتقى إلى أعلى مراتب المدنية علاقة ثابتة بين أفكاره واحتياجاته؛ وأنه يجب اعتبار تكاثر هذه الاحتياجات المتزايد دائما

---

[١] ليس لدي أدنى شك بانه إذا ماعزلنا طفلين منذ نعومة اظفارهم أحدهما ذكر والأخرى انثى، وإذا ما فعلنا الشيء نفسه مع إثنين من ذوات الأربع نختارهم من بين النوع الأقل ذكاءا، فإن الأخيرين سيتفوقان كثيرا على الأولين فيما يتعلق بتحقيق إحتياجاتهما والمحافظة سواء على أنفسهما أو على صغارهما.

لدى الشعوب المتحضرة بأنه طريقة هامة لتنمية الذهن الإنساني: بحيث أنه يمكننا وضع افتراض عام بأن جميع الأسباب العرضية محلية كانت أم سياسية التي تتجه نحو زيادة عدد احتياجاتنا أو تقليلها تساهم بالضرورة في توسيع أو تضييق مجال معرفتنا ونطاق العلم والفنون والأنشطة الاجتماعية.

٥) أنه في الوضع الراهن لمعارفنا الفسيولوجية، يمكن لمسيرة التعليم ويجب عليها الاستضاءة بمعارف الطب الحديث، الذي يمكنه التعاون في تحسين الجنس البشري بشدة، وذلك بتمييز التشويه والمسخ العضوي والذهني لدى كل فرد، ومن هنا تحديد ما يمكن للتعليم وما يجب عليه أن يفعل، وما يمكن للمجتمع أن ينتظر منه.

وتوجد أيضا بعض الملاحظات التي كنت قد اعتزمت ضمها إلى هذه المعطيات الأولية، لكنني وجدت أن الاستطرادات التي تحتاجها ستتجاوز حدود مخطط هذا الكتيب. ومن جهة أخرى تبين لي بعد مقارنة ملاحظاتي مع عقيدة بعض علماء المعرفة "الميتافيريقيين" الموجودين لدينا أنني أختلف معهم حول بعض النقاط الهامة.

وبناء عليه يجب علي انتظار وقائع أوفر عددا، وبهذا تكون أكثر حسما. ويوجد سبب آخر مماثل تقريبا لم يسمح لي أثناء الحديث عن فيكتور اليافع بالتكلم بإسهاب عن فترة مراهقته، التي ظهرت منذ بضعة أسابيع بطريقة شبه متفجرة، وتؤدي مظاهرها الأولى إلى إلقاء شكوك عديدة على منشأ بعض مشاعر القلب المعتبرة طبيعية للغاية. لقد اضطررت حتى في هذا الخصوص إلى عدم التعجل في إصدار الأحكام وفي الاستنتاج، مع اقتناعي بأنه لا يمكننا الإفراط في قيام الزمن والملاحظات اللاحقة بتعميق جميع الأفكار التي تنزع إلى هدم أفكار سائدة قد تكون جديرة بالاحترام، وإلى القضاء على أوهام الحياة الاجتماعية الأكثر عذوبة والأكثر تخفيفا للآلام.

تقرير عن الجديد في نمو وتقدم فيكتور الأفيروني (١٨٠٦؛ وطبع عام ١٨٠٧)

مقدمة

إلى سعادة وزير الداخلية

سيدي،

الحديث إليكم عن متوحش الأ فيرون هو حديث من جديد عن اسم لم يعد يثير الآن أي نوع من الاهتمام؛ وهو تذكير بكائن نساه أولئك الذين لم يفعلوا أكثر من مشاهدته، ويستهين به أولئك الذين رأوا اصدار حكم جازم بشأنه. وفيما يخصني وقد اقتصرت حتى الآن على ملاحظته، وعلى منحه عنايتي، فإنني غير مبال تماما بنسيان البعض وباستهانة الآخرين؛ واستنادا إلى خمس سنين من الملاحظة اليومية فإنني وضعت تقريرا تنتظرونه مني لكي أروي لسعادتكم ما رأيته وما فعلته؛ ولعرض الحالة الراهنة لهذا الشاب، والمسالك الطويلة والصعبة التي اقتيد عبرها والعقبات التي تخطاها، وتلك التي لم يتمكن من التغلب عليها.

وإذا كانت جميع هذه التفصيلات يا سيدي تبدو لكم غير جديرة باهتمامكم، فإنني أود التأكيد لسعادتكم بأنه لولا الأمر الصريح الذي تلقيته منكم لكنت قد حكمت بالنسيان الأبدي على الأعمال التي تكشف نتائجها عن قصة عدم نجاح المعلم أكثر من قصة التقدم الذي أحرزه الطفل. وإذا ما أصدرت حكما على نفسي بتجرد، فإنني أعتقد أنه بصرف النظر عن الهدف الذي كنت أسعى إليه في المهمة التي فرضتها على نفسي عن طيب خاطر، وإذا ما فحصنا هذه العملية من

وجهة نظر أكثر عمومية، فإنك يا سيدي لن تعدم الشعور بالرضى والسرور عندما ترى في التجارب المتباينة التي أجريتها والملاحظات العديدة التي جمعتها مجموعة من الوقائع الكفيلة بتوجيه تاريخ الفلسفة الطبية، وبدراسة الإنسان غير المتمدين، وبإرشاد بعض أنواع التعليم الخاص.

ومن أجل تقييم الحالة الراهنة للمتوحش الأ فيروني الشاب، سيكون من الضروري تذكر حالته الماضية. ولكي نصدر حكما صائبا بشأن هذا الشاب فلا يجب مقارنته إلا بذاته.

وإذا ما قارناه بشاب في مثل سنه، فلن يكون أكثر من كائن فاقد الحظوة، أهملته الطبيعة، كما أهمله المجتمع. ولكن إذا ما اقتصرنا على المقارنة بين حالته الماضية وحالته الراهنة، فإننا ندهش للمسافة الضخمة التي تفصل بينهما. و يمكننا أن نطرح للمناقشة، فيما إذا كان فيكتور لا يزيد في اختلافه عن المتوحش الأ فيروني عند وصوله إلى باريس على اختلافه عن الأفراد الآخرين الذين في مثل سنه ومن نفس جنسه.

يا سيدي، إنني لن أرسم لك الصورة البشعة لهذا الإنسان-الحيوان مثلما كانت عند خروجه من غاباته. ففي كتيب سبق لي طباعته منذ بضع سنين، ويشرفني تقديم نسخة منه إليكم، قمت بوصف هذا الكائن الغريب وفقا للسمات ذاتها التي اقتبستها من تقرير قدمه طبيب شهير إلى جمعية علمية. واقتصر هنا على التذكير بأن اللجنة التي كان هذا الطبيب مقررا لها لم تستطع تثبيت انتباه هذا الطفل. وقد سعت هذه اللجنة بعد فحص طويل ومحاولات عديدة إلى اكتشاف بعض الذكاء في أفعاله أو بعض دلائل على الحاسية لكن بلا جدوى. وحيث أنه كان يجهل عملية التبصر هذه التي هي المنبع الأول لأفكارنا، فإنه لم يكن ينتبه لأي شيء إذ لا يوجد شيء يمكنه التأثير على حواسه تأثيرا دائما . كانت عيناه تران ولا تبصران، وأذناه تسمعان ولا تصغيان، وكان عضو اللمس يقتصر على العملية الميكانيكية وهي مسك

الأجسام، لكنه لم يستخدم إطلاقا لتقدير أشكال هذه الأجسام أو حالتـها. وأخيرا كانت هذه حالة ملكات هذا الطفل الجسمانية والمعنوية، الـذي وجد نفسه موضوعا ليس فـي آخـر صـف مـن صفـوف بنـي جنسـه فحسب، بل و في أدنى مرتبة حيوانيـة أيضـا، ويمكننـا القـول بأنـه لـم يكن يختلف عن النبات إلا في كونه يمتلك القدرة على التحـرك وعلـى أن يصرخ. ويوجد بين تلك الحياة التي كانت أقل مـن الحيوانيـة وبيـن حالته الراهنة فارق سيزداد وضوحا لو اقتصـرت علـى وصـف حـدي المقارنة. ولكن لاقتناعي بأن الأمر لا يتعلق بتقديم مفارقـات الصـورة بقدر ما يتعلق بتقديم صورة صادقة وكاملة. ولهذا سأبذل كل اهتمامي من أجـل عـرض التغيرات التـي حدثـت فـي حالـة الشـاب المتوحـش بايجاز. ومن أجل أضفاء الدقة والمنفعة على سرد الوقائع، فسـأرويها فـي ثـلاث مجموعـات منفصلـة تتعلـق بتقدمـه الثلاثـي فـي الوظـائف الحسية، والوظائف العقلية، والملكات الوجدانية

تنمية
وظائف الحواس

١ – نحن مـدينون لأعـمـال لوك Locke (فيلسوف وطبيب انجليزي ١٦٣٢– ١٧٠٤) ودي كـونديـاك de Condillac (فيلسوف فـرنسي ١٧١٥ – ١٧٨٠) بتـقديرنـا للتأثير القـوي الذي يمارسـه مـفعول حـواسنا بصورة منفصلة او متـزامنة علي تكوين افكارنا وتطويرها. إن مـا حـدث من سوء استـخدام لهذه الفرضيات المبتكرة لا يهدم صحتها ولا تطبيقاتها العملية التي يمكننا الاستفادة منها في نظام التعليم الطبي. وانه علي ضوء فرضيات هذين الفيلسوفين قمت بتنفيذ الغايات الرئيسية التي حددتها لنفسي في البداية والتي عرضتها في تقريري الأول، كما أنه علي هديها بذلت كل اهتـمام من أجل تدريب وتنمية كل عضو من أعـضاء حواس فيكتور علي حدة.

٢ – حيث ان حاسة السمع هي من بين جميع حواسنا الاخري التي تساهم بصفة خاصة في نمو ملكاتنا العقلية، فقد اشركت جميع الوسائل التي يمكن تخيلها من أجل تخليص اذني متوحشنا من خمولهما. وتصورت انه يجب علي عزل هذه الحاسة الي حد ما حتي يمكن تدريبها. وبما أنه لا يوجد تحت تصرفي سوي جرعة زهيدة من الحاسية كائنة في مجمل نسق بنيته، فكان يجب علي تركيزه هذه الجرعة الزهيدة علي عضو الحس الذي أردت تنميته، وذلك عن طريق تعطيل عضو البصر صناعيا وهو العضو الذي يقوم بإجهاد جزء كبير من هذه الحاسية الزهيدة. وبناء عليه غطيت عيني فيكتور بعصابة سميكة، وقمت بتعريض اذنيه لرنين الاصوات الاكثر عنفا والأكثر تنافراً. لم يكن قصدي جعله يسمعها فحسب، بل وينصب اليها ايضا. ومن أجل الوصول الي هذه النتيجة، كنت حينما أسمع فيكتور صوتا أدعوه الي إصدار صوت مماثل، وذلك بقرع ذات الجسم الرنان ثم بالقرع علي جسم آخر بمجرد ان تنبئه اذنه بأنني قد غيرت الأداة. كانت تجاربي الاولي تستهدف جعله يميز بين صوت جرس وصوت طبلة. ومثلما حدث قبلها بعام حين أوصلت فيكتور من المقارنة البدائية بين قطعتي كرتون مختلفتي اللون والشكل الي التمييز بين الحروف والكلمات، كان هناك ما يدعوني للاعتقاد بأنه وفقا لذات تدرج انتباه حاسة البصر يمكن للأذن ان تصل قريبا الي تمييز نغمات عضو الصوت او الكلام الاكثر تماثلا ونغماته الاكثر تباينا. وبناء عليه ثابرت علي اسماعه تدريجيا الاصوات الاقل تباينا، والاكثر تعقيدا وتقاربا. وسرعان ما لم اكتف بأن اطلب منه تمييز صوت الطبل من

صوت الجرس بل وايضض تمييز الصوت الذى يصدره اصطدام المقرعة، حين نقرعها علي جلد الطبلة او علي طوقها او علي جسمها ذاته، وكذلك حين نقرعها علي جرس الساعة الدقاقة او علي مجرفة المدفأة صاخبة الرنين.

٣ – قمت بعدها باستخدام طريقة المقارنة هذه علي الادراك الحسي لأنغام آلة النفخ الموسيقية المعتبرة اكثر تماثلا مع صوت الكلام وتشكل الدرجة الاخيرة من السلم الموسيقي، وكنت ارجو باستخدام هذه الطريقة توصيل تلميذي الي سمع مختلف نبرات الحنجرة. واستجاب النجاح لتوقعاتي؛ فكنت مالن اقرع اذن متوحشنا بنغمة صوتي حتي اجد سمعه حساسا للنبرات الاكثر خفوتا.

٤ – لم يتطلب الامر في هذه التجارب الاخيرة ان اطلب من التلميذ ماكنت اطلبه منه في التجارب السابقة وهو تكرار النغمات التي يسمعها. كان مثل هذا العمل المزدوج يجزيء انتباهه وبذلك يقع خارج الخطة التي حددتها لنفسي بتدريب كل عضو للحس علي انفراد. وبناء عليه اقتصرت علي طلب إدراك الانغام حسيا فحسب. ومن اجل التأكد من ذلك كنت اجعل تلميذي يجلس في مواجهتي معصوب العينين وقبضة يده مضمومة، واجعله يبسط اصبعا في كل مرة أصدر فيها صوتا. وسرعان ما فهم طريقة هذه التجربة. ما يكاد الصوت يقرع اذنه حتي يرفع اصبعه بشيء من الاندفاع، بل وحتي كثيرا ما كان يظهر ابتهاجه، مما لم يدع مجالا للشك في حب

التلميذ لهذه الدروس العجيبة. الواقع أنه إما كان يجد متعة حقيقية في سماع نغمة الصوت الإنساني، وإما أنه قد تغلب نهائيا على ضجره من الحرمان من الضوء خلال ساعات كاملة. لقد حدث أكثر من مرة أثناء الاستراحة من هذه التدريبات أن جاء إلى ممسكا بالع صابة في يده ثم يضعها فوق عينيه، وحين يشعر بيدي تربط الع صابة خلف رأسه يقوم بضرب الأرض برجليه فرحا. ولم تظهر دلائل الرضى هذه إلا خلال التدريبات الأخيرة. وفي البداية سررت بها؛ ولم أسع إلى كبحها بل كنت حتى أحث عليها، دون أن أتصور أنني بذلك إنما أقوم بإعداد عقبة سوف تعيق في القريب تتابع هذه التجارب المفيدة، وتبطل النتائج التي حصلنا عليها بمثل هذا القدر من المشقة.

ه. بعد أن تأكدت تماما، عن طريق التجربة التي ذكرتها آنفا، بأن فيكتور يدرك حسيا جميع نغمات الصوت مهما كانت درجة شدتها ثابرت على جعله يقارن بينها. لم يعد الأمر يتعلق هنا بمجرد إدراك نغمات الصوت بل وبإدراك الاختلافات فيما بينها، وبتقدير جميع تغيرات وتنوعات النبرات التي تتكون منها موسيقى الكلام. كانت توجد بين عمل المقارنة هذا وبين سابقه مسافة ضخمة بالنسبة لكائن يعتمد تطوره على مجهودات متدرجة ولم يكن يتجه نحو المدنية إلا لأنني كنت أقوده إليها بطريقة غير محسوسة. وبالتصدي للصعوبة الماثلة هنا تذرعت أكثر من أي وقت مضى بالصبر وبالرقة يحدوني في ذلك الأمل بأنه بعد أن أتغلب على هذه العقبة نكون قد فعلنا كل المستطاع من أجل حاسة السمع. وبدأنا بالمقارنة بين حروف العلة (حروف العلة الفرنسية هي.A, E, I, O, U) وقد استخدمنا أصابع اليد للتأكد من نتيجة تجاربنا. تم تخصيص كل أصبع من الأصابع الخمس ليكون علامة على حرف معين من الحروف الخمس وليؤكد إدراكه بوضوح. هكذا كان الإبهام علامة الحرف A ويجب رفعه حين يتم

نطق هذا الحرف؛ والسبابة علامة الحرف E ، والإصبع الأوسط علامة الحرف I ، وهلم جرا.

٦. لم أصل إلى إعطائه فكرة واضحة عن حروف العلة إلا بعد مشقة، وفي بطء شديد. كان أول حرف استطاع تمييزه بوضوح هو O ، ثم حرف A بعدها. وكانت الحروف الثلاث الأخرى أكثر صعوبة، فقد ظل لأمد طويل يخلط بينها؛ ومع ذلك بدأت الأذن في النهاية تدركها بوضوح. وعندئذ عاد إلى إظهاره لمشاعر البهجة التي تحدثت عنها من قبل، والتي كانت تجاربنا الجديدة قد أوقفتها مؤقتا. لكن بما أن هذه التجارب تتطلب من التلميذ انتباها مستمرا، ومقارنات دقيقة، وتكوين أحكام بصفة متكررة، ففي البداية لم تؤد نوبات البهجة هذه إلا إلى إضفاء المرح على دروسنا لكنها انتهت بتكديرها. وفي أثناء هذه النوبات كانت جميع الأنغام تختلط، والأصابع ترتفع بلا تمييز، وغالبا ما كان يرفعها جميعا معا في طيش فوضوي مصحوبا بصيحات من الضحك المفرغ للصبر حقيقة. ومن أجل كبح هذه البهجة المزعجة، قمت بتجربة تحرير استخدام البصر لدى تلميذي المرح أكثر من اللازم، مع متابعة تجاربنا بتخويفه بإظهار وجه عابس بل وحتى متوعد. ومنذ ذلك الوقت توقفت البهجة، لكن ظهر في الوقت نفسه شرود مستمر لحاسة السمع بسبب انشغال البصر بجميع الأشياء المحيطة به. كل شيء يجذب أنظاره ويجعله يتحول إليه، ذلك مثل حدوث أقل تغيير في حالة الأثاثات أو في ملابسه، وأقل تحرك للأشخاص، وأي تغيير بسيط في ضوء الشمس.

٧. أعدت العصابة فوق عينيه فظهرت صيحات الضحك من جديد. ثابرت حينئذ على تخويفه بأسلوبي إذ لم يكن ممكنا كبحه بنظراتي. تسلحت بإحدى عصي الطبلة الخاصة بتجاربنا وكنت أضربه بها ضربات صغيرة على أصابعه حين يخطيء. وقد اعتبر هذا التأديب

بأنه دعابة، وأصبحت بهجته أكثر صخبا. واعتقدت أنه يجب علي جعل التأديب أكثر تأثيرا من أجل إثابته إلى رشده. أدرك رغبتي، ورأيت على سحنة هذا الشاب المكفهرة خليطا من الألم والمتعة وكيف أن الإحساس بالإهانة يفوق إحساسة بألم الضرب. كانت الدموع تخرج من تحت عصابته؛ فأسرعت إلى رفعها؛ لكن إما لاضطرابه أو لخوفه، وإما لانشغاله العميق بحواسه الداخلية، استمر مغمضا لعينيه بالرغم من تخلصه من هذه العصابة. ولا استطيع وصف التعبير المؤلم الذي كانت تضفيه على وجهه بضع دموع تفلت بين وقت وآخر من بين جفنيه المتقاربين. وكم كنت في تلك الأوقات، كما في أوقات أخرى عديدة على استعداد للتخلي عن المهمة التي فرضتها على نفسي، وبما أنني كنت خلالها انظر إلى الوقت الذي كرسته له باعتباره ضائعا ، فقد شعرت بالندم لأنني عرفت هذا الطفل، وكنت استنكر بشدة فضول البشر اللاإنساني الذين كانوا أول من انتزعه من حياته البريئة والسعيدة!

٨. وضع هذا المشهد خاتمة لبهجة تلميذي الصاخبة. لم يكن هناك ما يدعوني إلى التفاخر بهذا النجاح، فما كنت أتمكن من تدارك إحدى العقبات إلا لمواجهة عقبة غيرها. وحل الشعور بالخوف محل تلك البهجة الطائشة، وازدادت تدريباتنا تكديرا. وحينما كنت أصدر صوتا، كان يجب علي انتظار الإشارة المتفق عليها لمدة تزيد على الربع ساعة، وحتى إذا ما أجابني بصورة صحيحة، فإنه يجيب ببطء وتردد لدرجة أنه إذا ما صدرت عني صدفة أية حركة بسيطة أو أي صوت، كان فيكتور يقبض أصبعه فزعا لأنه يخشى أن يكون قد أخطأ، ثم يرفع أصبعا آخر ببطء وحذر أيضا. ولم أكن قد يئست بعد، وكنت مقتنعا بأنه بمرور الزمن وبالإكثار من الرقة واستخدام الأساليب المشجعة، يمكن تبديد هذا الوجل المحزن الزائد عن الحد. كان آملي بلا جدوى، وأصبح كل شيء عبثا . هكذا تلاشت الآمال الباهرة المبنية على سلسلة التجارب المتواصلة المفيدة بقدر ما هي

مثيرة. ومنذ ذلك الوقت أجريت التجارب ذاتها على فترات متباعدة للغاية، وقد صادفتني نفس العقبة واضطررت من جديد إلى صرف النظر عن هذه التجارب.

٩. ـ ومع ذلك لم تكن مجموعة التجارب هذه التي أجريت على حاسة السمع بلا جدوى تماما. إن فيكتور مدين لها بسماعه بوضوح لبضع كلمات تتكون من مقطع واحد، وبتمييزه بدقة شديدة بين مختلف نبرات الحديث وبخاصة تلك التي تعبر عن العتاب، والغضب، والحزن، والاشمئزاز، والصداقة. كان يميز مشاعر النفس هذه حتى وإن كانت غير مصحوبة بأي تغير في سمات الوجه ولا في الإيماءات الطبيعية التي تمثل الطابع الخارجي لهذه المشاعر.

١٠. وحيث أنني كنت مكروبا أكثر من أن عزيمتي قد وهنت بسبب ضعف النجاح الذي حققته حاسة السمع قررت منح كل اهتمامي لحاسة الإبصار. لقد سبق أن أدت جهودي الأولى إلى تحسين هذه الحاسة إلى حد كبير، إذ ساهمت كثيرا في منحها ثباتا وانتباها، إلى حد أنه حين وضعت مذكرتي الأولى كان تلميذي قد توصل إلى التمييز بين الحروف المصنوعة من المعدن وإلى وضعها في الترتيب المناسب لتكوين كلمات. ولكن الفارق كبير بين ذلك الحد الذي كنا قد وصلنا إليه وبين إدراك العلامات المكتوبة بوضوح ومعرفة آلية كتابتها، لكن لحسن الحظ أمكن التغلب على جميع هذه الصعوبات بل وبسهولة أيضا. وبعد مضي بضعة شهور، عرف تلميذي كيف يقرأ ويكتب بطريقة مقبولة مجموعة من الكلمات التي لا تتباين إلا قليلا بحيث لا يتم تمييزها إلا بعين يقظة. لكن كانت قراءة فيكتور هذه حدسية تماما، فهو يقرأ الكلمات دون أن يلفظها ومن غير أن يعرف معناها. ولا بد من أن يسألني سائل كيف يمكنني التأكد بأن فيكتور كان يقرأ هذه الكلمات بوضوح ولا يخلط بينها طالما أنه لا ينطقها ولايعرف معناها. لا يوجد ما هو أكثر بساطة من الطريقة

التي استخدمتها للتأكد من ذلك. كنا نكتب جميع الكلمات التي يقرأها على لوحتين؛ أمسك باحداهما وأعطي الأخرى لفيكتور؛ ثم أقوم بتصفح سريع لجميع الكلمات الموجودة على اللوحة التي معي باستخدام طرف أصبعي للإشارة إليها على التوالي. كنت أطلب منه أن يدلني على النسخة المماثلة لكل كلمة أشير إليها. وكنت حريصا على ترتيب هذه الكلمات بطريقة مختلفة تماما بحيث لا يدل موضع إحداها على اللوحة الأولى على موضع مثيلتها في اللوحة الأخرى. وبذلك كان لابد من دراسة السمات الخاصة لكل هذه العلامات من أجل التعرف عليها بنظرة خاطفة.

١١. وحين كان فيكتور ينخدع بظاهر إحدى الكلمات، فيختارها بدلا من غيرها كنت أجعله يصلح خطأه من غير أن أرشده إليه، بل بجعله يقوم فقط بهجاء الكلمة. كان الهجاء بالنسبة لنا هو المقارنة حسيا بين جميع الحروف حرفا بعد الآخر والتي تشارك في تكوين كلمتين. وكان هذا الاستنطاق التحليلي حقيقة يتم بطريقة سريعة للغاية، إذ كنت ألمس الحرف الأول من الكلمة الأخرى بطرف المؤشر، بينما يقوم فيكتور بالعثور في الكلمة التي لديه على الحرف الذي أشرت إليه، ثم ننتقل إلى الحرف الثاني بنفس الطريقة ونستمر هكذا إلى أن يعثر فيكتور على الحرف الذي يبدأ في إظهار الاختلاف بين الكلمتين.

١٢. وسرعان ما لم يعد من الضروري اللجوء إلى فحص بمثل هذا التفصيل لكي أجعله يصوب أخطاءه. أصبح يكفي حينئذ تثبيت عينيه لحظة واحدة على الكلمة التي اختارها بدلا من الأخرى لكي أجعله يحس بالاختلاف القائم؛ ويمكنني القول بأنه كان يصوب الخطأ فور الإشارة إليه تقريبا. هكذا تم تدريب وتحسين هذه الحاسة الهامة، التي أدت حركيتها الضئيلة إلى إفشال المحاولات الأولى التي بذلناها لتثبيتها، وتمخضت عن الشكوك الأولى بأنه مصاب بالبلاهة.

١٣. وبعد أن انتهيت من تدريب حاسة النظر، كرست وقتي لحاسة اللمس. ومع أنني لا أشارك آراء بوفون Buffon ودي كوندياك بشأن الدور الهام الذي يعزونه لهذه الحاسة، إلا أنني لم اعتقد بعدم جدوى المجهودات التي بذلتها من أجل هذه الحاسة، ولا بعدم فائدة الملاحظات التي حصلت عليها بفضل ارتقاء هذه الحاسة. لقد رأينا في مذكرتي الأولى أن هذا العضو الذي كان في البداية يقتصر على الإمساك الآلي بالأجسام، قد استعاد بعض ملكاته بفضل التأثير الشديد للحمامات الساخنة، ومن بين هذه الملكات الإحساس بالبارد والساخن وتمييز الأجسام الخشنة من المصقولة. ولكن إذا ما انتبهنا إلى طبيعة هذين النوعين من الإحساسات، سنرى أنهما شائعان في الجلد الذي يغطي جميع أعضاء جسمنا. ولم يفعل عضو اللمس إلا أنه قد حصل على نصيبه من الحاسية التي أيقظتها في جميع الجهاز الجلدي، إذ أنه لم يكن حتى ذلك الحين يدرك حسيا إلا باعتباره جزءا من هذا الجهاز، طالما أنه لا يختلف عنه بسبب أية وظيفة خاصة يقوم بها.

١٤. وقد أكدت تجاربي الأولى صحة هذه النظرة. فقد قمت بوضع ثمرات أبو فروة ناضجة وساخنة في قاع إناء غير شفاف تتيح فوهته بالكاد إدخال ذراع فيكتور، كما وضعت أيضا ثمرات أبو فروة أخرى من ذات الحجم تقريبا لكنها نيئة وباردة. وكانت إحدى يدي فيكتور في داخل الإناء في حين تستند يده الأخرى فوق ركبتيه وهي مفتوحة. كنت أضع على هذه اليد المفتوحة ثمرة أبو فروة واحدة ساخنة وأطلب من فيكتور أن يخرج من قاع الإناء أخرى مماثلة، فكان يحضرها لي فعلا. ثم أضع في يده أبو فروة باردة؛ وكانت تلك التي يسحبها من قاع الإناء باردة أيضا . وقد كررت هذه التجربة عدة مرات وكانت تنتهي دائما بالنجاح. ولكن لم يتحقق هذا النجاح نفسه حين استخدمت نفس هذه الطريقة لأجعله يعقد المقارنة بين شكل أبو فروة بدلا من درجة حرارتها. إذ بدأت عندذاك وظائف حاسة اللمس المطلقة، وكانت هذه الحاسة لا تزال حديثة العهد. فقد وضعت في

الإناء ثمار أبو فروة وثمار البلوط، وحين كنت أضع في يد فيكتور إحدى هاتين الثمرتين، كنت أطلب منه إحضار ثمرة مماثلة من الإناء، لكنه كان يخلط بينهما ويعطيني بلوطة بدلا من أبو فروة أو العكس. وعلى هذا كان يلزم جعل هذه الحاسة تمارس وظائفها كسائر الحواس الأخرى، وأن أتولى تحقيق ذلك وفقا للنظام ذاته. وقمت في هذا الشأن بتدريبه على المقارنة بين أجسام متباينة للغاية فيما بينها، لا من ناحية شكلها فحسب بل ومن ناحية حجمها أيضا، وذلك مثل المقارنة بين قطعة حجر وثمرة أبو فروة، أو بين فلس (قطعة نقود فرنسية قديمة مصنوعة من النيكل) ومفتاح. ولم يكن أمرا ميسورا أن أنجح في جعله يقوم بالتمييز بين هذه الأجسام باستخدام اللمس. وما كاد فيكتور يتوقف عن الخلط بين هذه الأجسام حتى قدمت له أجساما أخرى أكثر تشابها مثل تفاحة وجوزة وحصى صغيرة. ثم قمت بعدها باستخدام أبو فروة وثمار البلوط في هذا الفحص اليدوي، ولم تعد هذه المقارنة سوى لعبة مسلية بالنسبة لفيكتور. وقد توصلت إلى حد جعله يميز بنفس الطريقة بين الحروف الأبجدية المصنوعة من المعدن الأكثر تشابها في شكلها مثل حرفي B و R وحرفي I و J وحرفي C و G.

١٥. بالرغم أنني - كما سبق وقلت- لم أكن أنتظر من مثل هذا النوع من التدريب نجاحا كبيرا إلا أن مساهمته في زيادة حساسية الانتباه لدى فيكتور لم تكن هينة. وقد أتيحت لي الفرصة فيما بعد لأن أرى ذكاءه الضعيف في صراع مع مصاعب أكثر تعقيدا، لكن لم يحدث قط أن رأيته يتخذ هذا المظهر الجاد والهادىء والتأملي الذي يكتسي جميع قسمات وجهه، حينما كان يتعلق الأمر باتخاذ قرار خاص باختلاف الشكل بين أجسام تفحصها حاسة اللمس.

وبقي أن أهتم بحاستي الذوق والشم. كانت حاسة الشم ماهرة لدرجة تضعها أعلى شأنا من أي تحسين. ونحن نعرف أن هذا الشاب

المتوحش ظل لأمد طويل بعد دخوله إلى المجتمع يحتفظ بعـادة قيامـه بتشمم كل مايقدم إليه، حتى تلك الأجسام التي نعتبرها عديمة الرائحة. وقد رأيته مرارا خلال الشـهور الأولـى مـن إقامتـه فـي باريس وهـو يتوقف أثناء نزهتنا في الريـف معـا، بـل وحتـى يغير اتجاهـه ليلتقط الحصـى وقطـع الخشب الجافـة، والتـي لا يتخلص منـها إلا بعـد أن يضعها بالقرب من أنفه ليشتمها. وحدث في إحدى الأمسيات أن ضـل طريقه في شارع آنفر وعثرت مربيته عليه عند هبوط الليل، لكنــه لـم يظهر ابتهاجه الشديد بالعودة إليها ولم يقرر مرافقتها إلا بعـد أن اشتم يديها وذراعيها مرتين أو ثلاث. على هـذا لا تسـتطيع المدنيـة إضافـة شـيء إلـي مـهارة حاسـة الشـم لديـه. وحيـث أن هـذه الحاسـة ترتبــط بممارسـة الوظـائف الهضميـة أكـثر بكثـير مــن ارتباطــها بالملكـات العقلية، فقد كانت خارج خطتــي لتدريبـه. - ويبـدو أنـه كـان يجـب أن تظل حاسة الذوق أيضا خارج هدفي لأنــها بصفـة عامـة ترتبـط مثـل حاسة الشم بالعادات ذاتها. لكنني لم أفكـر بـهذه الطريقـة مطلقـا، فقد نظرت إلى حاسة الذوق ليس من ناحية الوظائف المحدودة للغاية التي خصصتها لها الطبيعة، بل على ضوء الملذات العديدة والمتنوعة التي وهبتها المدنية لهذه الحاسة، مما جعلني اعتقد أنه من المفيد تنميتها أو بالأحرى إفسادها. واعتقد أنه من العبث أن أسرد هنـا جميـع الوسـائل التي لجأت إليها لتحقيق هذا الـهدف، والوسيلة التـي أوصلتنــي خـلال أمد قصير للغاية إلى إيقاظ تذوق متوحشنـا للعديـد مـن الأطعمـة التـي كان حتى ذلك الحين ينفر منها. ومع ذلك لم يظهر متوحشنـا أينــهم أو شراهة في وسط هذه المنجزات الجديدة التي حققتها حاسة الذوق. كان فيكتـور يختلـف تمامـا عـن هـؤلاء البشـر الذيـن يسـمونهم متوحشيـن والذين يتحلون وهم في منتصف طريق المدنية بمساويء المجتمعـات الكبيرة دون مزاياها، لكنه بالرغم من تعوده على أطعمة جديدة إلا أنه ظل غير مكترث بشرب الخمور القوية، وتحـول عـدم الاكـتراث هـذا إلى نفور وذلك على إثـر خطـأ قـد يسـتحق أن نسـرده. كـان فيكتـور

يتناول عشاءه معي في المدينة، وبعد أن انتهينا من تناول الطعام أمسك بدورق يحتوي على مشروب كحولي قوي للغاية، لكنه بلا لون ولا رائحة ويشبه الماء تماما. قام فيكتور بصب المشروب في الكوب ظنا منه بأنه ماء، وكان متعجلا بسبب شدة عطشه فازدرد فجأة ما يقرب من نصف الكوب، وذلك قبل أن ينبهه الاضطرام الذي أحدثه هذا السائل في معدته إلى الخطأ الذي ارتكبه. وقام على الفور بإلقاء الكوب والمشروب، ونهض غاضبا وقفز من مكانه إلى باب الغرفة. وبدأ يعوي ويجري في ممرات المنزل وعلى السلم، ثم ينكص على عقبيه لكي يعود ليبدأ نفس الدورة من جديد؛ كان أشبه بحيوان أصيب بجرح غائر، ويبحث عن صرف الألم وتخفيفه عن طريق سرعة الركض، بدلا من التصرف كإنسان بالاستغاثة من أجل الحصول على العون.

١٦. غير أنه بالرغم من نفور فيكتور من المشروبات الروحية، إلا أنه كان يحب النبيذ إلى حد ما دون أن يبدي مع ذلك شعورا بالحرمان الشديد حين لا يقدم إليه. واعتقد حتى أنه ظل دائما يفضل الماء بوضوح. وتفصح طريقة شربه للماء عن استمتاعه الكبير به، لكن المرجح أنه يعود إلى سبب آخر غير استمتاع عضو التذوق. لقد كنا نراه بصفة دائمة تقريبا تبدو عليه بعد انتهائه من العشاء سمات الذواقة الذي يملأ كوبه بمشروب شهي حتى وإن كان لا يشعر بعطش شديد، ثم يتناوله على جرعات ويبتلعه قطرة بعد قطرة. غير أن ما يضفي تشويقا على هذا المشهد هو المكان الذي يحدث فيه. إنه يقف بالقرب من النافذة التي توجه نحوها ليمتد ببصره نحو الحقول، كما لو كان ابن الطبيعة هذا يسعى في لحظة التلذذ هذه إلى الجمع بين الميزتين الوحيدتين الباقيتين له بعد فقدانه لحريته، وهما شرب المياه الصافية والنظر إلى الشمس والحقول.

١٧. هكذا تم تحسين الحواس. لقد تخلصت جميع الحـواس باسـتثناء حاسة السمع من عادتها طويلـة الأمـد، وانفتحت علـى مـدارك حسـية جديدة وأضافت إلى حياة فيكتور المعنوية حشدا من الأفكـار التـي لـم يعرفها من قبل. لكن هذه الأفكار لم تترك في عقلـه سوى أثـر شـارد؛ ومن أجل تثبيت هذه الأفكار كان يجـب تثبيـت علاماتـها الخاصـة، أو على الأصح مدلول هذه العلامات. كان فيكتور يعرف هذه العلامـات من قبـل لأننـي كنـت أجعـل إدراك الأشيـاء وخاصياتـها يتـم فـي ذات الوقت الذي يتم فيه قراءة الكلمات الدالة عليـها، دون السـعي مـع ذلـك إلى تحديد معانى هذه الكلمات. لقد تعلم فيكتور استخدام اللمس ليمـيز الجسم المستدير مـن المسـطح؛ والعينيـن ليمـيز الورقـة الحمـراء مـن البيضـاء؛ والذوق ليميز المشروب الحمضي من الحلـو، كمـا تعلـم فـي الوقت نفسه أن يميز بين الأسماء التي تعبر عن مختلف المفـاهيم لكـن من غير أن يعـرف مدلـول هـذه الأسـماء. وحيـث أن هـذه المعرفـة لا تتعلق بمجال الحواس الخارجية، فقد كان يجـب اللجـوء إلـى الملكـات العقلية لتفسير الأفكـار التـي نقلتـها إليـها هـذه الحـواس. وهـذا هـو مـا أصبح هدف فرع جديد من التجارب التي هي موضوع الجزء التالي.

تنمية
الوظائف العقلية

١٧ـ بالرغم من عرض الوقائع التي تتكون منها المجموعة التي انتهينا على التو من فحصها بصورة منفصلة، إلا أنها ترتبط من نواحي عديدة مع تلك التي تكون موضوع المجموعة التي سنتحدث عنها الآن. يتم هذا الارتباط يا سيدي بسبب الارتباط الحميم الذي يجمع الإنسان المادي بالإنسان العقلي اللذين بالرغم من انفصال مجال كل منهما عن الآخر تماما ـ أو أنهما قد يبدوان كذلك ـ إلا أن كل شيء يمتزج داخل النطاق الذي يتلامس فيه هذان النوعان من الوظائف. إن إرتقاءهما متزامن، كما أن تأثيرهما متبادل. هكذا بينما كنت أحصر مجهوداتي في تدريب حواس متوحشنا الشاب، كان العقل يأخذ نصيبه من العناية الممنوحة لهذه الحواس وحدها، وكان يسلك طريق الارتقاء ذاته. والواقع أننا ندرك بأنه حين كنت أقوم بتدريب الحواس على إدراك وتمييز أشياء جديدة، فقد كنت أجبر الانتباه على التركيز عليها، والحصافة على المقارنة بينها، والذاكرة على أن تحفظها. هكذا لا يوجد ما هو غير مهم في هذه التمرينات؛ كانت جميعها تذهب إلى العقل؛ وتشرك ملكات الذكاء وتعدها للقيام بمهمة نقل الأفكار العظيمة. وقد تأكدت مسبقا أنه من الممكن تحقيق ذلك بالحصول من التلميذ على قيامه بتعيين احتياجاته عن طريق ترتيب الحروف بحيث تدل الكلمة المكونة على الشيء الذي يريده. وفي الكتيب الذي سبق أن وضعته عن هذا الطفل عرضت هذه الخطوة الأولى على طريق معرفة العلامات المكتوبة، ولا أتردد في إبرازها باعتبارها فترة هامة في تعليمه، وبمثابة النجاح الأكثر عذوبة والأكثر

تألقا الذي لم يسبق الحصول عليه من قبل بالنسبة لمثل هذا الكائن الذي هبط إلى أدنى درجة من التوحش. لكن الملاحظات اللاحقة التي حصلت عليها أثناء دراستي لطبيعة هذه النتائج سرعان ما أدت إلى إضعاف الآمال التي كانت تراودني. فقد لاحظت أنه بدلا من أن يقوم فيكتور بتكوين الكلمات التي عرفها من أجل طلب الأشياء التي تعبر عنها، ولإظهار رغبته أو حاجته إليها، فإنه لم يكن يلجأ إليها إلا في أوقات معينة، وحينما يرى الشيء المرغوب فيه. هكذا فإنه مهما كان شدة حبه للبن لم يكن مثلا يصدر أو بالأحرى يكون الكلمة الدالة على غذائه المفضل إلا في الوقت الذي تعود على تناول اللبن فيه، وفي اللحظة التي يراهم فيها يحضرون اللبن إليه. ومن أجل التأكد من صحة ارتيابي، قمت بتجربة تأخير موعد غذائه وانتظرت قيام التلميذ بالتعبير عن احتياجاته كتابة، لكن انتظاري كان بلا جدوى بالرغم من أنها احتياجات شديدة الإلحاح. لم يقم بتكوين كلمة Lait (لبن) إلا حينما ظهر فنجان اللبن. ثم لجأت إلى تجربة أخرى: ففي أثناء تناوله طعام الغذاء ومن غير أن أضفي أي مظهر عقابي على هذه العملية، قمت برفع فنجان اللبن ووضعته داخل الدولاب وأغلقته. لو كانت كلمة lait بالنسبة لفيكتور هي علامة تدل على الشيء وتعبر عن حاجته إلي هذا الشيء، فلا شك أنه بعد هذا الحرمان المفاجيء، سيستمر شعوره بهذه الحاجة، ومن ثم سيقوم بتكوين كلمة .lait لكن هذا لم يحدث على الاطلاق؛ مما جعلني استنتج أن تكوين هذه العلامة بالنسبة لفيكتور ليس إلا نوعا من الممارسة التمهيدية التي يقوم بها عفويا قبل اشباع شهيته، بدلا من كونه تعبيرا عن احتياجاته. وعلى هذا كان يجب أن نعود أدراجنا وأن نبذل جهدا جديدا. وقد خضعت لهذا الأمر في جرأة، مقتنعا بأنه إذا ما كان تلميذي لم يفهمني فالخطأ هو بالأحرى من جانبي أكثر مما هو من جانبه. والواقع أنه بعد التفكير بروية بشأن البواعث التي يمكن أن تكون قد تسببت في هذا الانحياز المعيب إلى العلامات المكتوبة، اكتشفت بأنني لم أجعل هذه

النماذج الأولى للتعبير عن الأفكار تتسم بذات البساطة الشديدة التي اتسمت بها الوسائل الأخرى التي استخدمتها في البداية لتعليمه والتي ضمنت نجاحها. هكذا فمع أن كلمة lait ليست بالنسبة لنا سوى علامة بسيطة، إلا أنها بالنسبة لفيكتور يمكن أن تكون تعبيرا غامضا عن هذا المشروب الغذائي، أو عن الوعاء الذي يحتويه، أو عن الرغبة التي تحدوه.

١٨- كانت العديد من العلامات التي جعلته يألفها مشوبة عند استخدامها بعيب عدم الوضوح. ويوجد عيب آخر أكثر أهمية يعود إلى طريقتنا في التعبير. كان يتم التعبير- كما سبق وقلت- بوضع حروف معدنية على خط واحد وبنظام ملائم. لكن هذه العلاقة بين الشيء والكلمة لم تكن مباشرة حتى يمكن للتلميذ أن يفهمها تماما. وكان يجب من أجل القضاء على هذه الصعوبة إقامة ارتباط يكون مباشرا أكثر، وايجاد نوع من التطابق الذي يثبتهما معا في الذاكرة؛ وكان يجب أيضا في هذه الطريقة الجديدة للتعبير اختزال الأشياء إلى أبسط صورها، حتى لا يمكن لرموزها أن تتناول لواحقها. ونتيجة لهذا المنهج قمت بإعداد عدة أشياء.بسيطة فوق رفوف المكتبة مثل ريشة (للكتابة)، ومفتاح، وسكين، وعلبة الخ.، ووضعتها جميعا فوق ورقة من الكارتون كتبت عليها أسماء هذه الأشياء. لم تكن هذه الأسماء جديدة على تلميذنا، فقد سبق له معرفتها وتعلم كيف يميز بينها وفقا لطريقة القراءة التي ذكرتها آنفا.

١٩- وعلى هذا لم يعد الأمر يتعلق إلا بتعويد عينيه على وضع كل من هذه الأسماء أسفل الشيء الذي ينم عنه. وسرعان ما فهم هذا النظام؛ وقد حصلت على برهان ذلك حينما غيرت أماكن جميع هذه الأشياء، ووضعت البطاقات بترتيب مختلف، وقد رأيت التلميذ يعيد التنظيم باتقان واضعا كل شيء فوق اسمه. وقمت بتنويع تجاربي، مما أتاح لي إجراء ملاحظات عديدة خاصة بدرجة تأثير صورة هذه

العلامات المكتوبة على جهاز الحس الكلي (مركز الحواس بالمخ) لدى تلميذنا المتوحش. هكذا حينما كنت أترك جميع هذه الأشياء في أحد أركان الغرفة وأضع جميع البطاقات في ركن آخر، فقد كنت ابتغي من إظهار البطاقات على التعاقب لفيكتور دعوته إلى الذهاب لإحضار الشيء الذي أبرز له اسمه مكتوبا، وكان يجب ألا تغيب عن بصره ولو للحظة واحدة الحروف الدالة على الاسم حتى يمكنه إحضار الشيء المطلوب. فإذا ما ابتعد إلى الحد الذي لا يستطيع معه قراءة البطاقة، أو إذا ما قمت بإخفاء البطاقة بيدي بعد أن أبرزتها له، فقد كان ينسى صورة الكلمة ويبدو الاضطراب والقلق على سماته، ثم يمسك بأول شيء تقع يده عليه بلا تبصر.

٢٠ـ كانت نتيجة هذه التجربة غير مشجعة، والواقع أن همتي كادت أن تثبط تماما لو لم أتنبه إلى أنه بتكرار التجربة عدة مرات تزداد مدة التأثير على عقل تلميذي شيئا فشيئا . وسرعان ما أصبح كافيا بأن يلقي بنظرة سريعة على الكلمة التي أشير إليها لكي يذهب ويحضر لي الشيء المطلوب دون تعجل ومن غير أن يخطيء. وبعد مضي بعض الوقت، أمكنني القيام بهذه التجربة على مستوى أكبر بأن كنت أرسله من شقتي إلى غرفته لكي يحضر منها أي شيء أبرز له اسمه. في البداية كانت مدة استمرار إدراكه تقل كثيرا عن مدة المشوار؛ لكن فيكتور بحث ووجد حلا ينم عن ذكاء يستحق التنويه، إذ عثر في رشاقة ساقيه على طريقة أكيدة ليجعل مدة احتفاظ ذاكرته بالاسم أكثر طولا من مدة مشواره. فما يكاد يقرأ الاسم جيدا حتى ينطلق كالسهم، ثم يعود بعد لحظة ممسكا بالشيء المطلوب في يده. ومع ذلك حدث أكثر من مرة أنه كان ينسى الكلمة أثناء مشواره، وكنت حينذاك أسمعه وهو يتوقف، ثم يعود أدراجه إلى شقتي وقد بدا عليه الخجل والاضطراب. وكان في بعض الأحيان يكفيه إلقاء النظر على مجموعة الأسماء بأكملها لكي يتذكر الاسم الذي نسيه ويحفظه، وفي أحيان أخرى كانت صورة الاسم تندثر تماما من ذاكرته لدرجة أنه

كان يجب علي أبرازها له من جديد: فقد كان يوجب علي ذلك بامساكه بيدي ثم يطوف بالمؤشر على جميع الأسماء إلى أن أظهر له ذلك الاسم الذي نسيه.

٢١- وقد تلى هذا التمرين تمرين آخر منح الذاكرة عملا أكبر وساهم في تنميتها أكثر. كنت حتى ذلك الوقت اقتصر على طلب واحد في وقت واحد ؛ ثم طلبت شيئين وبعدها ثلاثة وأخيرا أربعة، وذلك بإظهار عدد مماثل من العلامات للتلميذ، الذي كان يشعر بصعوبة حفظها جميعا ولهذا يظل يتصفحها باهتمام وتلهف إلا أن أخفيها عن عينيه تماما. ويقوم حينذاك بلا تأخير أو تردد بالتوجه على عجل نحو غرفته ليحضر لي منها الأشياء المطلوبة. وحين يصل عائدا إلى شقتي كان يهتم أولا بمقارنة العلامات الواردة بالقائمة مع الأشياء التي يحملها والتي لا يسلمها لي قبل التأكد من أنه لم يحدث سهو أو خطأ. وفي البداية أعطتنا هذه التجربة نتائج متقلبة للغاية؛ لكن أمكن أيضا في النهاية التغلب على المصاعب المصاحبة لها. وبعدها كان التلميذ الواثق في ذاكرته يستخف بالميزة المتمثلة في رشاقة ساقيه، فكان ينصرف للقيام بهذا التدريب في هدوء، وكثيرا ما كان يتوقف أمام النافذة عند طرف الممر لكي يصدر صرخات حادة احتفاءا بمشهد الريف الرائع. وسرعان ما يستأنف طريقه إلى غرفته للتزود بالأشياء المطلوبة، ثم يجدد أثناء عودته تحياته لجمال الطبيعة التي يفتقدها، ويصل لدي وهو متأكد من تنفيذه لمهمته بدقة.

٢٢- هكذا توصلت الذاكرة إلى الاحتفاظ بجميع علامات الفكر، في حين تمكن الذكاء من إدراك المدلول الكامل لهذه العلامات. هذه على الأقل هي النتيجة التي اعتقدت أنه يجب علي استخلاصها من الوقائع السابقة، حين رأيت فيكتور في كل لحظة سواء أثناء تدريباتنا أو عفويا يستخدم الكلمات المختلفة التي لقنته معانيها، لكي يطلب منا الأشياء المتنوعة التي تمثلها هذه الكلمات، أو يعطينا الشيء الذي

يقرأ الكلمة الدالة عليه، أو يشير إلى هذه الكلمة حين نقدم له الشيء. من كان يظن بأن هذا الاختبار المزدوج لم يعد كافيا لكي أتأكد بأنني قد وصلت في النهاية إلى الحالة التي من أجلها وجب علي العودة إلى أعقابي لسلوك طريق أكثر طولا ؟ إن ما حدث لي في ذلك الوقت جعلني أظن لأول وهلة بأنني قد ابتعدت عن هذه الحالة أكثر من أي وقت مضى.

٢٣- في أحد الأيام أحضرت فيكتور إلى شقتي لكي أوفده كالعادة إلى غرفته لإحضار الأشياء التي أحددها له في القائمة، ثم ارتأيت إغلاق باب الشقة بالمفتاح دون أن يلحظ ذلك وسحبت المفتاح من القفل. عدت بعدها إلى غرفة المكتب حيث كان يوجد فيكتور وطلبت منه إحضار بعض الأشياء التي أشرت إلى أسمائها وكنت حريصا على عدم تحديد شيء لا يوجد له مثيل في غرفتي. غادر غرفة المكتب على الفور، لكنه وجد باب الشقة مغلقا، وبعد أن بحث عن المفتاح في جميع الأماكن المجاورة بلا جدوى، جاء إلي وأمسك بيدي ليقودني نحو باب المدخل لإبلاغي بأنه لا يستطيع فتح الباب. تظاهرت بأنني فوجئت وبالبحث عن المفتاح في كل مكان، بل وحتى ببذل جهود كبيرة لفتح الباب عنوة؛ وأخيرا توقفت عن هذه المحاولات وأعدت فيكتور إلى غرفة مكتبي حيث أطلعته من جديد على نفس الكلمات وطلبت منه بالإشارات البحث حوله ليرى فيما إذا كانت هذه الكلمات تمثل أشياء مماثلة موجودة في الغرفة. وكانت الكلمات التي حددتها هي عصا، ومنفاخ، وفرشاة، وكوب، وسكين. كانت جميع هذه الأشياء موضوعة كل على حدة في مكتبي، ومع ذلك يمكن رؤيتها بسهولة. وقد رآها فيكتور لكنه لم يلمس أيا منها. قمت بتجميع الأشياء فوق منضدة، ومع ذلك لم أنجح في جعله يتعرف عليها، كما طلبت منه عبثا إحضار الأشياء الواحد بعد الآخر بعد ما أطلعه على أسمائها على التعاقب. لجأت إلى وسيلة أخرى: استخدمت المقص لقص أسماء الأشياء لتصبح بذلك كالبطاقات العادية وأعطيتها

لفيكتور ثم جعلته يضع فوق كل شيء الاسم المستخدم لتعيينه. ومع ذلك ذهب هذا المجهود سدى وأصبت بالانزعاج لأنني وجدت تلميذي لا يعرف جميع هذه الأشياء أو بالأحرى لا يعرف العلاقات التي تربطها بعلاماتها. فقد كانت سماته تنم عن ذهول يتعذر وصفه وهو يجول بنظرات شاردة على جميع هذه الحروف التي أصبحت من جديد غير مفهومة لديه. وحينذاك شعرت بأن قواي قد خارت تحت وطأة نفاذ الصبر وفتور الهمة.

٢٤- ذهبت للجلوس في ركن الغرفة، وأخذت أتأمل بمرارة هذا الكائن التعس الذي يخيره مصيره الشاذ بين أمرين محزنين، فإما يتم نبذه في بعض ملاجئنا باعتباره معتوها حقيقيا، وإما يتم حصوله بمشقة كبيرة على القليل من التعليم غير المجدي لسعادته. وقلت له كما لو كان يسمعني وبانقباض حقيقي في صدري "بما أن معاناتي غير مجدية ومجهوداتك غير مثمرة، فعد أيها التعس إلى غاباتك للتمتع بالحياة البدائية؛ لكن إذا ما كانت احتياجاتك الجديدة تجعلك تعتمد على المجتمع، فيمكنك دفع ثمن عدم فائدتك له من شقائك وتعاستك وتقضي ما تبقى من حياتك بملجأ "بيستر" في بؤس وضجر." وكان من الممكن أن أعتقد بأنه قد فهمني تماما لو كانت معرفتي بمستوى ذكاء تلميذي تقل عن ذلك؛ لأنني ما كدت أنهي هذه الكلمات حتى رأيت صدره يرتفع مغمغما مثلما يحدث في حالة حزنه الشديد للغاية، وقد أغمض عينيه وتسرب من بين جفنيه المطبقين سيل من الدموع.

٢٥- لاحظت عدة مرات أنه عندما تحدث انفعالات مماثلة وحينما تصل إلى حد ذرف الدموع، فإنها تشكل نوعا من الأزمة الشافية التي تشحذ الذكاء فجأة، وتجعله بعدها على الفور أكثر قدرة على التغلب على الصعوبة التي بدت قبلها بلحظات بأنها لا تقهر. ولاحظت أيضا أنه إذا ما تخليت فجأة عن نغمة التعنيف عندما يكون في أوج هذا الانفعال لكي استبدلها بأسلوب ملاطف وببعض كلمات

الصداقة والتشجيع، فقد كنت أحصل حينذاك على مزيد من الانفعال مما يضاعف المردود الذي انتظره. كانت الفرصة مواتية، وأسرعت للاستفادة منها. اقتربت من فيكتور؛ وأسمعته كلمات ودودة تلفظت بها في عبارات يستطيع إدراك معانيها وأرفقت بها شواهد أخرى على الصداقة والود أكثر وضوحا. تضاعفت دموعه المصحوبة بالنحيب وبالتنهدات؛ كما قمت أنا بمضاعفة الملاطفة والمداعبة، وبذلك بلغ الانفعال مداه الأقصى مما جعل كل وتر حساس لدى الإنسان المعنوي-إذا صح التعبير- يرتجف. وحين هدأت هذه الانفعالات تماما أعدت وضع نفس الأشياء تحت بصر فيكتور وطلبت منه أن يعينها لي شيئا بعد آخر كلما أبرزت له اسما بعد الآخر على التعاقب. وبدأت بطلب الكتاب، فنظر إليه في البداية لفترة طويلة ثم قام بحركة للإمساك به بينما كان يحاول البحث في عيني عن بعض علامات الموافقة أو الاستهجان لكي يحسم تردده. وقد أخذت حذري وكانت سمات وجهي صامتة. هكذا لم يتبق له سوى الاعتماد على حكمه الخاص؛ وقد رأى أن هذا الكتاب ليس هو المطلوب وأخذ يبحث بعينيه في جميع أرجاء الغرفة، ولم يتوقف إلا أمام الكتب المنثورة فوق المنضدة والمدفأة..

كان هذا النوع من البحث بمثابة شعاع من الضوء بالنسبة لي. وفتحت بعدها دولابا مليئا بالكتب وأخرجت منه حوالي عشرة كتب حرصت على أن أضع بينها كتابا مماثلا تماما للكتاب الذي تركه فيكتور في غرفته. ولم يستغرق فيكتور أكثر من لحظة لكي يمسك بالكتاب ويقدمه لي وقد تألق وجهه.

٢٦- أوقفت هذه التجربة عند ذلك الحد، وكانت نتيجتها كافية لتعيد إلى الآمال التي تخليت عنها بلا روية، ولكي توضح لي طبيعة العقبات التي تسببت فيما حدث. كان من الواضح أن تلميذي لم يكن مخطئا في إدراك مدلول الأسماء، لكنه تعلم دروسي التي لقنتها له بطريقة حرفية، وكان يطبقها بدقة شديدة للغاية. فقد كنت اقتصر على

إعطائه قائمة بأسماء الأشياء الموجودة في غرفته؛ ولهذا اعتقد أنها لا تنطبق إلا على هذه الأشياء وحدها. هكذا كان كل كتاب غير موجود في غرفته لا يسمى بكتاب؛ ولكي يقتنع بأن يسميه أيضا كتابا، كان يجب وجود تشابه كامل بينه وبين الآخر بحيث يجعلهما متماثلين في الشكل بوضوح. ويختلف هذا الأمر تماما مع ما يفعله الأطفال في بداية تعلمهم الكلام حين يضفون على أسماء الأفراد مدلول الأسماء الشاملة للنوع. لكن من أين يمكن أن يجيء هذا الاختلاف الغريب؟ إنه يعود-إن لم أكن مخطئا - إلى بصيرة الملاحظة البصرية المترتبة بالضرورة على التدريب الخاص الممنوح لحاسة البصر. فقد قمت بتدريب هذا العضو كثيرا - باستخدام المقارنات التحليلية- على إدراك الخاصيات الظاهرة للأجسام واختلافات الحجم واللون والشكل فيما بينها، كماأنه بالنسبة للعينين المدربتين بهذه الصورة توجد دائما بين كل جسمين متماثلين بعض نقاط التباين التي قد تجعلنا نعتقد بأن الاختلاف بينهما جوهري. هكذا تم تحديد مصدر الخطأ وأصبح من السهل علاجه. ويتمثل هذا العلاج في توضيح التماثل بين الأشياء بالبرهنة للتلميذ على تماثل استخداماتها أو خاصياتها؛ وفي أن نجعله يرى ماهية الخاصيات المشتركة التي تجعل الأشياء متباينة المظهر تحمل اسما واحدا. وباختصار كان الأمر يتعلق بتعليمه النظر إلى الأشياء من زاوية نقاط التماس بينها، لا الاختلاف فيما بينها.

٢٧- كانت هذه الدراسة الجديدة نوعا من المدخل إلى فن المقارنات. وانكب التلميذ في البداية على هذه الدراسة مزودا بمخزون زهيد إلى حد أنه كان يشرد من جديد بأن يمنح نفس الاسم لأشياء لا توجد بينها روابط سوى تشابه أشكالها أو استخداماتها. هكذا كان يستخدم اسم كتاب لتعيين رزمة أوراق، أو كراسة، أو جريدة، أو كتيب بلا أى تمييز بينها. وكان يطلق اسم عصا على كل قطعة خشب رفيعة وطويلة، ويطلق أحيانا اسم فرشاة على المكنسة، واسم مكنسة على الفرشاة. ولو لم أقم بقمع هذا التعسف في عمل المقارنات لكان

فيكتور قد اقتصر على استخدام عدد قليل من الأسماء لاطلاقها على العديد من الأشياء المتباينة بلا تمييز والتي لا يوجد ما هو مشترك بينها سوى بعض الخواص العامة المميزة للأجسام.

٢٨- وفي وسط هذه الأخطاء، أو بالأحرى هذه التذبذبات لذكاء يتجه باستمرار نحو الاسترخاء، ويتغير بلا انقطاع بواسطة أساليب اصطناعية، اعتقدت أنني شهدت نمو إحدي هذه الخاصيات المميزة للانسان العاقل، وهي خاصية الابتكار. وبالنظر مليا إلى الأشياء من ناحية تشابهها أو خاصياتها المشتركة، كان فيكتور يستنتج من وجود تشابه في الأشكال بين أشياء متنوعة، ضرورة وجود تماثل في الاستخدام وفي الوظائف بينها. وكان الاستنتاج على الأرجح في غير محله؛ لكنه أتاح له فرصة إصدار أحكام حتى وإن كانت بالبداهة خاطئة، إلا أنها تحولت بالنسبة له إلى وسائل جديدة للتعلم. وأذكر أنني في أحد الأيام طلبت منه كتابة أن يحضر لي سكينا ، لكنه اكتفى بأن أحضر لي موسى من الغرفة المجاورة. تظاهرت بأنني قد ارتضيت به؛ وحين انتهى الدرس، وأعطيته "تصبيره" من الطعام كالعادة، طالبته بتقطيع الخبز بدلا من تجزيئه بأصابعه كعادته. ومن أجل هذا قدمت له الموسى الذي أعطاني إياه باعتباره سكينا. خضع للأمر وأراد استخدام الموسى لكن قلة ثبات هذه الشفرة منعته من تقطيع الخبز. واعتبرت أن الدرس لم يكتمل وأمسكت بالموسى في حضور فيكتور واستخدمته في أغراضه الصحيحة. ومنذ ذلك الوقت أصبح من المفروض ألا تصبح هذه الأداة في نظر فيكتور سكينا. ولم يلبث فيكتور أن أكد لي هذا الأمر. أمسكت كراسته وأبرزت له كلمة سكين، فقام التلميذ على الفور بإظهار السكين التي كان يمسكها بيده والتي أعطيتها له حين لم يستطع استخدام الموسى. ولكي تصبح هذه النتيجة مستوفاة كان يلزم القيام بالبرهان-المضاد. أمسك فيكتور

بالكراسة بين يديه، بينما قمت من جانبي بلمس الموسى، لكن بمـا أنـه كان لا يزال يجهل اسم هذه الأداة، ولم يشر إلى أية كلمة بالكراسة.

٢٩- وفـي أوقـات أخرى كـانت الإحـلالات التـي يتبينـها تفـترض إجراء مقارنات أكثر غرابة بكثير. وإنني أذكر أننا كنـا نتنـاول طعـام العشاء في أحد الأيام بالمدينة وأراد الحصول على بعض العدس الذي قدم إليه في الوقـت الـذي لـم تعـد توجـد فيـه أطبـاق أو صحـون علـى المائدة، فارتأى الذهـاب إلـى المدفـأة لاحضـار رسـم صغير مسـتدير الشكل لتقديمه بدلا مـن الصحـن، وكـان هـذا الرسـم موضوعـا داخـل إطار حافته جرداء وبارزه ويشبه الصحن إلى حد كبير.

٣٠-لكن هذه الحيل كانت فـي أحيـان كثـيرة أكـثر ابتكـارا وأفضـل توفيقا، وتستحق بحق أن تسمى ابتكارا. ولا أتردد في أن أضفي صفة الابتكار هذه على الوسيلة التي حصل بها فيكتور على "حامل قلـم" (انبوب معدني يحفظ فيه القلم). ففـي إحـدى المـرات كـان فـي مكتبـي وجعلته يسـتخدم حـامل القلـم كـأداة لتثبيـت قطعـة طبـاشير لـم يسـتطع إمسـاكها بـأطراف أصابعـه. وبعـد مضـي أيـام قليلـة واجـه فيكتـور الصعوبة ذاتها؛ لكنه كان في غرفته، ولـم يكـن لديـه حـامل قلـم لكـي يمسك به قطعة الطباشير. وإنني أدعو الإنسان الأكثر حذقا، أوالأكـثر ابتكـارا أن يقـول أو بـالأحرى أن يفعـل مـا فعلـه فيكتـور مـن أجـل الحصول على حامل قلم. فقد أحضر سـيخا مـن الأسـياخ المسـتخدمة في الشواء في المطـابخ الكبـيرة، وكـان مـهملا متروكـا فـي أعمـاق دولاب صغير وقد أكله الصدأ. كـانت هـذه هـي الأداة التـي اسـتخدمها لكي تحل محل أداة أخرى يحتاج إليها وعرف كيف يحولها إلى حامل أقلام حقيقـي بفضـل إلـهام استمده مـن خيالـه المبـدع حقيقـة. وأرجـو ياسيدي أن تعذرني بسبب الأهمية التي أمنحها لهذه الواقعة. فإنه يجب تجربة جميع الكروب والمعاناة التـي مـررت بـها فـي تعليـم مثـل هـذا الشاب، ويجب أن تكون قد تابعت ووجهت تطوراته الشاقة منذ أن قام

بأول فعل من صنع انتباهه حتى صدور هذه الشرارة الأولى التي أطلقها خياله، لكي تكون لديك فكرة عن البهجة التي شعرت بها، وحتى يمكن التسامح معي حين أعرض واقعة بسيطة وعادية كهذه بنوع من التفاخر. ومما يزيد من أهمية هذه النتيجة المعتبرة كدليل على الحاضر الأفضل، وكضمان لحدوث تحسن في المستقبل، أنه بدلا من أن تظهر منعزلة مما يجعلها تبدو عرضية، ظهرت مجتمعة مع مجموعة نتائج أخرى أقل إثارة بلا ريب، لكنها تجيء جميعا في نفس الفترة، وتصدر عن نفس المنبع، وتبدو أمام المراقب اليقظ كنتائج متباينة لاندفاع عام. والواقع أنه تجدر ملاحظة بأنه منذ هذه اللحظة قد اختفت تلقائيا طائفة من العادات الروتينية التي اكتسبها التلميذ من أسلوبه في الانكباب على أشغال صغيرة فرضت عليه. وبينما نمتنع بصرامة عن إجراء تشبيهات تعسفية، وعن استخلاص نتائج مستبعدة، فإنني أعتقد أنه يمكننا على الأقل التوقع بأن الطريقة الجديدة لتأمل الأشياء التي نشأت عنها فكرة توظيف هذه الأشياء في استخدامات جديدة، قد أجبرت التلميذ بالضرورة على الخروج من الدائرة الرتيبة لعاداته الآلية.

٣١ـ - وبعد أن أصبحت واثقا تماما بأنني قد ثبت في ذهن فيكتور العلاقة بين الأشياء وأسمائها لم يبق لي إلا زيادة عدد هذه الأشياء على التوالي. وإذا ما كان قد تم إدراك الطريقة التي استخدمتها لتثبيت مدلول الأسماء الأولى إدراكا جيدا، فلا بد أنه تم التكهن بأنه لا يمكن تطبيق هذه الطريقة إلا على الأشياء المحصورة وصغيرة الحجم، ولا يمكننا بالطريقة نفسها وضع بطاقات على سرير أو غرفة أو شجرة أو شخص، ولا على الأجزاء المكونة لكل واحد وغير المنفصلة عنه. لم أجد أية صعوبة في تبيان معنى هذه الكلمات الجديدة بالرغم من أنني لم أستطع ربطها عيانا بالأشياء التي تمثلها مثلما فعلت في التجارب السابقة. كان حسبي أن أشير بأصبعي إلى الكلمة الجديدة، وأظهر الشيء الذي تدل عليه هذه الكلمة باليد الأخرى، حتى يتم فهم

ما أعنيه. وقد وجدت بعض المشقة في تعليمه أسماء الأجـزاء الداخلـة في تكوين كل واحد. هكذا ظلت كلمات الأصـابع والأيدي والسـواعد لأمد طويل لا تستطيع منح التلميذ أي معنى مميز. وبالبداهة تعود هذه الحيرة في إدراك مدلول العلامات إلى أن التلميذ لم يكـن قـد فـهم بعد أنه إذا ما نظرنا إلى أجزاء الجسم كل على حـدة فإنـها تشكل بدورهـا أشياء مميزة يحمل كل منها بدوره اسما خاصا . ولكـي أعطيـه فكـرة عن هذا الأمر أمسكت بكتاب له غلاف، ثم نزعت منه الغـلاف وعـدة أوراق. وكلما أعطيت فيكتور جزءا من هذه الأجزاء المنفصلة كنت أكتب اسم هذا الجزء على السبورة السوداء؛ ثم أشير مرة أخـرى إلـى اسم كل جزء عندما أجعله يمسك به مرة أخرى. وبعد أن تم حفر هـذه الأسماء جيدا في ذاكرته أعدت الأجزاء المنفصلة إلى أماكنها وسألته عن أسماءها من جديد فأشار إليها كمـا كـان يفعل مـن قبل؛ ثـم قمـت بعدها بإبراز الكتاب بأكمله وسألته عن اسمه فأشار بأصبعه إلى كلمـة "كتاب".

٣٢-لـم يحتـاج الأمـر إلـى جـهد زائـد لكـي يتـآلف فيكتـور مـع المصطلحات الدالة علـى مختلـف أجـزاء الأجسـام المركبـة؛ ولكـي لا يخلط الأسماء الخاصة بكل جزء بالاسـم العـام للجسـم كنـت حريصـا على لمس كل جزء فور إبرازه له، أما عند سؤاله عن اسم الجسم فقد كنت اكتفي بالإشارة إليه دون لمسه.

٣٣- انتقلت من هذه التجربة التوضيحية إلى تلك الخاصة بخاصيات الأجسام. ودخلت هنا في مجال المجردات الذي خشيت ألا أتمكـن مـن التوغل فيه أو لأن أجد نفسي سرعان ماتوقفت بسبب مصاعب يتعـذر التغلب عليها. ومع ذلك لم تقابلني صعوبة واحدة؛ وقـد أدرك تجربتـي الأولى على الفور بالرغم أنها تناولت إحدى خاصيات الأجسام الأكثر تجريدية وهي خاصيـة المسـاحة. فقد أمسـكت كتـابين مجلديـن بنفس الطريقة لكنهما يختلفان في المقاس: كان مقاس أحدهما كبيرا والآخـر صغيرا . لمست الكتاب الأول، ففتح فيكتور كراسته وأشـار بأصبعـه

إلى كلمة "كتاب". ولمست الثاني فأشار التلميذ من جديد إلى نفس الكلمة. كررت نفس التجربة عدة مرات وحصلت دائما على نفس النتيجة. أمسكت بعدها بالكتاب الأصغر وأعطيته لفيكتور وجعلته يبسط يده أفقيا على غلافه: كانت يده تغطي مساحة الكتاب بأكملها تقريبا؛ وجعلته حينذاك يفعل نفس الشيء مع الكتاب الأكبر مقاسا: غطت يده بالكاد نصف الكتاب. ولكي لا يسيء الظن بنيتي أظهرت له الجزء المكشوف وجعلته يفرد أصابعه في اتجاه هذا الجزء: لم يستطع فعل ذلك من غير أن يكتشف جزءا تتساوى مساحته مع الجزء الذي تغطيه يده. وبعد هذه التجربة التي أثبتت لتلميذي الاختلاف بين مساحة هذين الشيئين بطريقة في غاية الوضوح سألته من جديد عن الاسم. تردد فيكتور في إجابته لشعوره بأنه لا يمكن استخدام نفس الاسم لشيئين اكتشف للتو بأنهما غير متماثلين. كنت أتوقع منه ذلك. كتبت كلمة "كتاب" على بطاقتين ثم وضعتهما على كل من الكتابين. وكتبت بعدها كلمة "كبير" على بطاقة ثالثة وكلمة "صغير" على بطاقة رابعة، ووضعت البطاقتين الجديدتين بجوار البطاقتين الأوليتين إحداهما على الحجم الكبير والأخرى على الحجم الصغير. وبعد أن بينت لفيكتور ترتيب البطاقات تناولتها وخلطتها معا لفترة من الوقت ثم أعطيتها له لكي يضعها من جديد. وقد قام فعلا بوضع البطاقات بالطريقة الصحيحة.

٣٤- هل أدرك فيكتور معنى كلمتي "كبير" و"صغير"؟ كنت في حاجة إلى التيقن والحصول على برهان أكيد، ولهذا قمت بالتجربة التالية: أحضرت مسمارين مختلفي الطول؛ وقمت بالمقارنة بينهما بالطريقة ذاتها التي استخدمتها مع الكتب. ثم كتبت كلمة "مسمار" على بطاقتين وعرضتهما دون أن أضيف صفتي "كبير" و"صغير" على أمل أنه سيقوم باستخدامهما مثلما حدث من قبل لتبيان اختلاف الحجم بين الكتابين. وهذا هو ما حدث بالفعل وبسرعة مما جعل البرهان أكثر إقناعا أيضا. كانت هذه هي الطريقة التي استخدمتها

لتعليمه صفة المساحة، وقد استخدمتها بنجاح أيضا لتعليمه العلامات التي ترمز إلى صفات الجسم المحسوسة الأخرى، مثل تلك الخاصة باللون، وبالثقل، وبالمقاومة الخ.

٣٥- بعد أن شرحت الصفات جاء دور الأفعال. ولكي أجعل التلميذ يفهم "الفعل" لم يكن على سوى إخضاع الشيء الذي يعرفه إلى أنواع مختلفة من الأفعال التي كنت أشير إلى كل فعل منها كلما قمت بتنفيذه. مثال ذلك أنني أمسكت مفتاحا؛ وكتبت اسمه على سبورة سوداء، ثم لمسته، ورميته، والتقطه، ووضعته على شفتي الخ. وفي الوقت الذي كنت أنفذ فيه كلا من هذه الأفعال كنت أكتب في عامود بجانب كلمة مفتاح الأفعال: يلمس، يرمي، يلتقط، ويقبل الخ. وقمت بعدها بإحلال اسم شيء آخر محل كلمة مفتاح وأخضعته إلى الأفعال نفسها بينما كنت أشير بأصبعي إلى الأفعال التي كتبتها من قبل. وقد حدث مرارا أنه بإحلال شيء مكان آخر لجعله مفعولا به بطريقة عشوائية، أن كان بين هذه الأفعال وطبيعة هذا الشيء تنافرا كبيرا بحيث أصبح الفعل القائم غريبا أو مستحيلا . مثال ذلك أنه في أحد الأيام وجدت نفسي بعد أن أجريت تعديلات متتابعة في المفعول به قد حصلت على هذه التراكيب الغريبة: "يمزق حجرا "، "يقطع كوبا "، "يأكل مكنسة". وقد تخلص فيكتور من هذا المأزق ببراعة فقام بتغيير الفعلين في الجملتين الأوليتين، ليجعلهما أقل تنافرا مع المفعول به. وبالتالي أمسك بمطرقة لكي يكسر الحجر، وترك الكوب يسقط لكي يكسره. وحين وصل إلى الفعل الثالث ولم يجد فعلا آخر ليضعه محله بحث عن مفعول به آخر فأمسك بقطعة خبز ثم أكلها.

٣٦- وبينما كنا مجبرين على التقدم بمشقة في دراسة هذه الصعوبات النحوية، كنا نقوم في الوقت نفسه بممارسة الكتابة باعتبارها وسيلة لتعليم إضافي ولتسلية لا غنى عنها. كشف هذا العمل في بدايته عن صعوبات جمة كنت أتوقعها. إن الكتابة هي تدريب

على المحاكاة، وكان يلزم خلق المحاكاة لدى متوحشنا. هكذا حينما أعطيته لأول مرة قطعة طباشير وضعتها بطريقة ملائمة بين أنامله، لم أتمكن من الحصول منه على أي خط أو علامة تدل على أنه يعتزم محاكاة ما يرى أنني • وعلى هذا كان يلزم النكوص مرة أخرى، مع السعى لإخراج قدراته على المحاكاة من خمولها، وذلك بإخضاعها - كما يحدث مع جميع ملكاته الأخرى - لنوع من التعليم التدريجي • شرعت فى تنفيذ هذه الخطة وذلك بتدريب فيكتور على أعمال محاكاة بدائية مثل رفع الذراع وتقديم الرجل والجلوس والنهوض فى نفس الوقت الذى أنهض فيه، وبسط اليد وقبضها ثم تكرار حركات عديدة بأصابعه أقوم بتنفيذها أمامه، وكانت هذه الحركات فى البداية بسيطة وأصبحت بعدها أكثر تعقيدا • قمت بعدها بتسليح يده - ويدى أيضا - بقضيب منحوت الطرف جعلته يمسكه كما يمسك ريشة الكتاب وذلك بقصد منح أصابعه قوة وانتصابه أكثر بسبب صعوبة المحافظة على توازن هذا الشبيه بالريشة، ولجعل أصابعه أكثر استعدادا للإستقبال وبالتالى تستطيع محاكاة أقل حركة يجريها القضيب •

٣٧- وبذلك أصبحنا بفضل هذه التمرينات التمهيدية مهيأين لبدء عملية المحاكاة على السبورة السوداء • أمسك كل منا بقطعة طباشير وبعد أن وضعنا يدينا على مستوى ارتفاع متماثل على السبورة بدأت أنزل بقطعة الطباشير رأسيا وببطء نحو أسفل السبورة• كان تلميذى يفعل ما أفعله متخذا بدقة ذات الاتجاه ويوزع انتباهه بين الخط الذى أرسمه وذلك الذى يرسمه، وينقل نظره من أحد الخطين إلى الآخر بلا كلل، وكما لو كان يريد مراجعة جميع النقاط على التتابع •

وكانت حصيلة ماصنعناه خطين متوازيين تماما • ولم تكن دروسى التالية سوى تطوير هذه الطريقة ذاتها: إننى لن أتكلم عنها • حسبى القول بأن النتيجة بلغت بعد مضى عدة شهور حدا استطاع فيكتور معه أن ينسخ الكلمات التى كان يعرف مدلولها من قبل ثم أصبح بعدها يستطيع استحضارها من ذاكرته، واستطاع أخيرا

استخدامها فى كتابته- المشوه - للتعبير عن احتياجاته، ولطلب الوسائل الكفيلة بإشباعها، ولكى يعرف عن طريق الكتابة أيضا احتياجات الآخرين أو رغباتهم٠

٣٨- وبما أننى كنت أنظر إلى تجاربى بإعتبارها دروسا حقيقية فى المحاكاة، فقد ظننت وجوب عدم قصرها على أفعال المحاكاة اليدوية٠ وأدخلت فى هذه التجارب طرق عديدة لاعلاقة لها مطلقا بآلية الكتابة، لكن كانت نتيجتها تخص ممارسة الذكاء أكثر٠ وهذه هى طريقة واحدة من بين طرق عديدة أخرى: رسمت دائرتين على سبورة سوداء، ووضعت ستة أو ثمانية حروف أبجدية على ست أو ثمانى نقاط على محيط كل من هاتين الدائرتين كما وضعت الحروف نفسها داخل الدائرة لكن بطريقة متنوعة٠ثم رسمت داخل إحدى الدائرتين خطوطا عديدة تصل بين الحروف الموضوعة داخلها وتلك المماثلة الكائنة على محيطها: قام فيكتور بعمل الشىء نفسه على الدائرة الأخرى٠ لكن بسبب اختلاف أوضاع الحروف تمخضت المحاكاة الأكثر دقة عن شكل يختلف كلية عن الشكل الذى قدمته له كنموذج٠ ومن هنا تتضح فكرة المحاكاة المميزة تماما، التى بموجبها لايتعلق الأمر بنسخ شكل معين بطريقة حرفية، بل بإعادة إنتاج روح هذا الشكل ونهجه من غير أن يعوقنا عن ذلك اختلاف النتيجة٠ لم يعد الأمر هنا تكرارا نمطيا يجريهن التلميذ لما يراه، مثلما نحصل عليه إلى حد ما من بعض الحيوانات التى تجيد المحاكاة، لكنه محاكاة ذكية وعقلانية، متغيرة في مناهجها كما فى تطبيقاتها، وهذا هو بإختصار ما من حقنا إنتظاره من الإنسان الممنوح حرية الإنتفاع بجميع ملكاته الذهنية٠

٣٩- والأرجح أن المراقب قد يجد أن الأكثر غرابة من بين جميع ظاهرات التطورات الأولى للطفولة هى سهولة تعلم الطفل للكلام وحين نفكر بأن الكلام الذى هو بلا ريب الفعل الأكثر روعة للمحاكاة

هو أيضا نتيجتها الأولى، فإننا نشعر بتضاعف إعجابنا بهذا الذكاء الأسمى الذى يعتبر الانسان بأنه أفضل أعماله، والذى بسبب رغبته فى أن يجعل من الكلام المحرك الرئيسى للتعليم، قد أوجب عدم إخضاع النمو التدريجى للملكات الأخرى إلى المحاكاة٠ لكن القدرة على المحاكاة التى يمتد تأثيرها طوال الحياة تتباين فى استخدامها وفقا لإختلاف الأعمار، ولاتستخدم فى التدرب على الكلام إلا أثناء الطفولة المبكرة٠ وتقوم المحاكاة فيما بعد بتوجيه وظائف أخرى وتتخلى تقريبا عن الأداة الصوتية حيث أن الطفل الصغير، بل وحتى المراهق ذاته، الذى يغادر مسقط رأسه سرعان ما يفقد أسلوب لغته، ونغمتها، ونطقها لكن لا يفقد إطلاقا نبرات الصوت المكونة لما نسميه باللهجة٠ ويترتب على الحقيقة الفسيولوجية أنه حين قمت بتنشيط المحاكاة لدى هذا الشاب المتوحش الذى بلغ سن المراهقة فعلا، كان يجب على ألا أتوقع وجود أى استعداد لدى عضو الصوت لإستثمار ملكات المحاكاة هذه، وذلك حتى مع الإفتراض بأننى لم أواجه عقبة ثانية متمثلة فى سبات حاسة السمع بعمق٠ ومن هذه الناحية الأخيرة يمكن إعتبار فيكتور أصما - أبكما - بالرغم من أنه فى مرتبة أدنى بكثير من هذه الفئة من الكائنات المتصفة أساسا بدقة الملاحظة وبالقدرة على المحاكاة٠

٤٠- ومع ذلك ظننت أنه لايجب على التوقف عند هذا الإختلاف، ولا التخلى عن الأمل فى جعله يتكلم، ولا عن جميع المزايا التى عولت عليها إلا بعد تجربة الوسيلة الأخيرة المتبقية لى بلوغ هذه النتيجة: هذه الوسيلة هى دفعه الى ممارسة الكلام عن طريق حاسة البصر وليس بواسطة حاسة السمع التى يرفض استخدامها٠ وبناءا عليه كان الأمر فى هذه التجربة الأخيرة يتعلق بتدريب العينين على إدراك آلية نطق الأنغام، وتدريب الصوت على تكرارها باستخدام قوى الانتباه والمحاكاة مجتمعة٠ واتجهت جميع مجهوداتى وجميع تدريباتنا خلال أكثر من عام نحو هذا الهدف٠ ومن أجل استخدام

طريقة التدرج غير المحسوس هنا أيضا، جعلت تقليد حركات عضلات الوجه - السهل الى حد ما - بدأت بتلك العضلات الأكثر وضوحا يسبق دراسة النطق المرئى للأصوات . هكذا ها هما المدرس والتلميذ يجلسان الواحد فى مواجهة الآخر للتنافس فى تقطيب الوجه أى أنهما يجعلان عضلات العينين والجبهة والفم والفك تقوم بحركات من كل نوع . ويقومان بعدها بتركيز التجارب شيئا فشيئا على عضلات الشفاة، والإلحاح لأمد طويل على دراسة حركات هذا الجزء من عضو الكلام كثير اللحم، ثم يتم فى النهاية إخضاع اللسان الى التدريبات ذاتها لكن بصورة أكثر تنوعا وتستمر لأمد أطول .

٤١- هكذا بدا لى بأنه بعد إعداد عضو الكلام بهذه الطريقة لابد وأنه قد أصبح صالحا لتقليد الأصوات المنطوقة بسهولة، واعتبرت أن هذه النتيجة وشيكة بقدر ماهى مؤكدة النجاح . وقد أصبت بخيبة أمل كاملة؛ إذ أن كل ما استطعت الحصول عليه من هذه المجموعة الكبيرة من التمرينات العلاجية اقتصر على الإدلاء ببعض الكلمات المشوهة ذات المقطع الواحد، التى تكون تارة مرتفعة وطورا خفيضة، كما أنها أقل وضوحا بكثير من تلك الكلمات التى حصلت عليها من تجاربى الأولى . ومع ذلك فقد صمدت وكافحت خلال أمد طويل ضد تصلب هذا العضو الى أن وجدت فى النهاية أن المداومة على العلاج وتعاقب الزمن لم يحدثا أى تغيير . وعند ذاك خضعت وقررت إنهاء محاولاتى الأخيرة لجعل تلميذى يتكلم عند هذا الحد، ثم أسلمت تلميذى الى صمت عضال .

تنمية
الملكات الوجدانية

٤٢ـ لقد رأيت، ياسيدى أنه بقيام المدنية بإقامة ملكات متوحشنا الذهنية فى بلادتها العميقة، فقد حددت أولا ممارسة هذه الملكات على أغراض احتياجاته، وبسطت دائرة أفكاره الى ماهو أبعد من الحياة الحيونية وسوف ترى ياصاحب المعانى، أن الملكات الوجدانية قد خضعت لنسق النمو ذاته، اذ تيقظت فى البداية من خلال شعور باحتياجات غريزة البقاء، ثم تسببت بعدها فى تولُّد مشاعر أقل نفعية وحركات أكثر انطلاقا وتعبيرا، كما أثمرت بعض هذه المشاعر النبيلة التى تصنع فخر وسعادة القلب الانسانى •

٤٣ـ كما أن فيكتور فى مستهل دخوله الى المجتمع بارد العاطفة تجاه جميع أنواع العناية التى أحيط بها، لم يكن يميز بين الملاطفة الفضولية والرعاية الودية، كما لم يظهر خلال أمد طويل أية علامة على اهتمامه بالشخص الذى يرعاه • كان يقترب من هذا الشخص حينما تجبره الحاجة، ويبتعد عنه حالما يشبع حاجاته، ولم يكن يرى فيه سوى اليد التى تطعمه، كما لم يرى فى هذه اليد سوى ماتحتويه • هكذا كان فيكتور من ناحية حياته الأخلاقية طفلا يعيش أيام حياته الأولى، فينتقل من ثدى أمه الى ثدى مرضعته، ثم الى مرضعة أخرى دون أن يرى فارقا آخر بخلاف كمية ونوعية السائل الذى يتغذى عليه • لقد أبدى متوحشنا عند خروجه من أحراشه هذا الشعور ذاته بعدم المبالاة تجاه تكرار تغيير الأشخاص المكلفين بحضانته، وحدث عند ذلك أن استقبله واعتنى به واقتاده الى باريس فلاح فقير من منطقة الأفيرون أغدق عليه بجميع دلائل الحنان الأبوى، ثم انفصل عنه فجأة دون أن تظهر على متوحشنا أى علامات من المعاناة أو التحسُّر •

٤٤ـ كان فى مستهل الحاقه بالمؤسسة قد تُـرك خـلال الشـهور الثلاثـة الأولى لمضايقات متطفلى باريس الكسولين، ولأولئك الحاملين لصفـة المراقبين الخادعة والذين لم يكونوا أقل من المتطفلين اذعاجا له. ظل طوال هذه الفترة هائما على وجهة فى ممرات الدار وحديقتها فى ظـل أقصى ظروف مناخية خلال العام، وكان يعانى فى أغلب الوقت مـن الجوع، موغلا فى قذارة باعثة على التقذذ. وقد وجد نفسه فجأة مدللا ومعززا من جانب مشرفة تفيـض رقـة ورحمـة وذكـاء، لكـن دون أن يبدو هذا التغيير بأنه قد أيقظ فى قلبه أدنى شعور بالعرفـان بـالجميل. ومهما كان تفكيرنا فى هذا الأمر ضئيلا فإنه لـن يدهشـنا قـط. الواقـع انه ما الذى تستطيع المعاملة الأكثر ملاطفة، والرعايـة الأكثر ودا أن تفعله مع كائن يبلغ الى هذا الحد من برود العاطفـة. ومـا الـذى يهمـه من ارتداء ملابس لائقه والعيش فى دفء ورفاهة، والنوم فـى فـراش وثير، وهو كائن تعود على التقلبـات الجويـة، وفقد الاحسـاس بمزايـا الحياة الاجتماعية، ولم يعرف خيرا آخـر غير الحريـة، ولايـرى فـى المسكن الأكثر رفاهـة سـوى أنـه سـجن. ومـن أجل تنبيـه عرفانـه بالجميل كان يلزم احاطته بمنافع مـن نـوع آخر وذات طبيعـة أخـرى حتى يمكن لإنسان غير عادى مثل فيكتور أن يقدرها؛ ولهذا كان يلزم النزول الى مستوى ميوله، وجعله سعيدا وفقا لطريقته. وقـد تمسـكت بدقة بهذه الفكرة باعتبارها الدليل الرئيسى لعلاج هذا الطفـل معنويـا. لقد سبق أن أطلعتكم عن النجاحات الأولى التى تم تحقيقها. وقلت فـى تقريرى الأول كيف تمكنـت مـن جعلـه يحـب مربيتـه ويجعـل حياتـها الاجتماعية محتملة. غير أنه مهما كـان هـذا الارتبـاط يبـدو حـارا الا أنه لازال أيضا أعتباره تدبيرا أنانيا. وكان مايدعو لارتيابى فـى هـذا الأمر حين لاحظت أنـه بعـد غيـاب فيكتـور عـدة سـاعات بـل وحتـى بضعة أيام، كان يعود الى تلك التى ترعى شئونه مُظْهراً مشاعر ودية تتناسب حرارتها مع طول أمـد الغيـاب بصـورة أقل ممـا مـع المزايـا الحقيقية التى كان يجدها عند عودته والحرمان الـذى كـابده أثنـاء هـذا

الغياب • وكان الملاطفات التى يظهرها نفعية أيضا، فقد كان يستخدمها فى البداية للتعبير عن رغباته أكثر بكثير مما لإظهار امتنانه؛ بحيث أنه مارقبناه جيدا بعد انتهائه من تناول وجبة شهية نجده يقدم لنا هذا المشهد المحزن وهو إنه منذ اللحظة التى يتم فيها إشباع جميع احتياجاته يصبح كائنا لايهتم بأى شىء مما يحيط به • ومع ذلك فإن تعدد احتياجاته التى فى تزايد مستمر جعلت علاقته بنا ورعايتنا له تتزايد، والنهاية انفتح هذا القلب القاسى على مشاعر العرفان والصداقة الواضحة • ومن بين السمات العديدة التي يمكن ذكرها كدلائل على هذا التغير الايجابى سأكتفى بايراد السمتين التاليتين •

٤٥- حدث فى المرة الأخيرة أنه بسبب استحضاره لذكرياته السابقة، وشغفه بالحرية فى الحقول هرب متوحشنا من الدار، واتجه نحو سنليس Senlis (مقاطعة فرنسية) حيث لجأ الى الغابة، لكنه لم يبق فيها طويلا إذ خرج منها جديد ولاريب أنه فعل ذلك بسبب الجوع واستحالة قيامه بكفاية نفسه بنفسه • وحين اقترب من المناطق الريفية المجاورة وقع بين أيدى رجال الشرطة الذين قبضوا عليه باعتباره متشردا واحتفظوا به بهذه الصفة لمدة خمسة عشر يوما • وتم خلال هذه الفترة التعرف على شخصيته، وأعيد الى حى لوتامبل بباريس حيث ذهبت مربيته مدام جويران للمطالبة بتسلمه • وماكاد فيكتور يلمح مربيته حتى امتقع لونه وفقد الوعى لفترة؛ لكنه بعد احساسه بقبلات مدام جويران وملاطفاتها عاد الى وعيه فجأة، معربا عن بهجته بالصراخ بصوت عالى، وبانقباض يديه بصورة تشنجية، وبقسمات وجه المنشرحة والمتألقة • وقد بدا أمام أعين جميع الحاضرين فى صورة ابن محب يعود بإراداته ليرتمى فى أحضان تلك التى جاءت به الى هذا العالم أكثر منه هاربا يعود مضطرا الى رقابة حارسته •

٤٦- ولم تكن الحساسية التى أبداها خلال مقابلتى الأولى معه أقل

شأنا ٠ لقد قابلته فى اليوم التـالى لذلك اليوم، كـان فيكتـور لازال فـى فراشه وماكاد يرانى أدخـل غرفتـه حتـى جلس علـى مؤخرتـه رافعـا رأسه ومادا ذراعيه نحوى٠ لكنـه حيـن وجدنـى واقفـا مكـانى لاأتقدم نحوه، وقد بدا على ملامحه البرود والاستياء، عاد ليغطس فى سريره تحت الأغطية ثم أخذ فى البكاء٠ قمت بزيادة حدة الانفعال بأن وجهته لـه اللـوم والوعيـد بصـوت عـال٠ ازدادت دموعـه انـهمارا وكـانت مصحوبـة بشـهيق عميـق ونحيب طويـل٠ وحيـن أوصلـت الإثـارة العاطفية الى أقصاها ذهبت لأجلس فوق سـرير النـادم التعيس٠ كـان ذلـك دائمـا هـو علامـة أننـى أسـامحه٠ فـهم فيكتـور مـا أعنيـه وقـام بالمبادرات الأولى للتصـالح وتم نسيان كل شىء٠

٤٧ـ وحدث ايضـا فـى التفـترة ذاتـها تقريبـا أن مـرض زوج مـدام جويران وكـان يعالج خارج الدار دون أن يعلم فيكتور بـالأمر٠ وكـان من بين المهام المنزلية الصغيرة المسندة الـى متوحشنـا اعـداد المـائدة وترتيب وضـع أدوات الطعام وقت العشاء، واستمر فـى وضـع أدوات الطعام الخاصة بمسيو جويران بالرغم من أنـهم كـانوا يوميـا يقومـوم بعدها برفعها من موضعـها، ومـع ذلـك كـان يعيد وضعـها فـى اليـوم التالى٠ وكانت نهاية مرض مسيو جويران مؤسـفة، إذ فـارق الحيـاة، وفى يوم وفاته وضـع فيكتور من جديـد أدوات طعامـه علـى المـائدة٠ ويمكننا تصـور مدى تأثير هذا الأمر القاسى على مدام جويران٠ كـان فيكتور شاهدا لهذا المنظر المؤلم وأدرك أنه السـبب، وسـواء كـان قد اقتصر على فهم أنه قد تصرف بصـورة سيئة أو أنـه قـد أدرك بعمـق البـاعث علـى حـزن مربيتـه، إلا أنه قـام بمبـادرة منـه برفـع الأدوات الخاصـة بمسيو جويران من على المائدة وأعادها الى الدولاب وقد بدا عليه الحزن والأسى، ولم يعد وضعـها مرة أخرى قط٠

٤٨ـ كان ذلك انفعالا حزينا ينتمى كلية الى مجال الإنسان المتمديـن٠ بل ويوجد انفعال آخر لايقـل انتمـاءا للمجـال ذاتـه هـو التكـدر الشديد الذى كان يصيب تلميذنا الشاب فى كل مرة يتعـذر عليـه فيـها التغلـب

على صعوبة يواجهها أثناء دراستنا بـع أن كـافح ضدهـا بجميـع قـوى انتباهه لكن بلا جدوى • فحينما يغمره الشعور بعجزه، بل لعله بسـبب تأثره بعدم جدوى مجهوداته، كنت أجده يبلـل بدموعـه هـذه الحـروف غير المفهوم لديه، وذلك دون أن تبدو منـى كلمـة تـأنيب أو تـهديد أو عقوبة قد تكون هى السبب فى انهمار هذه الدموع •

٤٩ـ وبينما تقوم المدنية بمضاعفة انفعالاته الحزينة، فلا بد وأنها تقوم بالضرورة بزيادة مباهجه أيضا • إننى لن أتحدث مطلقا عـن المبـاهج المتولدة عن إشباع احتياجاته الجديدة • ومع أنها قد ساهمت بقوى فـى نمو قدراته الوجدانية الا أنها مبـاهج حيوانيـة - اذا صـح القـول - الـى حد لايمكن معه اعتبارها كأدلة صحيحة على حساسية القلب • ولكننى سأتحدث عـن المبـاهج المتعلقـة بالحمـاس الـذى يبديـه وبالمتعـة التـى يجدها فى خدمة الأشخاص الذين يحبهم، بـل وحتـى فـى قيامـه بتأديـة الخدمـات الصغـيرة التـى يسـتطيع تقديمـها وتحقيـق رغباتـهم قبـل إفصاحهم عنها وهذا ما نلاحظه فى علاقته بمـدام جويـران بخاصـة • ومن بيـن مـا أسـميه أيضـا شعـورا خاصـا بـالنفس المتمدينـة، شعـور الرضى والارتياح المرتسم على قسماته، والذى تكشف عنه فى أغلب الأحيان قهقهاته الصاخبـة، وذلـك حينمـا يتغلـب مـن تلقـاء ذاتـه علـى صعوبة مايواجهها أثناء دروسنا، أو حينما أرضى بما حققه مـن تقدم طفيف وأوجه له كلما التشجيع والثناء • ولايعرف فيكتور عن سـروره لايجادتـه عملـه أثنـاء دروسـه فحسـب بـل وأيضـا أثنـاء قيامـه بأيسـر الأعمال المنزلية المسنودة اليـه وبخاصـة اذا مـا كـانت هـذه الأعمـال تتطلب قوى عضلية كبيرة • وحينما نجعله مثلا يمارس نشـر الخشـب نجده يضـاعف مـن حماسـه ومـن جـهوده كلمـا تعمـق المنشـار داخـل الخشب، وعندما ينشق الخشـب فإنـه يستسـلم لمشـاعر ابتـهاج غريبـة تجعلنا نعتبرها كالهذيان الجنونـى وبطبيعـة الحـال يمكـن تفسـير هـذه المشاعر من ناحية بحاجة كائن فى مثل هذا النشاط الى الحركة، ومن ناحية أخرى بطبيعة هذا العمل الذى يحقـق لـه فـى آن واحـد ممارسـة

صحيـة، ووسـيلة للتسـلية وحصيلـة تشبـع احتياجتـه، فـهو يحقـق لـه بطريقة واضحة للغاية جمع ما يسر مع ما يفيد •

٥٠- غير أنه فى الوقت الذى ينفتح فيه قلب متوحشنا علـى القليل مـن مباهج الانسان المتمدين، لـم يتوقـف أيضـا عـن اظـهار تـأثره ببهجـة حياته البدائية • فقد ظل دائما يبـدى الشغـف نفسـه بـالريف، والافتتـان ذاته عند رؤية ضوء القمر السـاطع، والبهجـة الجنونيـة عينـها للريـح العاصف • والواقع أن ولعه بالحرية فى الحقول قد خفت حدتـه بسـبب علاقات الود الاجتماعية وتم اشباعه جزئيا من خلال النزهات العديدة فآ الهواء الطلق؛ لكن لم يتم انطفـاء هـذا الولـع تمامـا، ولـم يكـن يلـزم لإعادة إشعاله سوى ليلة صيف جميلة أو منظر غابـة وارفـة الظـلال، أو الانقطاع مؤقتا عن القيام بنزهاتـه اليوميـة • وكـان هـذا هـو سـبب هروبـه الأخـير • كـانت مـدام جويـران تـلازم الفـراش بسـبب الآلام الروماتيزمية ولم تكن طوال فترة مرضـها التـى دامـت خمسـة عشـر يوما تخـرج مـع تلميذهـا للنزهـة • وقـد تحمـل فيكتـور هـذا الحرمـان بصبر إذ كان بالبداهة يرى سببه • لكن ما كادت مدام جويـران تغـادر الفراش حتى قهقه مبتهجا، وإزدادت بهجته اشتعالا بعد عدة أيام حيـن رآهـا تسـتعد للخـروج فـى يـوم يسـوده طقـس بديـع؛ وهــاهو مسـتعد لمصـاحبـة مرشدتـه • لكنـها خرجـت دون أن تصحبـه • وقـد أخفـى استياءه، وحين أرسل للمطبخ فى وقت العشاء لإحضار أطباق الطعام انتـهز فرصـة فتـح بـاب الفنـاء لاسـتقبال احـدى العربـات فانسـل منـه خارجا الى الشارع وسرعان ما اتجه نحو الغابات •

٥١- لم تقتصر التغيرات التى أحدثتـها المدنيـة فـى نفس الشـاب علـى ايقاظ انفعالات ومباهج غريبة عليه، بل أوجدت لديه أيضا البعض من هذه المشاعر التى نسـميها صفـاء القلـب: ذلـك مثـل الشعـور الداخلـى بالعدل • كان متوحشنا عند خروجه من غاباته قليل الاحسـاس بـالعدل وظللنا لأمد طويل بعدها مضطرين الى فرض رقابة قويـة لمنعـه مـن الاستسلام لشراهته التى لا تشبـع • ومـع ذلـك يمكننـا التكـهن بسـهولة

بأنه لم يكن وقتها يحس سوى بحاجة وحيدة، وهى حاجة الجوع، وكانت اختلاساته تنحصر فى عدد قليل من المواد الغذائية التى يحبها ۰ فى البداية كان يأخذها أكثر مما يختلسها؛ وكان يفعل ذلك بالفترة وفى يسر وببساطة مما يحمل فى طياته شيئا مؤثرا ويجعلنا نتذكر مثالية الأزمان البدائية حينما لم تكن فكرة الملكية قد زرعت فى عقل الإنسان بعد ۰ من أجل كبح ميله الطبيعى هذا للسرقة استخدمت بعض العقوبات التى كنت ألجأ اليها فى حالة التلبُّس ۰ وقد حصلت على ذات مايحصل عليه المجتمع عادة من جهاز عقوباته البدنية المرعبة، وهو تعديل للنزعة أكثر مما هو اصلاح حقيقى؛ وبذلك أصبح فيكتور يختلس بحذق ما كان يختلسه علانية من قبل ۰ ظننت أنه يلزمنى تجربة وسيلة أخرى للإصلاح تجعله يشعر أكثر بعدم لياقة اختلاساته، فاستخدمت معه قانون المجازاة بالمثل ۰ هكذا كان يخضع تارة لقانون أكثر قوة فننتزع من بين يديه الفاكهة التى يشتهيها ونأكلها أمام عينيه، والتى لم تكن فى الأغلب سوى مكافأة مستحقة له بسبب طاعته، وكنا فى طور آخر نحرمه من اختلاساته بطريقة حاذقة أكثر مما هى عنيفة، إذ كان يجد جيوبه فارغة من المؤن الصغيرة التى وضعها فيها قبلها بلحظات ۰

٥٢- حققت أساليب الزجر هذا النجاح الذى كنت أتوقعه، ووضعت حدا لشراهة تلميذى ۰ ومع ذلك لم أنظر لهذا التأديب كبرهان أكيد بأننى قد أوحيت الى تلميذى شعورا داخليا بالعدل ۰ لقد استشعرت تماما بأنه بالرغم من اهتمامه بإضفاء جميع أشكال السرقة غير العادلة والأكيدة على أساليبنا، إلا أنه لم يكن مؤكدا بأن فيكتور كان يرى فيها ما هو أكثر من عقاب على آثامه الخاصة،ومُذ ذاك كان تأديبه يتم عن طريق خوفه من الحرمان من بضع أشياء جديدة، وليس عن طريق إحساسه الموضوعي بالقواعد الأخلاقية. ومن أجل تبديد هذا الشك، والحصول على نتيجة أقل غموضا، ظننت أنه يلزم اختبار حمية تلميذي عن طريق تعريضه لنوع آخر من الظلم

الذي يبدو بأنه عقوبة غير عادلة لا تتناسب مع طبيعة الخطأ، ولهذا فهو مثير للحنق والغضب. كانت هذه التجربة مؤلمة حقا، واخترت لإجرائها أحد الأيام التي ظل فيها فيكتور واقفا على قدميه لمدة تزيد على الساعتين منشغلا بدروسنا التعليمية، وكنت أيضا راضيا عن امتثاله وسعيدا بذكائه، ولم يبق علي سوى أن أغدق عليه بالمكافآت وبكلمات الثناء. ولا ريب بأنه كان ينتظر هذا الإغداق، وقد بدا ذلك بضوح على مظاهر السرور المرتسمة على جميع قسماته كما على جميع حركات جسمه. لكن ما أشد ما كانت دهشته حين رأى أنه بدلا من المكافآت المعتادة ومن المعاملة التي من حقه توقعها والتي يستقبلها دائما بفرح شديد، وجدني اتخذ فجأة صورة متوعدة وصارمة. لقد أبديت جميع علامات الاستياء، ومحوت ما سبق أن أبديته من استحسان، وقمت ببعثرة كراساته وأوراقه في جميع أركان غرفته. وفي النهاية أمسكته من ذراعه وجذبته بعنف نحو الغرفة المظلمة التي استخدمت في بعض الأحيان لحبسه خلال الفترة الأولى من وصوله إلى باريس. خضع مستسلما إلى أن وصلنا إلى عتبة الباب، حيث تخلى فجأة عن طاعته متشبثا بقدميه ويديه بأعمدة الباب، وقاومني بشدة الأمر الذي أمتعني لا سيما وأنه جديد عليه تماما، فلم يحدث قط أن أبدى أي تردد للخضوع إلى عقوبة مماثلة كان تفرض عليه باستحقاق. ومع ذلك فقد تمسكت بموقفي لأرى مدى إصراره على المقاومة، واستخدمت جميع قواي لانتزعه من الأرض وأجذبه إلى الغرفة. وأثارت هذه المحاولة الأخيرة غضبه الجنوني. فقد استشاط غضبا وأخذ يقاوم بضراوة بين ذراعي بحيث ظلت مجهوداتي غير مثمرة خلال بعض الوقت، لكن في النهاية شعر بأنه لا بد وأن يخضع لقانون الأكثر قوة، فلجأ إلى الملاذ الأخير لكل ضعيف بأن انقض على يدي حيث تركت أسنانه فيها آثارا عميقة. وكم كان سيكون عذبا بالنسبة لي في تلك اللحظة لو أمكنني أن أسمع من تلميذي، وأن أقول له إلى أي مدى تغمرني آلام عضدته بالذات

بالرضى وتعوضني عن معاناتي كلها! هل كان من الممكن أن تكون بهجتي بها ضئيلة؟ لقد كان عملا انتقاميا مشروعا؛ وكانت دليلا قاطعا بأن الإحساس بالعدل والظلم وهو القاعدة الأبدية للنظام الاجتماعي ليس غريبا عن قلب تلميذي. وإنني حين منحته هذا الإحساس، أو بالأحرى حين جعلت هذا الإحساس ينمو لديه، فقد قمت بترقية الإنسان المتوحش ورفعه إلى مستوى الإنسان المعنوي عن طريق الأكثر حسما من بين سماته والأكثر رفعة من

٥٣.- حين تحدثت عن ملكات متوحشنا الذهنية، لم أتستر مطلقا على العقبات التي أوقفت نمو بعض هذه الملكات، والتزمت بتحديد جميع ثغرات ذكائه بدقة. وإنني ملتزم بالمنهج ذاته عندما أصف انفعالات هذا الشاب، إذ أنني سأكشف عن الجزء البدائي من عواطفه بنفس الدقة التي تحدثت بها عن الجزء المتمدين. ولن أخفي الجزء البدائي قط بالرغم من أنه أصبح متأثرا بالاعتراف بالجميل وبالصداقة. ومع أنه يبدو بأنه يشعر بشدة بلذة أن يكون مفيدا، فقد ظل فيكتور يتصف جوهريا بالأنانية. ونجده مفعما بالتلطف والمودة حين تكون الخدمات التي نطلبها منه لا تتعارض مع احتياجاته، لكنه يجهل كرم النفس الذي لا يحسب الخسائر ولا التضحيات؛ كما أنه لا يزال يلزم خلق الشعور العذب بالشفقة لديه. وإذا كنا قد شهدنا في علاقاته مع مربيته أنه يقوم أحيانا بمشاطرتها حزنها، فلم يكن هذا الأمر سوى محاكاة مماثلة لتلك التي تنتزع الدموع من عيني الطفل الصغير حينما يرى أمه أو مرضعته تبكي. وإننا لكي نتعاطف مع آلام الآخر، يجب أن نكون قد عانينا مثل هذه الآلام، أو على الأقل نستطيع اقتباسها من خيالنا؛ وهو أمر لا يمكن أن نتوقعه من طفل صغير للغاية، أو من كائن مثل فيكتور يجهل جميع أنواع المعاناة والحرمان التي تتكون منها مصائبنا المعنوية.

٥٤.غير أن ما يبدو أكثر غرابة أيضا في الجهاز الوجداني لهذا اليافع، وما يعجز عنه أي تفسير، هو عدم مبالاته بالنساء بالرغم من

كونه في أوج مراهقته. لقد كنت أطمح إلى بلوغه فترة مراهقته هذه، باعتبارها موردا لتولد إحساسات جديدة لدى تلميذي ولحصولي على ملاحظات هامة. وراقبت بعناية جميع البوادر والعلامات المنذرة لهذه الأزمة المعنوية، وكنت انتظر في كل يوم ظهور نفحة من هذا الشعور العام الذي يحرك جميع الكائنات ويجعلها تتكاثر، وبأن تتولى تنشيط هذا الكائن وتعظيم وجوده المعنوي. وما حدث أو بالأحرى تفجر عند بلوغه هذه المراهقة المرغوب فيها بشدة، هو أن شهوات االعنف الشديد كانت تستنفد قوى متوحشنا اليافع، دون أن يستشعر الهدف منها، ودون أن يحس تجاه أية إمرأة بشعور ولو ضئيل بالتفضيل والإيثار. وبدلا من هذه الحمية المنفتحة التي تدفع جنسا نحو الجنس الآخر، لم أشهد لديه إلا نوعا من الغريزة العمياء ضعيفة الشأن التي وإن كانت من الصحيح أنها تجعله يفضل مجتمع النساء على مجتمع الرجال، إلا أن قلبه لا يشارك في هذا التمييز. هكذا حدث أن شهدته عدة مرات في لقاء ضم النساء يسعى وراء إحداهن للتخفيف من انفعالاته، وقد رأيته يجلس إلى جوارها، ويقرصها بلطفي يدها وذراعيها وركبتيها، ويستمر في ملاطفاته هذه إلى أن يحس بتزايد رغباته المضطربة. وبدلا من أن يسعى إلى تهدئة انفعالاته من خلال هذه المداعبات الغريبة، ولأنه لا يستشف أية نهاية لانفعالته المؤلمة، فإنه يدفع بعيدا عنه تلك التي كان يسعى إلى ملاطفتها، ويلجأ بعدها إلى أخرى غيرها ليسلك معها بالطريقة ذاتها. ومع ذلك مضى في أحد الأيام قدما في محاولاته للإغراء، إذ بعد أن استخدم في البداية المداعبات ذاتها، أمسك بالسيدة من يديها وجذبها بدون عنف نحو مضجع للنوم.

وعندها أصيب بارتباك شديد، واتسمت تصرفاته وهيئته العامة بخليط يعجز عنه الوصف من البهجة والحزن ومن الجرأة والتردد، ثم التمس لدى فتاته مرة بعد أخرى أن تقوم بمداعبته إذ كان يمد إليها خديه، وقام بعدها بالدوران حولها بهدوء بينما كانت هيئته تنم عن

التأمل، وانتهى أخيرا بأن انقض على كتفيها ضاغطـا علـى رقبتـها بشدة. كان هذا هو كل ما حدث، وانتـهت هـذه المشـاهد الغراميـة مثـل جميع المشاهد الأخرى بانقلاب ينم على الغيظ يجعله يدفـع بعيدا تلـك التي كانت هدفا لرغباته العابرة.

٥٥. وبالرغم من أن فوران أعضاء جسـم هـذا اليافع سـيء الحـظ لايزال يتسبب في اضطرابه وهياجه، إلا أنه قد توقف عن السعي إلى تلطيف رغباته الحائرة عن طريق ملاطفاتـه العـاجزة. غير أنـه بـدلا من أن يؤدي هذا الاستسلام إلى تلطيف حالته، لـم يفعـل سـوى زيـادة هياجه، وإلى دفع هذا التعس نحو اليأس من إمكانية إشباع هذه الحاجة الضرورية. وكذلك وبالرغم من النظام الموضوع لتهدئته عن طريق المهدئات والاستحمام والقيام بتمرينات عنيفة، فإنه حينمـا تتفجـر هـذه العاصفة الحسية من جديد، تتسبب في حدوث تغيير كلي في خلق هـذا اليافع الوديع عادة، فيتحول فجأة من الحزن إلى القلق، ومن القلق إلـى الغضـب، ثم يظـهر نفورا مـن مباهجـه، ويتـأوه، ويـذرف الدمــوع، ويصدر صـرخات مرتفعة، ويمزق ملابسه، ويستشيط غضبا إلى حد أنـه يخرمش مربيتـه ويعضـها. وبينمـا هـو مستسـلم لغضــب أعمــى لايستطيع السيطرة عليه، فإنه يظهر ندما حقيقيا، ويطلب تقبيل الذراع أو اليد التي قام للتو بعضها. وحينما يكون في هذه الحالـة نجـد نبضـه سريعا، ويكتسي وجهه اللون الأحمر؛ وفي بعض الأحيان ينساب الدم من أنفـه ومـن أذنيـه: ويضـع هـذا النـزيف نهايـة لـهذه الحالـة ويبعـد تكرارها لأمد طويل، خاصة إذا ما كان النزيف غزيرا. وبنـاء علـى هذه الملاحظة كنت أعالج هذه الحالة باستخدام أسـلوب فصـد الدمـاء لعدم قدرتي على استخدام ما هو أفضـل، ولكننـي كنـت اسـتخدمه فـي تحفظ شديد لاقتناعي بأن الأسلوب المـلاءم هـو تسـكين هـذا الفـوران الحيوي وليس إخماده. ولكن يجـب علـي القـول بأنـه إذا مـا كنـت قـد حصلت على بعض الهدوء باستخدام هذه الطريقة وغيرها الكثير ممـا لا جدوى من سرده هنا، فقد كـانت هـذه النتيجـة مؤقتـة، وقـد تمخـض

استمرار الرغبات العنيفة هذه عن حالة دائمة ومألوفة من القلق والمعاناة عرقلت مسيرة هذا التعليم الشاق.

٥٦.كان هذا هو شأن هذه الفترة الحرجة التي كان يرجى منها الكثير، والتي كانت من الممكن بلا ريب أن تحقق جميع الآمال التي توقعناها منها، ذلك لو أنها كانت بدلا من تركيز نشاطه كله على الحواس، قد أثارت بنفس الحمية الجهاز المعنوي وحملت جذوة الهوى إلى قلبه الفاتر. ومع ذلك فإنني في الوقت الحاضر وبعد أن فكرت بعمق في هذا الأمر، لن أخفي أنه بالاعتماد على طريقة نمو ظواهر البلوغ هذه، قد أخطأت في فكرة تشبيه تلميذي بشاب مراهق عادي، الذي في الأغلب تسبق حبه للنساء إثارة أعضاء اللقاح أو على الأقل تصاحبه دائما. ولم يكن ممكنا أن نجد هذا التوافق بين احتياجاتنا وميولنا لدى كائن لم يتعلم قط تمييز الرجل عن المرأة، ولم يستشف هذا الاختلاف إلا بالاعتماد على موحيات الغريزة وحدها، كما لم يستخدم هذه الموحيات في حالته الراهنة. وكذلك لم أشك مطلقا بأننا لو كنا قد سمحنا لأنفسنا بالكشف لهذا الشاب عن سر اضطراباته العاطفية، وعن هدف رغباته، لكنا قد حصلنا على فائدة هائلة. لكن لو افترضنا من ناحية أخرى بأنني قد سمحت لنفسي بإجراء تجربة مماثلة، فألا يخشى من أننا لو أطلعنا متوحشنا على هذه الحاجة فقد يسعى إلى إشباعها علنا كغيرها من الحاجات مما سيجعله يرتكب أفعالا فاحشة لا تليق؟ كان يجب على التوقف خشية حدوث نتيجة كهذه، والاستسلام أمام مشهد آمالي التي تتبخر بسبب عقبة غير متوقعة، مثلما حدث في مرات عديدة أخرى.

هذه، يا سيدي، قصة التغيرات التي حدثت في جهاز الملكات الوجدانية لمتوحش الأفيرون. ويختتم هذا الجزء بالضرورة جميع الوقائع المتعلقة بنمو تلميذي خلال مدة زمنية تبلغ أربع سنين. ويشهد عدد كبير من هذه الوقائع على قابليته للتحسن، في حين تبدو وقائع أخرى أنها تنفي ذلك. وقد جعلت من واجبي أن أعرضها جميعا بلا

تفرقة بين هذه الوقائع أو تلك، وبأن أروي جميع إخفاقاتي بالصدق ذاته الذي أروي به نجاحاتي. ويؤدي هذا الاختلاف العجيب في النتائج إلى جعل الرأي الذي يمكننا تكوينه عن هذا الشاب غامضا على نحو ما، وإلى إضفاء نوع من التنافر على الاستنتاجات المترتبة على الوقائع المبينة في هذه المذكرة. هكذا حينما نقارن الوقائع الواردة في الفقرات ٦ و٧ و١٨ و ٢٠ و ٤١ و٥٣ و٥٤ لا يسعنا إلا الاستنتاج :

١. بأن تعليم هذا الشاب لا يزال وسيظل دائما ناقصا بسبب عجز أعضاء السمع والكلام شبه المطلق.

٢. بأن الملكات الذهنية تنمو بطريقة بطيئة ومضنية بسبب تعطل نشاطها خلال فترة طويلة، وبأن هذا النمو الذي هو نتيجة طبيعية للزمان وللظروف لدى الأطفال الذين يتربون في ظل المدنية، نجده هنا بأنه نتيجة بطيئة وشاقة لتعليم فعال تستنفد وسائله الأكثر قوة في الحصول على أقل النتائج.

٣. بأنه حينما تتخلص الملكات الوجدانية من خمولها الطويل ببطء تجد نفسها خاضعة في استخدامها إلى شعور عميق بالأنانية، وأنه بدلا من أن يقوم البلوغ بطبع هذه الملكات بالتفتح والتألق، فإنه لا يظهر إلا لإثبات وجود علاقة بين احتياجات حواس الإنسان وبين انفعالات قلبه، وبأن هذا التناغم العذب بينها ليس سوى ثمرة طيبة لتعليم الإنسان مثله في ذلك مثل غالبية انفعالاته الكريمة والنبيلة.

وإذا ما واجهنا بإيجاز التغيرات الطيبة التي حدثت في حالة هذا الشاب وبخاصة الوقائع المثبوتة في الفقرات ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢١ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٩، فإنه لا يسعنا إلا النظر إلى تعليمه من وجهة نظر أكثر إيجابية، والموافقة على اعتبار النتائج التالية صحيحة تماما :

١- حينما يؤدي تحسن حاستي البصر واللمس ومباهج التذوق

الجديدة إلى الإكثار من إحساسات وأفكار متوحشنا فإنــه يســاهم بقـوة في تنمية الملكات الذهنية.

٢- حين نتـأمل مجمل هـذا النمـو ومـداه ، نجـد أنـه مـن بيـن هـذه التغيرات الطيبة معرفة المدلـول التقليـدي لعلامـات الفكـر، واستخدام هذه المعرفة في تعيين الأشياء وتبيان خاصياتها وأفعالها. وتؤدي هذه المعرفة إلى اتساع علاقات التلميذ بـالمحيطين بـه، وإلـى قدرتـه علـى التعبير لهم عن احتياجاته، وتلقي إشعاراتهم، وعلـى أن يجـري معـهم تبادلا فكريا مستمرا وطليقا.

٣- بالرغم من ميل فيكتور المفرط إلى الحرية في الحقول، وعـدم مبالاته بمباهج الحياة الاجتماعية، إلا أنه يعرب عـن امتنانـه للرعايـة التي يلقاها، ويتأثر بالملاطفات والمداعبات، ويحس ببهجة الإجادة في العمل، وبالخجل من ارتكاب الأخطاء، وبالندم على حدة غضبه.

٤- وأخيرا، يا سيدي، فمهما كانت وجهـة النظـر التـي نتـأمل بـها هذه التجربة الطويلة، سواء كـانت باعتبارها تعليمـا منـهجيا لرجـل متوحش، أو الاكتفاء باعتبارها علاجا جسمانيا ومعنويا لأحد هؤلاء الكائنات الفاقدين لحظوة الطبيعة، والمرفوضين من المجتمع، والذيـن تخلى الطب عنهم، وكذلك الرعايـة التـي أحاطنـاه بـها، وتلـك التـي لا زلنـا مدينيـن لـه بـها، والتغيرات التـي حدثـت، وتلـك التـي يمكـن أن نتمناها، والاهتمام الذي يثيره مثـل هـذا الانعـزال المطلـق ومثـل هـذه الحياة الغريبة... ذلك كله يحث على أن يلقى هذا الشاب غير المـألوف اهتمام العلماء، وعناية حكامنا، وحماية حكومتنا.

المراجع الأجنبية

BIBLIOGRAPHIE

Philippe CAMERARIUS Operae horarum subcisvarum sive meditationes historicae auctiores, Francofurti typis J. Saurii impensis P. Kopffii 1602, I, pp. 343 et sq ; *Cite l'enfant de Hesse et l'enfant de Bamberg.*

PISTORIUS Scrip. rerum a Germanis gestarum. Francfort. 1613. Additiones ad Lambert. Schafnaburg. Appositae ab Erphes ferdensi monacho anon. p. 264. *Sur l'enfant de Hesse.*

Kenelm DIGBY Two treatises in the one of which the nature of bodies, in the other the nature of mans soule is looked into : in way of discovery of the immortality of reasonable soules. Paris, G. Blaizot, 1644 pp. 247-248. *Sur Jean de Liège.*

Nicolas TULP Observationes medicae. Amsterdam, D. Elsevirium, 1672 (cf. IV, ch. 10, 5e édition L. B. 1716, p. 296). *Sur l'enfant irlandais.*

Bernard CONNOR Evangelium medici : medicina mystica. Londres, R. Wellington, 1697. Édition de 1699, p. 133. The history of Poland in several letters to persons of quality... Londres, D. Brown 1698-I, pp. 342 et sq. *Signale le troisième enfant-ours de Lithuanie.*

Leipziger Zeitungen von gel Sachen 1725 n° 104, et 1726 n° 17, 61, 88. *Sur Peter.*

Breslauer Sammlungen vol. XXXIV dec. 1725 p. 659 et vol. XXXVI avr. 1726 p. 506. *Sur Peter.*

Zu verlassige nachricht von dem bei Hameln gefundenen wildern Knaben. Wobei dessen seltsame figur in Kupfer gestochen befindlich, 1726. 4T. *Sur Peter.*

Étienne de CONDILLAC Essai sur l'origine des connaissances humaines. Amsterdam, P. Mortier, 1746. Tome premier. Section quatrième. Chapitre II, pp. 202-205. *Cite le deuxième enfant de Lithuanie.*

Louis RACINE Epître II. Sur l'homme. Poésies nouvelles, Paris, Desaint et Saillant 1747 pp. 28-29. 12 *vers et une note concernant la fille de Sogny.* Éclaircissement sur la fille sauvage dont il est parlé dans l'Épître II sur l'homme, in Œuvres de Louis Racine, Paris, Le Normant, 1808, pp. 575-582. *Itard reprendra cet exemple d'après Bonnaterre et, dans son premier rapport sur Victor, citera Racine avec la référence fausse:* La Religion, poème *au lieu de:* Epître II, *qui est un tout autre ouvrage.*

Ein brief des Hamelschen Burgemeisters Palm. V. 1741-in C. F. Fein's Entlareter Fahel von Ausgange der Hamelschen Kinder; Hanovre 1749 p. 36. *Sur Peter.*

Gentleman's magazine vol. XXI 1751 p. 522; vol. LV 1785 p. I, pp. 113, 236, P II p. 851. *Sur Peter.*

Jean-Jacques ROUSSEAU Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes. Note c. Première édition 1754. Réed. Garnier, 1962. pp. 94-96. *Donne 5 exemples. Prétend que la position debout est naturelle à l'homme et que les enfants quadru-*

pèdes n'ont dû leur état qu'à une imitation fortuite de l'animal, imitation qui triompha des dispositions anatomiques. Le regard de Rousseau est aveuglé : le « bon sauvage » est intelligent, généreux et bipède.

Charles-Marie de LA CONDAMINE Histoire d'une jeune fille sauvage trouvée dans les bois à l'âge de dix ans. Paris, H... (Hecquet ?) 1755. *Sur la fille de Sogny dite Marie-Angélique Memmie Le Blanc 72 pages de faits parfois croyables, le plus souvent fantaisistes ou invraisemblables.*

Olivier SWIFT Swift's works. 1755 vol. III P. I p. 132. *Sur Peter.*

Carl von LINNE Systema naturae. 10e édition. (Stockholm) Laurentii Salvii 1758 Tome I, p. 20. *L'auteur rassemble 7 exemples. Contrairement à ce que dit Zingg, Linné donne la bonne date de découverte du « juvenis lupinus hessensis » :* 1344. *C'est dans la* 13e *édition que l'on pourra lire :* 1544, *erreur de typographie sans doute.*
Systema naturae, 13e édition. Leipzig, George Immanuel Beer, 1788, Tome I, p. 21. *L'auteur ajoute* 3 *nouveaux exemples à la précédente liste : le juvenis bovinus bambergensis (emprunté à Camerarius) la puella transislana et la puella campanica.*

Johann Christian Daniel von SCHREBER Die Säugthiere in Abbildungen nach der Natur mit Beschreibungen. Tome I. Erlangen, Wolfgang Walther, 1775 pp. 31-37. *Reprend la nomenclature de Linné, fournit de précieux renseignements sur chaque cas et en ajoute 2 autres. Orthographie Sogny : Songi, comme La Condamine et Zingg.* Trad. Histoire naturelle des quadrupèdes représentés d'après nature. Erlangen, Wolfang Walther, 1775, I, pp. 38-43.

James BURNET, lord Monboddo Ancient metaphysics. Londres, 1784, vol 3, pp. 57 et 367. *Sur le sauvage Peter.*

Johann Gottfried von HERDER Zur Philosophie und Geschichte IV-VII Ideen zur Geschichte der Menschheit ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 488 avec la référence : « Ideen zur Philosophie der Geschichte der Menschheit » — Nazionale Literatur (?) 77, édition 1784 pp. 1070-1109. *Reprend la liste des cas d'après Schreber.*

Michaël WAGNER Beiträge zur philosophischen Anthropologie und den damit verwandten Wisssenschaften. Vienne, Joseph Stahel, 1794, p. 251-268. *Parle de l'enfant de Kronstadt et de l'enfant de Hongrie. Cite deux lettres notamment celle datée de Zips le II octobre 1793.*

Constant de SAINT-ESTEVE Rapport sur le sauvage de l'Aveyron (2 pluviôse an VIII) 22 janvier 1800. In Bonnaterre, Notice historique, p. 23-26.

Journal des Débats (5 pluviôse an VIII) 25 janvier 1800. Lettre du citoyen N. sur le sauvage de l'Aveyron.

Pierre-Joseph BONNATERRE Notice historique sur le sauvage de l'Aveyron et sur quelques autres individus qu'on a trouvés dans les forêts à différentes époques, Paris, Vve Panckoucke, 1800. *Les premières observations concernant Victor par le professeur d'histoire naturelle de l'école centrale de l'Aveyron. Connaît Linné et von Schreber. Cite la « puella karpfensis » la fille sauvage qui aurait été découverte nue dans une caverne en* 1767.

Jean-Marc Gaspard ITARD De l'éducation d'un homme sauvage ou des premiers développements physiques et moraux du jeune sauvage de l'Aveyron. Paris, Goujon, 1801. Rapport fait à S. E. le ministre de l'Intérieur sur les nombreux déve-

loppements et l'état actuel du sauvage de l'Aveyron. Paris, Imprimerie Impériale, 1807. *Réédition des deux ouvrages sous le titre :* Rapports et mémoires sur le sauvage de l'Aveyron. Préface de Bourneville. Textes introductifs de Bousquet et Delasiauve. Paris, Alcan, 1894.
Traduction anglaise par George et Murial Humphrey : « The wild boy of Aveyron ». New York, Appleton Century Crofts, 1932.

Franz Joseph GALL et G. SPURZHEIM Anatomie et physiologie du système nerveux en général et du cerveau, en particulier. Paris, F. Schoell 1810, vol. 2 pp. 42-43. *Une défense de la « nature humaine ». Victor et un enfant de Lithuanie sont cités. « La première question à décider est de savoir si ces êtres, à qui l'éducation a manqué, n'étaient pas déjà des imbéciles. » Les auteurs posent celle-ci sans la résoudre. Selon Zingg, Gall et Spurzheim feraient allusion à deux cas si peu précis qu'il serait vain d'en tenir compte. cf. Am. J. of Psy.* 1940. *p.* 489.

Johann Friedrich BLUMENBACH Beiträge zur Naturgeschichte. Gottingen-Henrich Dieterich 1811. Traduction anglaise : par Thomas Bendyshe-The Anthropological treatises of Johann Friedrich Blumenbach. Londres. Longman. 1865 pp. 329-340. *Un long chapitre critique sur Peter de Hameln. Toute l'œuvre de Blumenbach est entachée de préjugés « biologistiques ».*

Karl Asmund RUDOLPHI Grundiss der Physiologie 2 vol. Berlin, Ferdinand Dümmler 1821, I pp. 25-26. *Expose le problème en s'inspirant de Blumenbach.*

Wilhelm HORN Reisendurch Deutschland, Ungarn, Holland, Italien, Frankreich, Grosbritannien und Ireland. « Gott. gel. Anz. » ; juillet 1831. p. 1097 ;

cité par von Feuerbach : Kaspar Hauser, p. 50. *Apporte un nouvel exemple.*

Schmith von LUBECK Uber Kaspar Hauser. Altona, 1831, cité par von Feurerbach : Kaspar Hauser, p. 53.

Paul J. Anselm von FEUERBACH Kaspar Hauser, Beispiel eines Verbrechens am Seelenleben des Menschen. Ansbach. J. M. Dollfuss 1832. *L'histoire de Gaspard Hauser racontée par l'un de ceux qui l'ont recueilli.* Traduction anglaise : « Caspar Hauser » par H-G Lindberg, Londres, Simpkin and Marshall 1833.

A. BOUSQUET Éloge historique d'Itard. 1er décembre 1839. Paris, Mémoires de l'Académie de Médecine 1840 tome VIII p. 1 et sq. Réédition Bourneville Rapport et mémoires sur le sauvage de l'Aveyron. Paris, Alcan 1894, p. XI-XXVIII. *Bousquet situe, par erreur, la naissance d'Itard en* 1775. *Le registre des baptêmes d'Oraison, conservé aux archives de la mairie, porte pour date* 25 *avril* 1774, *en regard de l'indication : Jean Itard.*

Édouard MOREL Notice biographique sur le Docteur Itard. Annales de l'Éducation des sourds-muets et des aveugles. 1845. pp. 84-99.

Édouard SEGUIN Traitement moral, hygiène et éducation des idiots. Paris, 1846. *Parle des travaux de son maître Jean Itard.* L'idiotie, son traitement par la méthode physiologique. New York, 1866. *Une nouvelle version de l'œuvre de* 1846.

Johann Friedrich Immanuel TAFEL Die fundamentale Philosophie in genetischer Entwickelung mit besonderer Rucksicht auf die Geschichte jedes einzelnen Problems. I ; 1848, 44 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 490. *Discute le point de*

vue de Blumenbach. Non seulement rassemble toutes les données antérieures mais ajoute des cas nouveaux. Idée centrale : l'arriération des enfants sauvages est due à l'isolement.

Jenkins THOMAS An account of wolves nurturing children in their dens. Printer 9, Cornwald street, Plymouth 1852 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 490.

William Henry SLEEMAN A journey through the kingdom of Oude. 2 vol. Londres, Richard Bentley, 1858 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. p. 490 avec comme date 1848. *Le major général Sir William Sleeman se trouva en* 1849-1850 *dans les Indes, au royaume de Oude (Midnapore est dans le Oude). Il y combattait les Thugs. Rapporte plusieurs cas d'enfants-loups : sept en tout, dont un sur la foi d'un témoignage assez vague.*

E-B TYLOR Wild men and beast children. Anthropological review I, 1863 pp. 21-32 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 491. *Le premier grand spécialiste des cas d'isolement. Révise la question en se fondant sur les faits nouveaux rapportés par Sleeman. Critique vivement Blumenbach. Cite lui-même deux cas remontant à l'époque du Premier Empire où les guerres avaient fait bien des enfants perdus.*

Francis GALTON The domestication of animals. Transactions of the ethnological society of London. N. S. 3, 1863 p. 136 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. p. 491. *Assume la thèse culturaliste de Tylor.*

DELASIAUVE Appréciation des rapports d'Itard. Journal de médecine mentale. 18.. *Le texte, postérieur à* 1864, *est repris dans l'édition Bourneville : « Rapports et Mémoires sur le sauvage de l'Aveyron » Paris, Alcan* 1894. *pp. XXIX-XLVII.*

Paul VERLAINE « La chanson de Gaspard Hauser » — titre primitif de « je suis venu calme orphelin » poésie écrite à la prison des Petits-Carmes à Bruxelles. Sagesse, 1873 ; rééd. Gallimard. Coll.

Pléiade p. 183. *Il existait une version « zutique » dont le titre-calembour était : « La chanson du gars pas poseur ». Plus tard, dans « Mémoire d'un veuf », scénario pour un ballet, Verlaine reprendra l'histoire de Gaspard Hauser qui semble l'avoir beaucoup impressionné.*

Valentin BALL Jungle life in India. Londres, T. de la Rue, 1880 ; cité par Zingg. Am. J. of Psy. 1940 p. 491 avec la référence : « Bunhill Row editor ». *Sur des enfants sauvages indiens.*

August RAUBER Homo sapiens ferus oder die Zustände der Verwilderten und ihre Bedeutung für Wissenschaft, Politik und Schule. Biologische Untersuchung. Leipzig, Denicke 1885. *Ajoute un cas. Critique la thèse de Blumenbach. Pense le problème en culturaliste. Livre capital de 134 pages entièrement consacré aux enfants sauvages et comportant une riche documentation historique.*

William Francis PRIDEAUX Wolf boys. Notes and queries 6e S 12, 1885 p. 178. Cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 491.

The zoologist (Linneus society) About the feral men 12, 1888 N. 135 pp. 87-88.

Elisabeth Edson EVANS The story of Kaspar Hauser from authentic records. London, S-Swan 1892.

Hugues LE ROUX Notes sur la Norvège. Paris Calman-Lévy, 1895 p. 16. *Parle de « la petite poule des neiges de Justedal ».*

H-G ROSS About the feral men-The field 9, 1895 N. 2237 p. 786. *Signale un cas d'isolement en Inde.*

Lippincott's magazine Wolf children — 61, 1898 — p. 121. *L'article révèle un cas d'isolement, en Inde de nouveau.*

G-C FERRIS Sanichar, the wolf boy of India. New York 1902. Cité par Claude Lévi-Strauss, Structure élémentaire de la parenté p. 4.

A. BELLANGER Le docteur Itard. Revue générale de l'enseignement des sourds-muets, mai 1904. *Reproduit notamment un fragment du testament d'Itard dont le texte complet est inséré dans : « Mémoire à l'appui d'une demande... formée par Joseph Petit » Digne. Vial. 1859 pp.* 5-10.

E-C Stuart BAKER The power of scent in wild animals. J. Bombay Natural History Society 27, 1920 pp. 117-118. *Note un cas, alors inconnu, d'enfant isolé.*

A. CASTEX Jean Itard, sa vie, son œuvre. Bulletin d'oto-rhino-laryngologie. Septembre 1920.

A-F TREDGOLD Mental deficiency 1920 p. 304 ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 493. *Pense que l'enfant isolé, notamment Gaspard Hauser, est « amens », de ce fait même.*

Édouard HERRIOT Madame Récamier et ses amis. Paris. Payot 1924 pp. 75-76. *Rapporte que le sauvage Victor, grimpé dans un arbre, donnait en* 1803 *des émotions aux invitées de Madame de Récamier à Clichy-la-Garenne.*

Maria MONTESSORI Pédagogie scientifique. 1926. Traduction française de Georgette J-J Bernard 3e édition. Paris Desclée de Brouver 1958. pp. 24-29. *Sur le sauvage de l'Aveyron et la pédagogie d'Itard.*

Herman PIES Kaspar Hauser, 1926-cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 496.

New York Times Amala and Kamala 22 oct. 1926 p. 1 ; 23 oct. 1926, p. 11 ; 26 déc. 1926 p. 4. *Les premiers articles qui révèlent aux U. S. A. l'existence des filles-louves de Midnapore.*

Time Amala and Kamala 1er nov. 1926 p. 25.

PEITSERLEY Kaspar Hauser Ansbach-Druck, C. Brugel und Sohn ; cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 496.

The Pioneer (Indian periodic) About the wild boy of Maïwana, 5 avril 1927. *Première information connue concernant ce cas d'isolement.*

The Englishman (Indian periodic) About wild boy of Maïwana 7 avril 1927.

New York Times Amala and Kamala 30 janvier 1927 p. 14 ; 6 avril 1927 p. 11 ; 12 mai 1927 p. 20.

Literary digest India's wolf children 95, 8 octobre 1927 pp. 54-56. *Sur l'enfant de Maïwana.*

Living Age About wild boy of Maïwana 332, 1927 pp. 1020-1022.

P. C. SQUIRES Wolf children of India Am. J. of Psy. 38, 1927, pp. 313-315. *Première note parue dans l'American Journal of Psychology concernant Amala et Kamala, les filles-louves de Midnapore. Le docteur Squires a reçu, à ce sujet, une lettre du Révérend Singh.*

New York Times About the wild boy of Maïwana 6 avril 1927 p. 4 ; 27 avril 1927 p. 11 ; 2 mai 1927 p. 20 ; 10 juillet 1927 p. 10 ; 17 juillet 1927 p. 9.

Luise BARTNIG Altes und Neues zu Kaspar Hauser, 1930, cité par Zingg Am. J. of Psy. 1940 p. 496.

E-T KRUGER et W-C RECKLESS Social Psychology New York Longmans-Green, 1931 pp. 38-39. *Considère comme très instructifs en psychologie sociale les phénomènes d'extrême isolement.*

W-N KELLOG More about the wolf children of India. Am. J. of Psy. 43, 1931 pp. 508-509. *Publie une information due au Professeur Mumby du Christian College de Lucknow (Inde) lequel cite une lettre originale du Révérend de Midnapore qui captura les fillettes-louves. La lettre est du 22 janvier 1931. Elle relate précisément les circonstances de la découverte et donne un schéma de l'évolution psychologique de Amala et Kamala.*

A further note of the wolf children of India. Am. J. of Psy. 46, 1934 pp. 149-150. *Fait mention d'une lettre émanant directement du Révérend Singh et cite, in extenso, le rapport du Dr Sarbadhicari qui soigna Amala et Kamala, du jour de la capture à leur mort. Kellog conclut : « ces enfants sont indiscutablement les exemples les plus frappants d'enfants-sauvages connus à notre époque. La publication des documents exhaustifs est attendue avec un vif intérêt. »*

R-M ZINGG Extreme cases of isolation — Illustrated Weekly of India 5 février 1933 p. 37. *Sur un nouveau cas d'enfant-loup aux Indes.*

G-M STRATTON Jungle children. Psychological Bulletin 31, 1934 pp. 596-597.

New York Times Anna of Pensylvania 6 février 1938. *Cet article révèle la découverte d'Anna, bâtarde séquestrée dans une ferme américaine en raison de l'hostilité de l'aïeul maternel. Le cas sera plus tard étudié par Kingsley Davis.*

A. PORCHER Itard. Revue Générale de l'Enseignement des sourds-muets, trois numéros : juin 38, pp. 113-124 ; juillet-sept 38 pp. 129-132 ; octobre 38, pp. 1-6. *Bibliographie d'Itard et résumé de l'histoire du Sauvage de l'Aveyron. L'auteur attribue*

à tort à Linné la désignation « Juvenis Averionensis » Linné, mort en 1778, n'a pas connu l'élève d'Itard. Cette expression à la mode latine est de Bonnaterre dans sa « Notice Historique » de 1799.

S-H HUTTON About the wild boys. « London Times » 24 juillet 1939. *Cite le cas d'un nouvel enfant sauvage.*

R-M ZINGG Feral man and extreme case of isolation. Am. J. of Psy. 53, 1940 pp. 487-517. *L'étude la plus complète qui ait jamais été publiée sur la question. A un aperçu historique du problème succède une évocation des exemples incertains, probables et authentiques. L'auteur retient 36 cas. En la première partie, analytique, il dresse une nomenclature (pp. 487-503). En la seconde partie, synthétique, le portrait de l'homo ferus est tracé (pp. 504-517). Tout au long de l'article, une abondante bibliographie se suspend au bas des pages dont on peut seulement regretter parfois le caractère évasif et lacunaire (ou sans suffisante exactitude lorsqu'il s'agit des textes du XVIIIe ou du XIXe siècle). Nous avons complété et rectifié de très nombreuses indications après lecture et examen des ouvrages à la Bibliothèque Nationale au Muséum d'Histoire Naturelle et à la Bibliothèque de l'École Normale Supérieure à Paris.*

Science new letter Amala and Kamala 13 juillet 1940 pp. 26-29.

Reader's digest Amala and Kamala, août 1940 pp. 40-42.

Kingsley DAVIS Extreme isolation of a child. Am. J. of Sociology 45, 1940 p. 554-565. *Le cas d'Anna, fillette ayant subi la claustration. Kingsley Davis a suivi l'évolution de l'enfant en compagnie de Richard G. Davis. Rapporte l'examen physiologique du Dr Edmond Carr.*

F-N MAXFIELD (Ohio State University) An extreme case of isolation 1940 ; cité par Zingg Am. of Psy. 1940 p. 517. *Un cas semblable à celui d'Anna.*

Science A discussion of baboon boy case, 22 mars 1940 pp. 291-292. *Sur le prétendu enfant-babouin d'Afrique du Sud.*

J-P FOLEY The baboon boy of South Africa. Am. J. of Psy. 53, 1940 pp. 128-133. *Présente comme vraisemblable un cas d'isolement qui n'a, en fait, connu de réputation qu'à la faveur d'une supercherie. Zingg, la même année, dans la même publication, va répondre à Foley et montrer qu'on ne peut retenir cet exemple.*

R-M ZINGG More about the baboon boy of South Africa. Am. J. of Psy. 53, 1940 pp. 455-462. *Détruit la légende de Lucas présentée par J-P Foley. Cite les témoignages du Professeur Raymond A. Dart, du superintendant médical J-A van Heerden, du Docteur E-G Dury, du Docteur C-G Cassidy et du lieutenant-colonel de Police O-J-T Horak.*

Time Amala and Kamala 3 mars 1941 pp. 58-60.

Scientific American Amala and Kamala mars 1941 pp. 135-137.

American Weekly Amala and Kamala 18 mai 1941 pp. 12-13, 17.

Arnold GESELL The biography of a wolf child. Harper's magazine, janvier 1941 pp. 184-193. *Un résumé de l'histoire de Amala et Kamala.*

Wolf child and human child. New York, Harper 1941, édition anglaise : Londres, Methuen, 1941. *Le cas de Amala et Kamala d'après le journal du Révérend Singh. Avec de nombreuses planches photographiques. Gesell tient pour fantaisistes les objec-*

tions de ceux qui voient une oligophrénie intrinsèque où il n'y a qu'une arriération par absence de toute éducation.

W. DENNIS The signifiance of feral man. Am. J. of Psy. 54, 1941 pp. 425-432. *Suppose que les traits de comportement des « homines feri » peuvent s'expliquer par l'oligophrénie native et que leur survie solitaire n'a dû être que de courte durée. Zingg fournira des réponses à ces objections dans la même revue pp.* 432-435, *à la suite de l'étude de Dennis.*

R-M ZINGG Reply to professor Dennis : « The signifiance of feral man » Am. J. of Psy. 54, 1941 p. 432-435. *Zingg répond à Dennis : les enfants sauvages authentiques ont connu un long isolement et n'étaient nullement des arriérés constitutionnels.*

J-A-L SINGH et R-M ZINGG Wolf children and feral man. New York Harper 1942. *Le grand livre concernant Amala et Kamala ; écrit en collaboration avec le Révérend Singh et le professeur Zingg de l'Université de Denver.*

Kimball YOUNG Sociology, New York, American Book C°, 1942 pp. 5-8, 11. *Porte un intérêt très vif, du point de vue sociologique, au problème du « feral man ».*

F-C DOCKERAY Psychology-New York, Prentice Hall 1942. pp. 82-83. *Voit dans les enfants sauvages les « preuves naturelles » de l'importance de la culture.*

E-D CHAPPLE et C-S COON Principles of Anthropology-New York, Henri Holt, 1942 pp. 63-64. *Signale les cas de sauvagerie comme très importants dans la construction de la notion d'homme social.*

Saturday home Magazine Amala and Kamala 30 août 1943 p. 5.

Coronet Amala and Kamala, mai 1943 pp. 141-150.

American Weekly About the baboon boy, 10 décembre 1944 p. 16. *Reprend la légende, d'après Foley.*

Jacob WASSERMANN Kaspar Hauser oder die Trägheit des Herzens-Singen. Oberbadischer Verlag (oberbadische Druck und Verlangsans talt 1947). *La vie romancée de l'enfant de Nuremberg.* Traduction française de Romana Altdorf : Gaspard Hauser ou la paresse du cœur. Paris club Français du livre, 1952.

Claude LÉVI-STRAUSS Les structures élémentaires de la parenté, chap. I. Nature et Culture Paris. Presses Universitaires de France 1949 pp. 2-5. *Expose le problème. Cite quelques ouvrages dont les références sont souvent fausses. Ce n'est pas, au fond, son sujet. Dit très justement que, de toute façon, l'« enfant sauvage », même authentique, ne peut symboliser quelque état d'une humanité première.*

W. DENNIS A further analysis of reports of wild children. Children development 22, 1951, pp. 153-158. *Nouvel examen polémique des documents concernant les « homines feri ».*

André DEMAISON Le livre des enfants sauvages. Paris, André Bonne, 1953. *Prend prétexte de deux cas qu'il a rencontrés pour une vie romancée d'Assicia. A lu Freeman et Valentin Ball, qu'il cite abondamment en un livre hâtivement écrit et qui recèle des erreurs que son auteur qualifie par avance de « poétiques ».*

Marian SMITH Wild children and the principle of reinforcement Child. development 25, 1954, pp. 115-123. *A la théorie de l'arriération par isolement l'auteur substitue celle de la démence par isolement.*

Otto KLINEBERG « Social psychology » New York Henry Holt revis. ed. 1954. Trad. française de R. Avidgor-Coryell. Paris P. U. F. 2e édition 1963

pp. 80-83. *Ne voit guère comment des enfants déficients auraient pu survivre dans des conditions aussi difficiles que celles de Kamala ou de Victor. Note que les enfants déficients du reste se conduisent en général de tout autre façon que ceux découverts loin de la société humaine. Conclut que certains (des témoignages) méritent d'être pris au sérieux.*

Henri PIERON « L'importance de la période préscolaire pour la formation de l'esprit ». Cahiers pédagogiques et d'orientation professionnelle. Liège 1954. *Prend pour exemple le cas de Anna, étudié par Davis.*

Maurice MERLEAU-PONTY « Les relations avec autrui chez l'enfant » cours professé au Collège de France. Paris Centre de Documentation Universitaire 1958 pp. 13-18. *Voit dans le mutisme de l' « homo ferus » la conséquence d'une frustration affective et d'une privation de « contacts sociaux ».*

R. FARENG « Le sauvage de l'Aveyron » Revue du Rouergue, oct-déc 1959 pp. 402-417. *Une étude scrupuleuse de l'histoire de Victor et des « contributions d'Itard aux progrès de la pédagogie ».*

René ZAZZO « Les jumeaux, le couple et la personne » Paris P. U. F. 1960. Tome I pp. 44-45. Écrit :

l'exemple de Kamala montre qu'à la limite les effets de l'hérédité sur la genèse du comportement peuvent être quasiment nuls.

Bergen EVANS The natural history of nonsense. New York, Alfred Knopf. *Un livre amusant parfois contestable.* Traduction française : « Histoire naturelle des sottises » par Bernard Heuvelmans et Jean Mergault. Paris, Plon 1961 pp. 61-68. *Avec une photographie de « Ramu ».*

Anna ANASTASI Differential psychology 3e édition. New York, Mac Millan, 1962, pp. 107-112. *Considère que si certains cas d'isolement sont suspects,*

les cas valables sont riches d'enseignement en ce sens qu'ils confirment les connaissances que nous avons par ailleurs des processus d'acculturation.

Paul SIVADON Infirmes et incurables. Recherches Universitaires mars-avril 1963, p. 21. *Une interprétation culturaliste de l'arriération de Kamala par Sivadon, professeur de Psychiatrie à la Faculté de médecine de Bruxelles,* reprise dans le numéro spécial d' « Esprit » novembre 65 pp. 636-637.

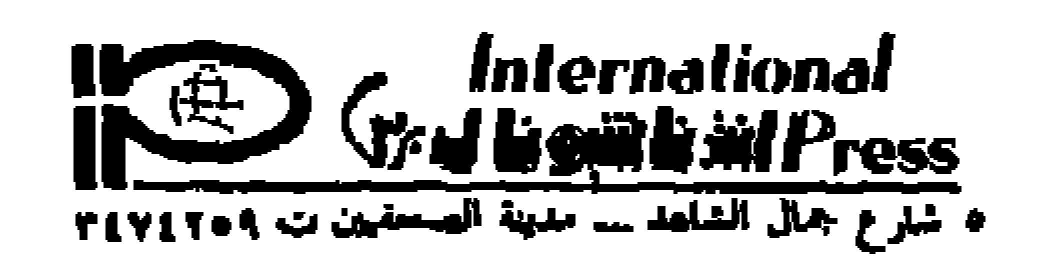
Jean-Claude AUGER « Un enfant gazelle au Sahara occidental » Notes africaines n° 98 avril 1963 pp. 58-61. *Auger a vu, à plusieurs reprises, du 22 septembre 60 au 13 octobre un enfant sauvage dans un des « garas » du Tiris, au milieu de gazelles sahéliennes.*

O. MANNONI « Itard et son sauvage » Les Temps Modernes, octobre 1965 n° 233 pp. 647-663. *L'auteur regrette qu'Itard n'ait pas été Sigmund Freud.*

فهرست

رقم الإيداع ٩٧/١١٣٨٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5091 - 27 - 6



هذا الكتاب

قد يثير دهشة القارىء للوهله الاولى عنوان هذا الكتاب «الأطفال المتوحشون» ولكن الواقع انها دراسه تحليلية فى علم الاجتماع النفسى قام بها عالم الاجتماع النفسى «لوسيان مالسون» وكذلك الطبيب النفسى الشهير «چان إيتار». تبحث هذه الدراسة فى أثر البيئة الاجتماعية على الكائن الحى من حيث تكوينه النفسى والبايولوچى وإيضا فى سلوكه وعاداته وطبائعه وحتى فى لغة الحوار التى يتعامل بها محاولة منه الاندماج والانصهار فى البيئة المحيطة به ويناقش أيضا «مالسون» التأثير الوراثى على النمط النفسى وعلاقة النبوغ والتخلف العقلى بالوراثة والبيئة الاجتماعية.

اما المقصود هنا «بالأطفال المتوحشون» فهم هؤلاء الأطفال التعساء الذين ساقهم قدرهم الى العيش فى الصحراء المعزوله والغير مأهوله وفى الغابات بين الحيوانات بعيدين عن الاتصال بالجنس البشرى يمشون على أيديهم وأرجلهم، فهم شواذ بيولوچيا مصابون بالبلاهة والتخلف العقلى نتيجة لحرمانهم من كل اشكال الحياة الطبيعية وبالتالى اصبح سلوكهم غير سوى وغير متحضر والدراسة التى قام بها «چان إيتار» تبين حالة هؤلاء الأطفال بعد انتشالهم من هذه الظروف ا[illegible] وإمكانية ترويضهم وتعديل سلوكهم ليصبحوا أطفالاً أسو[illegible]

ويشتمل الكتاب أيضا على وثيقتين هامتين تنشرا[illegible] متوحش الافيرون قام بها الطبيب النفسى «چان إيتـ[illegible] مؤسس لحركة تعليمية وأحد أفضل العقول خلال النصف [illegible] التاسع عشر.